الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٢٧٧ - رجب ١٤٢٠ هـ - أكتوبر/نوفمبر ١٩٩٩ م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 277 - OCT./NOV. 1999

البرديات وكتابة التاريخ

نساء الجزائر: الواقع والأسطورة

السينما في القرن العشرين

التعليم العالي في إسرائيل

توزر
عين الصحراء التونسية

في جميـع مسـاعيهـا

حرصت الفيصلية على تكريس جل جهودها وإمكاناتها لتحقيق هدف واحد. هو كيفية تطوير سبل الحياة في شتى ميادينها والارتقاء بها إلى أفضل المستويات. ولتحقيق هذا الهدف فقد أقامت الفيصلية شراكات راسخة مع بعض من أشهر الماركات التجارية في العالم.

ففي منازلنا. نجد سوني SONY قد ساعدتنا في تعزيز أسلوب حياتنا اليومية على نحو أكثر متعة وإثارة. بينما نجد ميجاستار أكبر شركات الموسيقى في الشرق الأوسط قد منحتنا البهجة والسعادة بما تقدمه لنا من فنون أصيلة وموسيقى راقية. أما في مكاتبنا ومدارسنا ومنازلنا. فنجد أن hp HEWLETT PACKARD تواصل باستمرار تقدمها لتحقيق التميُّز النوعي في مجال أتمتة المكاتب. والتعليم والثقافة والمعرفة. والإستفادة القصوى من تقنية المعلومات بواسطة الكمبيوتر. كما نجد أن مئات الآلاف من الأسر في كافة أرجاء المملكة العربية السعودية تفضل حليب ومنتجات الصافي AL SAFI الطبيعية التي توفرها لهم أكبر وأضخم مزرعة ألبان متكاملة في العالم. وفي محلات السوبرماركت والزهور نمدكم بأرقى أنواع الورود والزهور الطبيعية والخضروات الطازجة التي يتم زراعتها بواسطة مؤسسة الفيصلية الزراعية. وفي مجال وقود السيارات نجد شركة Ethyl الرائدة عالمياً في صناعة المواد الكيميائية تقوم بانتاج المواد المضافة ذات الجودة العالية التي يتم استخدامها في تحسين وقود السيارات. كما نجد أن المستشفيات والمستوصفات الطبية تعتمد بدرجة كبيرة على كفاءة أجهزة TOSHIBA Medical Systems الطبية في أغراض التشخيص وغيرها من الأمور الطبية. فمن أجهزة التسلية وأنظمة الكمبيوتر والصناعات الكيميائية إلى منتجات الألبان الطازجة والخضروات والزهور الطبيعية. كرسنا جهودنا وسخرنا إمكاناتنا لنحقق التميُّز والهدف المنشود.



مَجمُوعَة الفيصَلية
Al Faisaliah Group

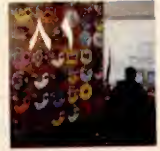
شارع العليا العام – مركز النمر التجاري. ص . ب ١٦٤٦٠ الرياض ١١٤٦٤ المملكة العربية السعودية – هاتف: ٤٦١٠٠٧٧ – فاكس: ٤٦٤٠٤٩٨

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - السنة ٢٤ العدد ٢٧٧ - رجب ١٤٢٠هـ - أكتوبر/نوفمبر ١٩٩٩م
ALFAISAL MAGAZINE - No 277 - OCT. / NOV. 1999

المحتويات

الناشر: دار الفيصل الثقافية



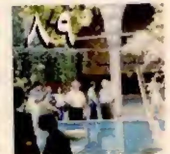
القصة المستمرة لعصر الحاسوب

يحق لعصرنا هذا أن يطلق عليه عصر الحاسوب، إذ لا مجال من مجالات الحياة يمكن أن يستغني عن هذا الجهاز السحري. ولكن قد يجهل كثيرون مراحل تطوره، على الرغم من أن قصة هذا التطور ملأى بطرائف وأخبار وأسماء مغامرين كان لهم فضل كبير في تطور الحاسوب.



ما علاقة صحة الفم والأسنان بصحة الإنسان؟

قال العرب قديمًا: إن الأسنان عضو نبيل، وجوهر شريف تجب المحافظة عليه، وأثبت الطب الحديث أن للأسنان فوائد عديدة سواء في مسألة النطق أو في الغذاء، فما الأسلوب السليم للحفاظ على صحة الأسنان؟



بيمارستان أرغون الكاملي المملوكي: دار رحمة وشفاء

البيمارستان لفظة فارسية من كلمتين (بيمار) ومعناه مريض، و«ستان» ومعناه مكان، وبذلك تكون «مكان المرضى» أو «دار الشفاء»، وقد عرف العرب البيمارستانات منذ القرن الأول الهجري، ومن أشهرها بيمارستان أرغون الكاملي الذي أنشئ في عام ٧٥٥هـ، وتميز بعمارته وأقسامه وتخصصاته وما عليه من كتابات أثرية.



توظيف غير علمي لمصطلح علمي: «التاريخ»

وجد كتاب «نهاية التاريخ» لفرانسيس فوكوياما ردود أفعال واسعة، مؤيدة ومنتقدة، فهل الفوكويامية فعلاً فيها إقصاء لبقية العالم - غير الغربي - خارج التاريخ؟ وإلى أي مدى يكتب فوكوياما بأفكار مسبقة لتسويغ معتقدات واتجاهات فكرية؟

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتَّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات - الكويت ٦٥٠ فلس - الإمارات ٧ دراهم - قطر ٧ ريالات - البحرين ٧٥٠ فلس - عُمان ٧٥٠ بيسة - الأردن ٥٠٠ فلس - اليمن ٦٠ ريالاً - مصر جنيهان - السودان ١٥٠ جنيه - المغرب ٨ دراهم - تونس دينار واحد - الجزائر ٨٠ دينارًا - العراق ٤٠٠ فلس - سورية ٣٠ ليرة - ليبيا ٨٠٠ درهم - موريتانيا ١٠٠ أوقية - الصومال ٢٠٠٠ شلن - جيبوتي ١٥٠ فرنك - لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ١١٤٠ - ٠٢٥٨

الموزعون

السعودية - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع - هاتف ٤٧٨٢٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣، مصر - مؤسسة توزيع الأهرام - شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ - فاكس ٣٣٩١٠٩٦ - ٢٠٢٠٠، سورية - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ - ١١ - ٠٠٩٦٣، تونس - الشركة التونسية للصحافة - ٣نهج المغرب - فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩- ٠٠٢١٦-١، قطر - دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع - ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦١٢٨٢ - فاكس ٦٦١٨٦٥ - ٠٠٩٧٤، الأردن - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ - فاكس ٤٦٣٥١٥٢ - ٦ - ٠٠٩٦٢، البحرين - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ - فاكس ٥٣١٢٨١ - ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة - مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ - فاكس ٦٦٩٨٢٧ - ٤ - ٠٠٩٧١، الجزائر - مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة. ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ - ٠٠٢١٣، الكويت - شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ - فاكس ٢٤١٧٨٠٩ - ٠٠٩٦٥، السودان - دار التوزيع العام - ص.ب ٣٥٨ هاتف ٧٧٥٥٨٥ - فاكس ٧٧٥٧٧٠ - ١١ - ٠٠٢٤٩، المغرب - CAS - SOCHPRESS - CAS - CASABLANCA - MOROCO TEL:245745 -، فاكس ٠٠٢١٢ - ٤٠٤٠٣١/ ٣٢، باكستان - PARADIS BOOK STALL - KARACHI 3. PAKISTAN TEL:5683494 - فاكس ٠٠٩٢-٢١-٥٦٨٢٧٠٤، الجمهورية اليمنية - محلات قائد التجارية ص.ب ٣٠٨٤ الحديدة هاتف ٢١٧٤٤٤ - فاكس ٢١١٥٣٥ - ٣ - ٠٠٩٦٧، سلطنة عمان - المتحدة لخدمة وسائل الإعلام - ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت:٧٠٠٨٩٥ / ٧٠٧٩٣٢ - فاكس ٧٠٦٥١٢ - ٠٠٩٦٨



Najd Commercial Printing Press
Tel. - 4488024

أغلى ما أملك

إني أكتب للمرة الأولى لمجلتي الغراء والمعلمة الأولى مجلة «الفيصل» التي كثيراً ما أمدتني بالعلوم والمعرفة. وأهنئكم على هذه المجلة الرائدة، وبارك الله لكم، وسدد خطاكم إنه سميع مجيب.

فأنا قارئ قديم للمجلة، وقد لاحظت ما يطرأ عليها من تغييرات عبر الزمن، وبحكم بُعد المسافة التي أقطعها للحصول على المجلة «تقريباً ٦٠كلم» وذلك لبعد الشقة. فأنا في قرية نائية بعيدة كل البعد عن المدن، ولا يوجد سوى محل واحد في القرية يمونها بالمواد اللازمة فقط، أما المجلة والكتاب فلا وجود لهما ولا خبر.

إلا أن لديّ مكتبة خاصة تحتوي على مجموعة قيمة من الكتب الدينية والأدبية الحديثة والقديمة، ولديّ مجموعة كبيرة من أعداد مجلة الفيصل الحبيبة التي كثيراً ما تعذبت من أجل الحصول عليها. فأنا محافظ عليها كل المحافظة فهي أغلى ما أملك. وكما أسلفت فإن بُعد المسافة حال بيني وبين قراءة بعض الأعداد والتمتع بها والاستفادة منها. وقد حصلت على بعض الأعداد المفقودة من بعض الزملاء الحريصين على نشر المعرفة، ولكن لم يحالفني الحظ في الحصول على بعض الأعداد من المجلة وأنا أتقطع أسفاً لذلك، وفكرت في الحصول عليها بأي طريقة، وتكبدت عناء السفر لأصل إلى البريد الذي يبعد عني مئات الكيلومترات لأصرخ «وافيصلاه»، فلعلها تجيب النداء، وتسمع الصوت.

والأعداد هي (١٧٤ - ١٩٨ - ٢٥٧ - ٢٣١ - ٢٠٥ - ٢٤٣ - ٢٣٩ - ٢٥٠)، وشكراً لكم علماً أن عنوان أحد المعارف هو

صالح سليمان أبا الخيل
البكيرية ص.ب ١٨٤. السعودية

التحرير:

نشكر لكم مشاعركم الأخوية، ونأمل أن تصل إليك الأعداد التي طلبتها في القريب.

أين الاستراحة ؟

أتقدم بالشكر الجزيل إلى العاملين في مجلة الفيصل، فأنا متابعة لها منذ عشر سنوات. وقد لفت نظري التغير الطارئ على أبواب المجلة، فقد كنت أستروح من قراءة المقالات المتراصة في باب استراحة العدد، وأتصور أن القارئ بحاجة إلى مثل هذا الباب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن المجلة عربية تؤرخ بالتقويم الهجري، أليس من الغريب ألا تتطرّق في بداية العام الهجري الجديد لأهم حدث غيّر مجرى التاريخ ألا وهو هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم؟!.

إن إغفال هذا الحدث في عددكم رقم (٢٧١) يعد ثغرة كبيرة أرجو أن يتم تلافيها في أعداد أخرى، ولكم مني خالص مودتي واحترامي.

المهندسة إيمان قصّاص

التحرير:

لا تتم عملية التغيير والتطوير بين يوم وليلة، وإنما تحتاج إلى وقت طويل للتخطيط والتنفيذ والتقويم، ونحن نحاول أن تكون المقالات جميعها استراحة للقراء تجمع بين المتعة والفائدة، بدلاً من تخصيص باب محدود المساحة للاستراحة.

واحتفالنا بالهجرة النبوية لا يقتصر على شهر واحد فحسب، بل نحاول أن تكون في كل عدد مقالات في الفكر الإسلامي تتطرق إلى قضايا دينية عميقة، وهي تتفرع لتشمل جوانب القرآن والعقيدة والسنة والسيرة، وغير ذ لك.

الصبر.. ولو كان مرّاً !

لقد أعجبت جداً بالنهج الجديد الذي مشت عليه مجلة الفيصل بتناولها عدداً من الموضوعات في ثوب جديد.

والحقيقة تقال، أو للأمانة، فإن للخليج أعظم الفضل في الثقافة العربية والإسلامية، وتضطلع الفيصل بالقسم الكبير في هذا العبء، يعود الفضل لكم بعد عناية الله، وإن استمرار أيّ مجلة في الصدور لهو الدليل والبرهان على حيويتها، وإقبال القراء عليها، ونحن ننتظرها بصبر نافد، مع أنها لا تصل إلينا إلا في الأيام الأخيرة من كل شهر عربي، ولقد كتبت لكم ذلك لقلة أعدادها، وتأخر وصولها، ولا يعطى للمكتبة ذات الحظ الأوفر إلا ثلاثة أعداد، وعند هذا الكلام مجموعة من علامات الاستفهام، ولقد أشرتم إلى ذلك من قبل، وذكر اسمي في هذا الموضوع.

وأعود وأقول: لابد من الصبر ولو كان مراً.

أخي الكريم أطمع في أريحيتكم الكريمة، وأطلب إهدائي معجم الأمثال العربية، وأكون من الشاكرين.

أنتهز نهاية رسالتي هذه لأرسل تحياتي مع نسيمات الهواء العليل .

أملنا كبير وشكرنا عظيم وتمنياتنا لكم وللمجلة، وفقكم الله ورعاكم.

د. أحمد محمد سليمان
حمص - ص.ب ١٦٧٣. سورية

التحرير:

نشكر لكم آراءكم القيمة، وقد جرى العمل على علاج مشكلة تأخر وصول المجلة إليكم، وللحصول على معجم الأمثال يمكنكم إرسال قيمته وقدرها(٧٥ريالا) بشيك على عنوان مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، لأن كثرة طلبات الإهداء تجعلنا عاجزين عن تلبيتها.

شخصيات تاريخية

أولاً نشكركم جزيل الشكر على ما تبذلونه في سبيل خدمة المسلمين وخدمة القراء في كل أرجاء العالم، ولقد صارت مجلة الفيصل وما زالت مناراً للعلم والمعرفة وقد حظيت بشهرة مرموقة بين سائر المجلات، وهذا ما هو إلا دليل على جهودكم المخلصة ومحبتكم للقراء وسعة صدوركم لتقبل الآراء والأفكار واهتمامكم الجاد والفعال مع المراسلين من دون استثناء..

ونشكر لكم أيضاً ما وعدتم به القراء من إعادة الأبواب الثابتة بثوب متميز وراقٍ وأكثر جودة وأصالة مثل: المسابقة الثقافية ودائرة المعارف والاستراحة والطريق إلى الله وطريق الهدى، وغيرها.

وأقترح استحداث بـاب بعنوان «شخصيات تاريخية أو شخصيـات وبطولات» لإبراز الشخصيات الإسلامية.

وفي الختـام ـ لدي طلب أتمنى ألا يهمل كـما أهمل في رسـالة سابقة ـ ولا أدري أهو مـن جانبكم أم ضاعت الرسالة في البريد والطلب يتمثل في تزويدي بأعداد مجلة الفيصل وهي أرقام (٢٥٦ ـ ٢١١ ـ ٢٤٩ ـ ٢٤٨ ـ ٢٤٧ ـ ٢٥٧).

ولكم خالص الشكر، والسلام عليكم ورحمة الله.

علي أحمد عبدالله

اليمن ـ البيضاء ـ شمسان ـ ص.ب ٣٨١٤٥

التحرير:

نشكر لكم إطراءكم واهتمامكم بالمجلة وتطورها، واقتراحك سيكون محل اهتمامنا، كما هو الحال مع كل اقتراح يأتينا من الإخوة القراء، لأن هدفنا تقديم زاد ثقافي يتفاعل معه القراء، ويستفيدون منه، أما الأعداد التي طلبتها فسوف تصل إليك قريباً إن شاء الله.

أسباب!!

الحمد لله حمداً لا يبلغ منتهاه، والصلاة والسلام على مصطفاه، وعلى مَنْ صاحبه ووالاه وبعد:

فـانطلاقًا من قـول الله تبـارك وتعالى: وتـعاونوا عـلى البر والـتقـوى. المائدة: ٢. وانطلاقًا من قـول رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.: «والله في عـون العبد ما كان العبد في عـون أخيه» أكتب إليكم هذه الرسالة سائلاً المولى ـ عز وجل ـ أن تكون موضوع نظر واهتمام.

لقد وجدت في مجلة الفيصل الغراء بغية المراد. فهـي تتناول بأناقة أسلوبها وجمال موضوعاتها ما يروي الغليل ويشفي العليل. فاشرأبت لهـا الأعناق وهفت إليها القلوب وعلى الرغم من صدورها منذ سنوات عدة. فلم أحـصل حتى الآن إلا على أربعة أعـداد آخرها عدد صفـر ١٤٢٠هـ ولذا كانت هذه الرسالة.

إن هذه الرسالة في المقـام الأول دعوة خيـرية لسيادتكم بأن تمدوني بما اسـتطعتم من أعداد سـابقة ولاسيما الأعـداد: ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦ لأنها تتناول موضوعات بالغة الأهمـية بالنسبة إليّ. وقد كتبت هذه الرسالة للأسباب التالية:

أولاً: حـرصاً على العـلم وجمـعـه. وناهيك به من مطلب. وأعظم برجل نأى عن شـهـوات النفس وتطلع إلى نور العلم وصدق الحبـيب صلى الله عليه وسلم: «منهومان لا يشـبعان طالبُ علمٍ وطالبُ مال».

ثانيًا: اشتـياق الروح إلى مطالعة الأعـداد السـابقة والـتي كانت ذات صـبغـة خـاصـة، فـالحقُّ أن الفيصل في أعدادها السابقة كانت أفضل وليست أقل حُسنًا في ثوبها الجديد.

ثالثًا: التماساً لظروفي المادية. فهي ولله الحمد غير متيسرة.

إنني إذ أسطر إليـكم هذه الكلمـات إنما أخـاطب فـيكم روح الجـود والكرم. وأكـاد أقطـع بمعـاملتكم الكريمة وذلك إزاء نشركم وجهات النظر المتعارضة والـنقد الحاد في المجلة. فأسأل الله أن يسعني ما وسعهم وأن أجد في صدركم الرحيب زاوية لي، وبعد. فالجود بالعلم أقصى غاية الجود.

ولم أر في عيوبِ الناس عيبًا

كنقصِ القادرينَ على التمام.

فإن وافقـتم على طلبي فبهـا ونعمت وحفظ الله لكم مسـاعيكم النبيلة. وسأكـتب اسمي وعنواني في آخر الرسالة.

وإن كانت الأخرى فلله الحمد والشكر ولكم في ذلك العذر.

والله أسـأل أن يضـع لمجلتـكم القبـول والتكريم، وأن ينفع بهـا النفع الـعمـيـم، وأن يجـعلني، وإياكم وسـائر المسلمين من الذين تجري مـن تحتـهم الأنهار في جنات النعـيم. دعـواهم فيـها سـبحـانك اللهم وتحيتهم فيها سلام. وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. في انتظار الرد.

محمد ربيع سليمان محمد

قرية إمياي ـ ش المدرسة القديمة ـ مركز طوخ ـ محافظة القليوبية ـ جمهورية مصر العربية

ردود سريعة

الأخ محمد الملولي ـ المغرب:

يمكنك مراجعة الملحق التجاري السعودي في سفارة خادم الحرمين الشريفين في الرباط حتى يمكنك الحصول على عناوين المؤسسات والشركات السعودية، أو ليدلك على الطريقة التي تحصل بها على هذه العناوين.

الأخ فتاني جيلالي ـ البَيِّض ـ الجزائر:

«الفيصل» مجلة ثقافية شهرية صدر عددها الأول في رجب ١٣٩٧هـ وهي ترمي إلى خدمة الثقافة العربية والإسلامية والإنسانية عامة، والمشاركة في تقديم زاد ثقافي للقارئ العربي. ولا يوجد في المجلة باب للتعارف بين القراء، لأن الحوار الفكري على صفحات المجلة من أفضل أساليب التعارف التي يمكن أن تكون بينهم.

الأخ بدر الدين ياسمين ـ دمشق ـ سورية:

لقد اخترت الشعر مجالاً تحاول فيه إبراز مواهبك الأدبية، ولا يخفى عليك أن فرض الشعر يحتاج إلى الموهبة إلى جانب صقلها بالدراسة، والعكوف على معرفة أوزان الشعر وبحوره وعروضه، ولعل القراءة المتعمقة لتراث فحول الشعراء تعينك على اختصار المسافات والسير في الطريق الصحيح.

الأخ ديلمي كريم ـ الجزائر:

نشكر لك اهتمامك بالكتابة إلى المجلة، وجميل أن تكون من الأوفياء لها كما تذكر في رسالتك، ونعتذر لك عن نشر رسالتك في ركن التعارف، لأنه لا يوجد مثل هذا الركن في المجلة ورغبتك في مراسلة جميع القراء أمر بعيد المنال، حتى في حالة وجود هذا الركن، لأنك لن تجد وقتاً لذلك، والتعارف المستمر يكون من خلال تبادل الآراء والأفكار من خلال صفحات المجلة، وشكراً لك وفاءك للمجلة وحرصك على التواصل مع قرائها.

الأخت أحلام كرار حامد كروم ـ شندي ـ السودان:

سوف يتم البحث في أمر وصول المجلة إلى مدينتك «شندي» كما تم تحويل رسالتك إلى القسم المختص لإرسال الأعداد التي تطلبينها، أما بعض الكتب المذكورة في الرسالة فيصعب علينا الحصول عليها، ومن ثم لا يمكن إرسالها إليك.

الأخ محبوب مختار ـ كوماسي ـ غانا:

نشكر لك مشاعرك الأخوية، ونأمل أن تكون المجلة عند حسن ظن قرائها الذين يكابدون المشاق في سبيل مراسلتها وإبداء الرأي حول ما ينشر فيها.

الإخوة فتيحة قدور، عثمان فضل هجالة، بن رمضان عبدالحميد، بو جلطية محمد بو أعلي، الجزائر:

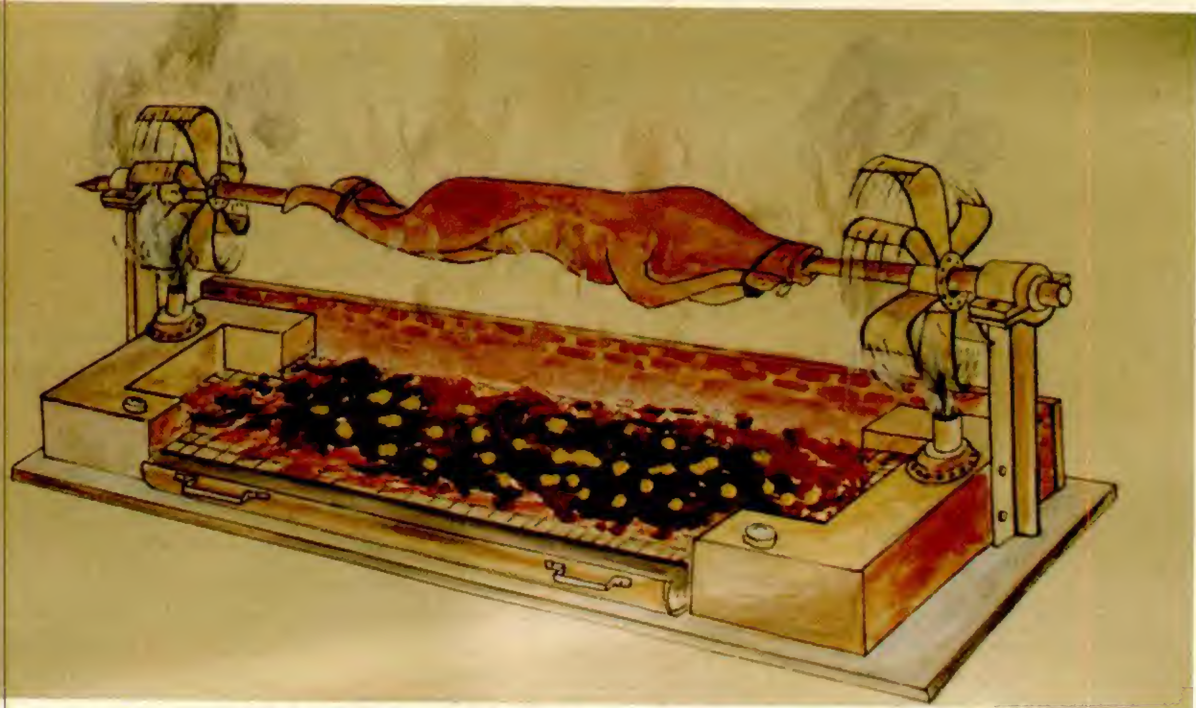
نشكر لكم إطراءكم، آملين أن ترضي المجلة جميع الأذواق، ونعتذر للذين بعثوا بمقالات لغرض النشر ولم ترشح للنشر، ونأمل أن نتلقى مقالات أخرى، نتمنى لها حظاً أوفر، وسوف تصل إليكم قريباً الأعداد التي طلبتموها ـ إن شاء الله.

تراثنا العلمي والحياة المعاصرة

لطف الله قاري

هناك مقالات تنشر، وبحوث تجرى، ومؤتمرات علمية تعقد في مجال تاريخ العلوم الطبيعية والتقانة (التكنولوجيا) في الحضارة العربية الإسلامية. وهو موضوع يهتم به المتخصصون في العلوم والتقانة غالبًا، لأن تاريخ هذه المجالات جزء من مقررات هذه العلوم كما سنرى، ولأن الحديث عن تاريخها يستلزم الإلمام بالعلم الذي نبحث عن تاريخه.

فهل الاهتمام بتاريخ العلوم والتقانة له تطبيقات عملية في حياتنا المعاصرة؟ بمعنى آخر: هل له فائدة لجيل اليوم والأجيال القادمة؟ لقد كان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم الاستعاذة «من علم لا ينفع». وهذا الحديث ينطبق على العلم الشرعي الذي لا يطبقه صاحبه في سلوكه. وينطبق أيضًا على الانشغال ببحوث لا تعود بالنفع على البشر. فهل الاهتمام بالتراث العلمي والتقاني مضيعة للوقت؟ نحاول معرفة أهمية التراث العلمي وفضله على حياتنا



شكل(١): رسم تخيلي (من إعداد مؤلف هذه المقالة) لشواية يستغل جمرها لغلي ماء. فينطلق من ذلك بخار خلال فتحة صغيرة. وهذا البخار يقوم بتحريك ريشات المروحة PROPELLER التي تحرك سيخ الشواء، فيدور السيخ من دون أن يحركه كائن حي. وهذا حسب وصف الجهاز في كتاب تقي الدين محمد بن معروف



شكل(٢): مضخة مائية ذات مكبسين أو أسطوانتين، كما ورد رسمها في كتاب الجزري

المعاصرة في الإجابة عن سؤالين. السؤال الأول هو: ماذا نستفيد من دراسة التراث العلمي في حياتنا المعاصرة؟ والسؤال الآخر: هل منجزات العرب والمسلمين وابتكاراتهم هي أشياء قديمة لم يعد لها تطبيق اليوم، أم إن كثيراً منها ظل مطبقًا حتى في القرن العشرين؟

فوائد دراسة التراث العلمي

للإجابة عن السؤال الأول نذكر الفوائد التالية لدراسة التراث العلمي:

أولا: تبسيط العلوم: نعلم جميعًا أن المقررات المدرسية للعلوم تبدأ باستعراض تطور العلم من أجل تبسيطه للطالب. وعندما كنت في الجزائر للمشاركة في الملتقى المغاربي الثالث لتاريخ الرياضيات العربية ألقى علينا في حفلة الافتتاح الدكتور محمد الطيب سعداني مدير «المدرسة العليا للأساتذة» التي استضافت المؤتمر محاضرة قيمة بعنوان «أهمية المدخل التاريخي في تدريس العلوم» أقتبس منها الآتي:

المطلوب في تدريس العلوم ليس إيجاد طالب يتلقى المعلومات من أجل اجتياز الامتحان فقط، وإنما المطلوب هو تخريج أكفياء يجيدون التفكير في حلول المشكلات التي تعترضهم بالطرق المنهجية.

وفي سبيل ذلك نذكر لهم تجارب العلماء في قالب قصصي شائق، ليأخذوا من تلك التجارب الدروس التي تسلحهم بسلاح البحث العلمي. وعندما يدرس الطالب شيئًا من تاريخ العلم فإنه يستنتج القواعد التي تطور بها ذلك العلم، فيلاحظ أن العلوم كلها مرت بثلاث مراحل هي:

- استنتاج من فرضيات.
- صوغ رياضي.
- تجريب للتأكد.

وتدريس تاريخ العلوم له فوائد أخرى مثل:

- التدرج من الحقائق المحسوسة إلى المفاهيم المجردة.

- التحلي بالصبر للوصول إلى نتائج مرضية، بدلاً من التسرع في الاستنتاج.

- إدراك أن العلوم تتطور، فيلغي الجديد من الاكتشافات القديم من النظريات. وهكذا ينمو في الطالب فكر نقدي يقظ وثقة بالنفس(١).

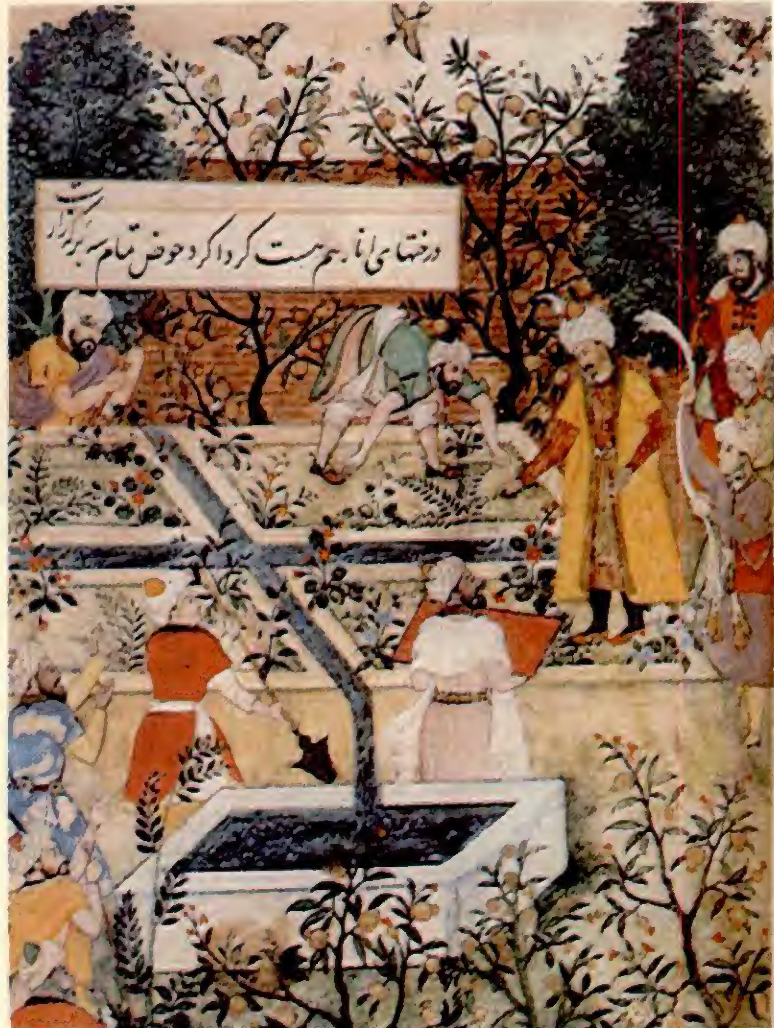
والأجدر عند ذكر تطور العلم أن توضع كل مساهمة علمية في مكانها، فيذكر أسماء علماء الحضارة الإسلامية ممن ساهموا في هذا التطور. وهنا يأتي دور الباحثين في تاريخ التراث العلمي والتقني لإبراز دور العرب والمسلمين، والكشف عن مزيد من إنجازاتهم.

ثانياً: تحفيز الهمم، وأقتبس هنا كلمات للدكتور المهندس أحمد يوسف الحسن، الرئيس السابق لجامعة حلب ومؤسس معهد التراث العلمي العربي بها وهو أول من تولى عمادة ذلك المعهد، بالإضافة إلى رئاسته الجامعة: «في السنين العشر الأخيرة [يقصد السنوات ١٩٦٦ - ١٩٧٦م] وأثناء دراسة خطط التنمية الاقتصادية كان النقاش يحتد ويدور بين فريقين من المثقفين العرب، حول قضايا التصنيع. ومن خلال المؤتمرات التي كانت تعقد لهذه الغاية، ومن دراسة المواقف المتحفظة وغير الحاسمة التي كان يتخذها فريق كبير من هؤلاء المثقفين من المشاريع الصناعية ذات الأهمية الإستراتيجية مثل مشاريع مصانع الجرارات والآلات، وإقامة مصانع الحديد والفولاذ، كان من الواضح أن من أهم العوائق التي تعترض طريق الثورة الصناعية العربية هو الشعور بعدم الثقة الذي يشل تفكير المثقفين العرب».

«وبدا جليًا بأن الجامعات العربية مسؤولة بالدرجة الأولى عن معالجة هذا الموقف. وأنه لابد لها في هذه المرحلة التاريخية الهامة من مراحل التطور الاقتصادي العربي أن تهتم كل الاهتمام بدراسة تاريخ العلم والتكنولوجيا في الحضارة العربية. ومن هذه الزاوية بالذات فإن دراسة التراث العلمي العربي ليست عودة إلى الماضي أو رغبة في العيش على أمجاد غابرة، وإنما هي تعريف بالمنجزات العربية الرائعة، وبالعبقرية العربية وإمكانياتها الخلاقة المبدعة من أجل بعث الثقة بالنفوس وحفزها على مزيد من الإرادة والتصميم نحو بناء المجتمع العربي المتقدم علميًا وتكنولوجيًا» اهـ (٢).

فإذا أردنا من الطالب أن يبدع فعلينا أن نشجعه ونحفزه إلى ذلك، وفرق بين أن يقال للطالب: إن الغرب له الفضل في كل شيء، وإن الإبداع مركز عندهم، وبين أن يقال له إن الغرب ما كان سينهض لولا أنه أخذ من أجدادك المبدعين.

ثالثًا: ازدياد حصيلتنا من المصطلحات العلمية، فكثير مما يجري على ألسنتنا اليوم من كلمات حديثة مثل سيارة وباخرة ومكيف إلخ... هي نتيجة لاستنباط

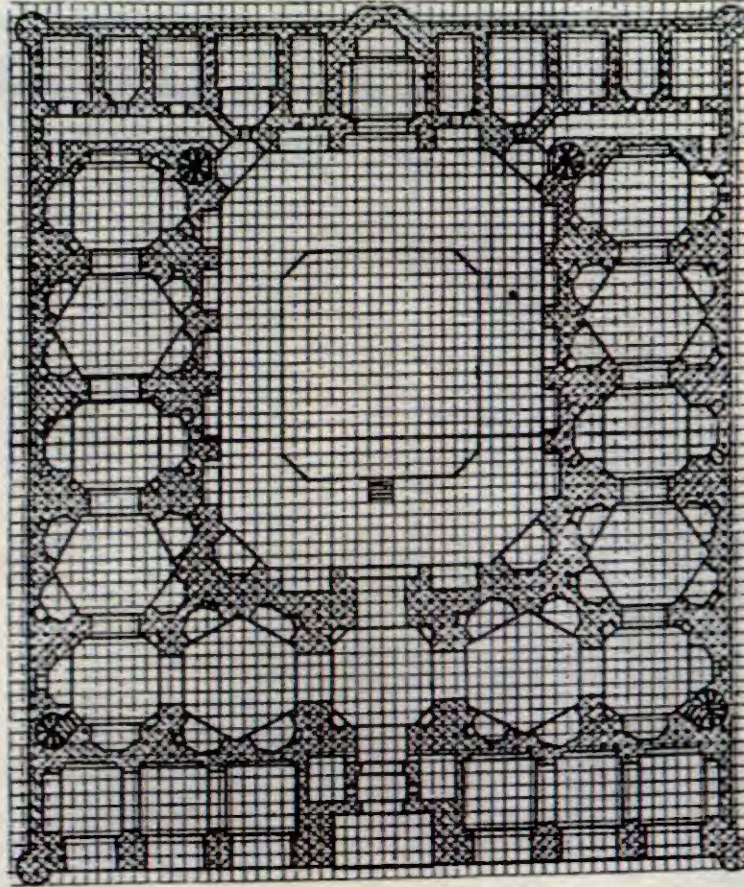


شكل(٣): مهندس حديقة الملك ظهير الدين محمد بابر، وقد أمسك بيده لوحًا رسمت عليه مربعات، حيث كانت الخرائط المعمارية ترسم على ورق مربعات

مفردات عربية لأشياء حديثة. ولكن يبقى علينا استنباط المزيد من المسميات للمخترعات التي تخرج علينا كل يوم. وتراثنا العلمي واللغوي ثري بهذه الكلمات. ولذلك فإن دراسته من الواجبات علينا.

وقد ترجم المختصون في سورية (التي تدرّس كل العلوم بالعربية منذ نشأة الجامعات بها) كتب الهندسة من اللغات الأجنبية، ولكنهم استخدموا مصطلحات بعيدة عما ورد في كتب التراث الهندسية. ولكن بعد تحقيق عدد من الكتب التراثية المذكورة وجد أن المصطلحات فيها تطابق ما يستعمله الصناع والحرفيون من عامة الشعب(٣). فوجب علينا استخلاص المصطلحات من التراث العلمي وتوحيدها على المستويين الأفقي والعمودي، أي بشمول كل الطبقات المهنية وكل الأقطار العربية.

وكثير مما نراه في الصحف العربية اليوم كلمات أعجمية يجدر بنا تعريبها حالاً ليفهم القارئ العادي معناها. فلا أجد مسوغاً لقول صحيفة «أسفكسيا الغرق» بدلاً من اختناق الغرق، وقول أخرى «بيداغوجية» بدلاً من «أصول التدريس» و«ديماغوجية» بدلاً من غوغائية، وهكذا. وقديماً قال البيروني عن أهل عصره: «إذا ذكر لهم إيساغوجي وقاطيغوراس وباري أرمينياس وأنولوطيقا (وهي أسماء كتب فلسفية يونانية) رأيتهم يشمئزون عنه، وينظرون نظر المغشي عليه من الموت. وحقّ لهم، فالجناية من المترجمين، إذ لو نقلت الأسامي إلى العربية، فقيل كتاب المدخل، والمقولات، والعبارة، والقياس والبرهان، لوجدوا متسارعين إلى قبولها غير معرضين عنها»(٤)



شكل(٤): مخطط لمبنى في بلاد ما وراء النهر أو آسيا الوسطى، رسمه مهندس من بخارى في القرن العاشر الهجري أو السادس عشر الميلادي

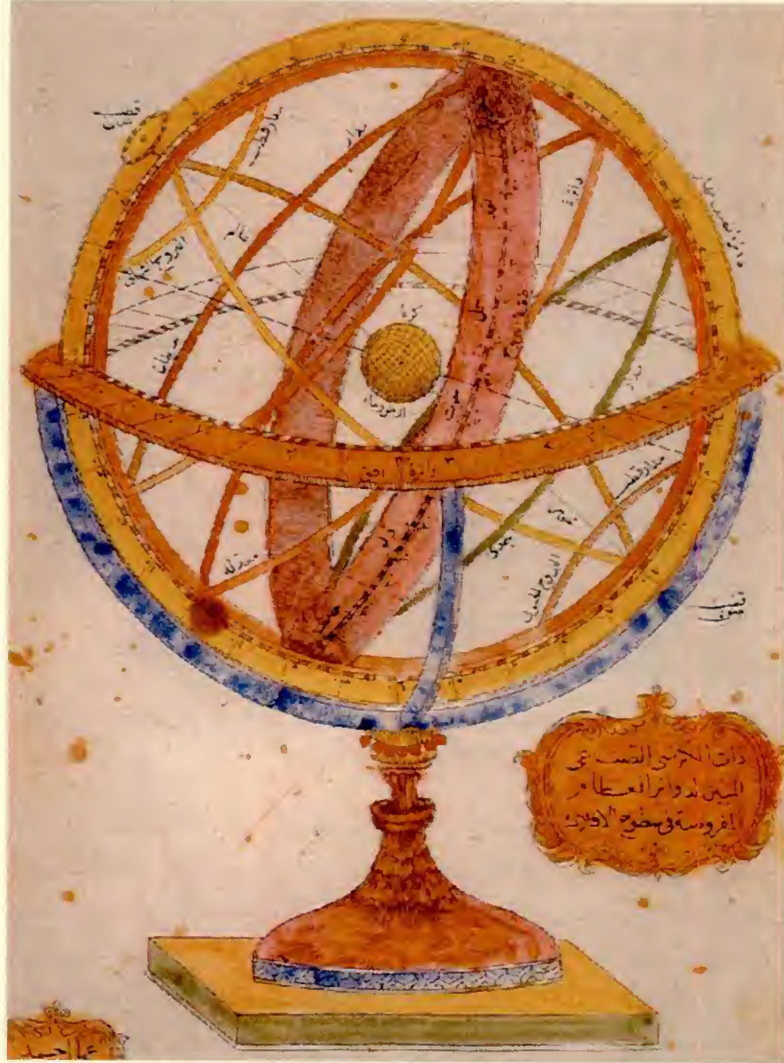
رابعاً: تواصل البحوث التطبيقية في العلوم الحديثة مع التراث، أي إن كتب التراث العلمي لاتزال تمدنا بالمفيد والجديد في العلوم الطبيعية والتقانة، وأضرب لذلك بعض الأمثلة:

- عندما بدأت بعثة جيوفيزيائية بالمسح الميداني في اليمن لمعرفة المناجم بها استعانت بما ورد في كتب التراث مثل كتاب «الجوهرتين» للهمداني. فاستفادت من سرده لمناجم الفضة والذهب إلى اكتشاف العديد من المناجم المهمة التي تحتوي على خامات الزنك والحديد والرصاص بالإضافة إلى الفضة بكميات تجارية(٥).

- اقتبس الألمان قبيل الحرب العالمية الثانية أساليب استعملها الأندلسيون في مدينة المعدن ALMADEN لتخليص معدن خالص نقي استخدموه في صنع الطائرات(٦). وكتب باحث غربي عن الفولاذ الدمشقي بأنه أكثر أنواع الفولاذ صلابة، وسرد تاريخ دراسته من قبل الأوربيين. واختتم مقالته قائلاً: «نعتقد أن الوضع سيتغير، وسوف يصبح سر صناعة الفولاذ الدمشقي شائعاً في الصناعة الحديثة. فكما يقول مثل روسي قديم: أفضل ما في الجديد هو غالباً الماضي الذي طال نسيانه»(٧). وهناك دراسات أخرى مهمة حول الفولاذ الدمشقي نكتفي بالإشارة إليها في قائمة المراجع(٨ و٩).

- اعتمد المهندسون المعماريون

من أهم العوائق التي تعترض طريق تطوير الصناعة العربية هو الشعور بعدم الثقة الذي يشل تفكير المثقفين العرب



شكل(٥): آلة «ذات الحلق. وهي تمثل مجسم الكون والدوائر الفلكية فيه واختراعها قديم سابق لاختراع الأسطرلاب

المهتمون بالعمارة الإسلامية على كتب التراث للخروج بتصاميم من وحي البيئة العربية الإسلامية، تسر الذوق الجمالي لتذوقي هذا النوع من العمارة، وتتوافق مع القيم الشرعية والاجتماعية عند المسلمين.

والكتب المؤلفة في هذا المجال عديدة، وكذلك المؤتمرات والندوات التي عقدت حوله، والكليات والمعاهد التي تدرّسه، والدوريات التي تتخصص فيه. نذكر في هذا المقام أن أحد المعارض التي أقيمت عام ١٩٩٥م بإسبانيا كان معرضاً عنوانه «العمارة في الأندلس: دروس للقرن ٢١». وهو يعرض الثروة المعمارية التي يمكن الاستفادة منها للخروج بتصاميم مبتكرة ومفيدة(١٠).

- طب الأعشاب الذي برع فيه علماء السلف وألّفوا فيه العديد من الكتب المتعمقة لا يزال معتمداً في أكثر الدول، بل له معاهد وكليات تدرّسه في كثير من الدول مثل الهند والصين، وهنا في المملكة العربية السعودية تجري فيه البحوث التطبيقية في أكثر من مؤسسة علمية. ويدعو بعض الباحثين الغربيين إلى إحياء تدريس الطب العربي وإنشاء اللوائح والأنظمة الضابطة للأطباء والصيادلة الممارسين له، وذلك لأن في الغرب أصلاً عودة إلى أنواع من الطب المعتمد على المواد الطبيعية(١١).

والمعلوم لدى الباحثين بتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين أن الطب والصيدلة كانا خاضعين لرقابة نقباء الأطباء والصيادلة وتفتيش ديوان الحسبة، حيث نجد في كتب الحسبة إرشادات مفصلة حول كيفية الرقابة على هاتين المهنتين ضمن المهن الأخرى العديدة.

- توقع الزلازل ودراسة منطقة ما من حيث قابليتها للزلازل وكثرة الهزات بها يعتمدان على سجل إحصائي للزلازل في المنطقة. وهذا السجل نأخذه من كتب التراث العلمية والتاريخية، وقد وصلت إلينا بعض الكتب التراثية المخصصة للزلازل.

- الكتب التراثية المؤلفة في الزراعة والنبات ما تزال تمدنا بالكثير مما نستفيده حول البيئة الصحراوية بمنطقتنا وكيفية العناية بالنباتات فيها. فمن المعلوم أن علوم الزراعة في الغرب تطبق غالباً على بيئة مختلفة عن بيئتنا، ويبقى على المختصين في علوم الزراعة والنباتات أن يدرسوا أنواع النبات بمناطقنا وكيفية نموها والعناية بها وببيئتها. وقد استفادت البحوث التطبيقية في الزراعة والبيئة

كثيراً من دراسة كتب التراث وما يتصل بها. وقد ألفت البحوث والكتب العديدة في هذا المجال. يقول الدكتور نذير سنكري بصدد هذا: «إن التراث العلمي النباتي لجزيرة العرب زاخر، والأسماء العربية لأسماء النباتات كثيرة تحتاج من المحققين العرب الهمة والدأب للكشف عن كنوز علمية وتعريبية في غاية الأهمية للأجيال العربية القادمة»(١٢).

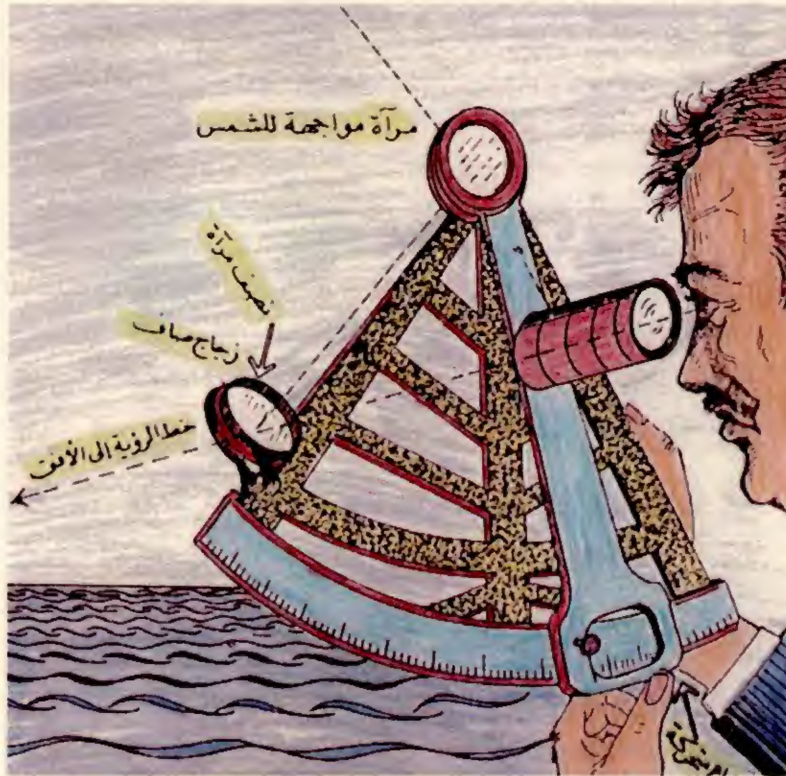
ـ يقوم العديد من الباحثين بتطبيق ما ورد في كتب التراث العلمي على ما تعلمه من علوم الحاسب الآلي، فيخرج بأبحاث في غاية الطرافة والدقة والنفاسة. ومن ذلك أن أكثر من باحث استعمل الصيغ الرياضية التي وردت في كتاب «مفتاح الحساب» لجمشيد الكاشي حول تصميم القبة والمقرنص والأزج أو الطاق، وأدخل تلك الصيغ في الحاسب الآلي لاستخراج تصاميم حديثة في العمارة الإسلامية (١٣ ـ ١٧). ومن ذلك أيضاً قيام أكثر من باحث باستخراج أوقات الصلوات والمناسبات الإسلامية المهمة من الصيغ الرياضية التي اقتبسها من كتب التراث، ثم استعمل معها بعض المعلومات الحديثة وأدخل كل ذلك في الحاسب الآلي ليخرج بجداول حديثة لكل المدن في العالم في كل أيام السنة الشمسية(١٨).

خامساً: الاستفادة من مناهج البحث العلمي عند السلف، فإن القارئ يعلم أن تدريس العلوم عندنا له طرائق ومناهج يجب أن تكون متميزة من تلك السائدة في الغرب. فهناك دعوة لما يسمى بـ «أسلمة» العلوم، أي جعلها متماشية مع تعاليم الشريعة المطهرة. وهناك بحوث تطبيقية في مجال العلوم والتقانة تتطلبها بعض قوانين الشريعة والمجتمعات الإسلامية، كالبحث في محرمات الأطعمة والأشربة.

وكتب التراث العلمية تدلنا على بعض المناهج والمسالك التي نهجها علماء السلف. ومنها مناهج صالحة للتحسين والتطوير ثم الاستفادة منها والاستثمار، فتستحق كل الاستحقاق أن نرجع إليها وندرسها. فنأخذ منها ما يستأهل إحياؤه من مناهج الأقدمين، ونترك ما لا يصلح.

سادساً: تدريب النشء على الرياضة الذهنية، فمثلاً نستطيع تكليف الطالب بناء جهاز ورد وصفه في كتاب تراثي، فيكون في ذلك فائدة له، وإحياء للتراث، وإضافة قيمة إلى المتاحف العلمية.

سابعاً: اللحاق بركب الباحثين الغربيين في هذا المضمار، فالغرب لا يزال متقدماً في مجال البحث في التراث العلمي عند العرب والمسلمين!! وعدد المعاهد المتخصصة عندهم في هذا المجال أو تلك التي لها أقسام مخصصة في هذا الميدان كبير موازنة بما عندنا. وكذلك عدد الدوريات المتخصصة في هذا الموضوع.



شكل(٦): آلة «السدسية». وهي نوع متطور من آلة «الربع المجيَّب» العربية الإسلامية وتستخدم لمعرفة موقع السفينة في عرض البحر

التطبيقات الحديثة لمبتكرات قديمة

أما بالنسبة إلى السؤال الآخر حول تطبيق ابتكارات السلف في القرن العشرين، فإن الباحثين المعاصرين من العرب والمسلمين والأجانب من المشرق والمغرب يخرجون علينا بين الحين والآخر باكتشاف سبقٍ جديد للحضارة الإسلامية. ونستعرض هنا بعض ما اكتشف حديثًا في السنوات الأخيرة من ابتكارات إسلامية نسبت إلى غربيين، وكان لها أكبر الفضل في قيام النهضة العلمية في الغرب، ونركز على تطبيقاتها الحديثة في حياتنا المعاصرة:

استعمال البخار لتوليد الطاقة الميكانيكية: ورد في كتاب «الطرق السنية في الآلات الروحانية» لتقي الدين محمد بن معروف الراصد الدمشقي (الذي ألفه سنة ٩٥٩ هـ ـ ١٥٥٢م)

وصف آلة تعتمد على تدوير سيخ لشيّ اللحم بقوة البخار. وذلك بأن يوضع ماء في إبريق ويسخن بالجمر المستعمل للشواء، فينطلق بخار الماء من فوهة الإبريق بقوة، ويقابل هذا البخار فراشات دولاب مثبت على السيخ، فيحرك البخار فراشات الدولاب، وهذا يؤدي إلى تدوير السيخ(١٩).

وقد بين الباحثون أن استعمال البخار لتوليد الطاقة الميكانيكية بالطريقة نفسها لم يرد عند الأوربيين إلا بعد مئة عام من ذكره لدى ابن معروف. وكنت ألاحظ أن هذا الموضوع غير مطروق لدى الباحثين الأوربيين المعاصرين. فراسلت في ذلك عمدة مؤرخي الهندسة الميكانيكية الإسلامية - وهو الراحل دنَلد هل -DON ALD HILL - لأعرف رأيه في هذه المسألة. فأخبرني في رسالة مؤرخة في ٢٥/مايو/أيار ١٩٩٤م (قبل وفاته بأربعة أيام) أن هذا سبق للمسلمين جدير بأن يذكر في المؤلفات القادمة في هذا المجال.

ونرى في الشكل(١) رسماً حديثاً للآلة التي وصفها ابن معروف. ثم في الشكل(٢) نرى مضخة مائية ذات مكبسين كما ورد وصفها بالرسم في كتاب «الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل» (أي الميكانيكا) للمهندس ابن الرزاز الجزري، وقد تم تأليفه سنة ٦٠٢هـ ١٢٠٦م. وهي تشبه المحركات التي استعملت للقطارات. والمكابس لا تزال تستخدم في السيارات والقطارات، وهي التي نسميها بالعامية «بستم» من كلمة PISTON باللغات الأوربية. فإذا ضممنا فكرة آلة البخار إلى آلة الجزري فإننا نكوّن من الآلتين المحرك البخاري الذي استعمل للمركبات والقطارات القديمة. علما بأن تقي الدين ذكر في كتابه السابق ذكره وصف مضخة ذات ستة مكابس.

- التنظيف بالبخار: وردت وسائل إزالة البقع من الملابس في بعض كتب التراث، كما ألفت مقالات أو رسائل صغيرة حول هذا الموضوع. ومن ذلك استعمال التدخين بالكبريت والتبخير ببخار الماء. وهذه الوسائل تعدُّ حديثة اليوم. وهذا الإبداع للحضارة الإسلامية جدير بأن يذكر منسوباً لأهله عند كتابة تاريخ العلوم الطبيعية والتقانة(٢٠).

- الرسم الهندسي والخرائط المعمارية: بعض الباحثين ممن لم يطلعوا على الكتب المعمارية التراثية والوثائق التي تمت دراستها في مختلف بقاع العالم أنكر وجود الخرائط المعمارية عند المسلمين. وبعضهم قال: إن تلك الخرائط ذكرت في كتب التراث ولكن لم يصل إلينا منها شيء، وكلا القولين خاطئ. فقد وصلت إلينا نصوص عديدة وبعض لوحات في الكتب نرى فيها اعتماد المهندسين المعماريين المسلمين على الخرائط المعمارية. ففي الشكل(٣) نجد الملك ظهير الدين محمد بابر مؤسس الإمبراطورية التي عرفت بدولة المغول في الهند (وحكمت من سنة ٩٣٣هـ/١٥٢٦م إلى ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م) يزور موقع عمل حديقة بقصره في كابل. وقد وقف مهندس الحديقة ممسكاً بلوحة عليها مربعات. وقد اتضح بعد اكتشاف خرائط معمارية إسلامية أن تلك الخرائط كانت ترسم على ورق مربعات، فقد وجدت بعض الخرائط المعمارية في بخارى واستنبول والهند. وكل هذه الخرائط مما أبدعه المسلمون من دون أي تأثير من الغرب فيهم(٢١). ونجد عينة من تلك الخرائط في الشكل(٤).

- تطوير النظريات الفلكية: أخذ

ألغى ابن الشاطر فكرة الفلك المعدل للمسير، كما ألغى عدة دوائر من نظرية بطليموس، وهذا فتح المجال لنظرية جديدة حول كرات فلكية هي الكواكب، تدور في مدارات غير مختلطة، وقد تكررت آراء ابن الشاطر في النظرية الفلكية التي جاء بها كوبرنيكس



شكل(٧): «المسطرة الحاسبة». وهي الآلة الحاسبة التي كانت تستخدم عند المهندسين والمشتغلين في المجالات العلمية قبل انتشار الآلات الحاسبة الإلكترونية. وهي جهاز متطور عن «الأسطرلاب الخطي» أو «عصا الطوسي»

العرب معارفهم الفلكية من عدة مصادر، منها ما كانوا يعرفونه منذ عهد الجاهلية، ومنها ما أخذوه عن شعوب بلاد ما بين النهرين، ومنها ما أخذوه من الحضارة الهلينية (الحضارة التي كانت سائدة بمصر والشام قبل الإسلام) وبخاصة من كتب بطليموس. وقد اشتهرت نظريات بطليموس بين المشتغلين بالفلك أكثر من غيرها لغزارة مادتها. ولكن علماء العرب انتقدوا وصححوا تلك النظريات وناقشوها، فممن عرفوا بالرد على بطليموس ابن الهيثم (ت نحو: ٤٣٠هـ) وابن رشد (ت: ٥٩٥هـ) والبطروجي ونصير الدين الطوسي (ت:٦٧٢هـ) ومؤيد الدين العرضي وقطب الدين الشيرازي (ت:٧١٠) وعلي القوشجي (ت:٨٧٩هـ).

ولكن آراء العالم الدمشقي ابن الشاطر (٧٠٥ ـ ٧٧٧هـ ـ ١٣٠٥ ـ ١٣٧٥م) حول نظرية بطليموس في مسارات الكواكب هي التي كان لها أكبر الأثر في تاريخ هذا العلم. فقد كان بطليموس يعتقد بأن حركة الكوكب حول الأرض (التي كانت تعدُّ مركز الكون) محدودة بثلاثة مسارات:

ـ الدوائر التي مركزها الأرض (DEFERENTS).

ـ الفلك المعدل للمسير EQUANT، وهو دائرة افترضها بطليموس لتصحيح حركة الكواكب ومطابقة القياسات والأرصاد الفلكية بالحسابات الرياضية.

ـ الفلك الدائر أو فلك التدوير EPICY-CLE، وهو دائرة صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة أكبر منها.

وقد ألغى ابن الشاطر فكرة الفلك المعدل للمسير، كما ألغى عدة دوائر من نظرية بطليموس. وهذا فتح المجال لنظرية جديدة حول كرات فلكية هي الكواكب، تدور في مدارات غير مختلطة. وقد تكررت آراء ابن الشاطر في النظرية

كتب التراث العلمية تدلنا على بعض المناهج والمسالك التي نهجها علماء السلف، ومنها مناهج صالحة للتحسين والتطوير ثم الاستفادة منها والاستثمار



شكل(٨): رسم تخيلي (من إعداد مؤلف هذه المقالة) لجهاز التنفس الصناعي الذي استعمله الغواصون ببغداد في أيام البيروني (حوالي عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م)

الفلكية التي جاء بها كوبرنيكس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م)، مع إضافة جوهرية هي أن الشمس هي المركز وليست الأرض. فهل أخذ كوبرنيكس من ابن الشاطر مباشرة أو بطريق غير مباشر؟ اختلف الباحثون الغربيون حول هذه المسألة. فمنهم من قال إنه يرى شخصيًا أن كوبرنيكوس لم يأخذ من الشاطر شيئًا، وأنه كان بمقدوره أن يأتي بآراء ابن الشاطر ببحوثه الذاتية! ومنهم من كتب في آخر بحثه هذه العبارة ALLAHU A' LIM (يقصد: الله أعلم) وفسر معناها بالإنجليزية بين قوسين (٢٢و٢٣).

ـ **الآلات الفلكية المبتكرة**: عرف اليونانيون وعلماء الحضارة الهلينية قبل الإسلام بناء آلات تمثل نماذج للكون حسب تخيلهم. فهم افترضوا أن الأرض في مركز الكون، وأن الكون كروي الشكل بحيث تدور الشمس والقمر والنجوم والكواكب حول الأرض.

وقد عمد اليونانيون القدماء إلى صنع مجسم يمثل حركات الأجرام السماوية تلك. فكانت آلة تسمى «ذات الحَلَق» (بفتح الحاء واللام، جمع حلقة). وهي

تسمى بالإنجليزية ARMILLARY SPHERE. وهي الموضحة بالشكل(٥).

ثم تطور من هذه الآلة جهاز آخر هو الأسطرلاب الذي تكون من صفائح رسمت بجمع مساقط PROJECTIONS للدوائر والخطوط المبينة في الشكل(٥). وفوق هذه الصفائح شبكة سميت بالعنكبوت عند علماء السلف، وهي تتكون من رسم مساقط نجوم معينة(٢٤).

وقد طور علماء الحضارة الإسلامية عدة آلات من جهاز الأسطرلاب، وتطور بعض هذه الآلات إلى أجهزة أحدث استعملت حتى في القرن العشرين كما نرى من هذا الاستعراض. فمن هذه الآلات نجد الربع المجيّب(٢٥). وهو ربع صفيحة الاسطرلاب، واتفق مؤرخو التقانة الإسلامية على أن الربع اختراع إسلامي، وإن كان لا يعرف مخترعه بالتحديد. وقد اخترع علماء الإسلام أرباعاً أخرى مثل ربع المقنطرات وربع الشكازية والربع التام، إلا أن الربع المجيّب ظل هو السائد والشائع الاستعمال. وتطور من الربع المجيب جهاز يعرف عند الغرب باسم SEXTANT أو السدسية، ويوصف بأنه الأسطرلاب المنشوري PRISMATIC ASTROLABE. ويستعمل هذا الجهاز في البواخر والسفن لتحديد موقع السفينة، وذلك بقياس المسافة بين الشمس والأفق والنجوم. ويوضح الشكل(٦) جهاز السدسية.

قلنا إن صفائح الأسطرلاب العادي تتكون بعمل مساقط لدوائر مجسم الكون على سطح دائري، أي إسقاط مجسم ثلاثي الأبعاد (له طول وعرض وارتفاع) على سطح ثنائي الأبعاد (له طول وعرض فقط). ولكن العالم الفلكي المظفر بن محمد الطوسي (عاش بين القرنين ٦ - ٧هـ/١٢-١٣م) أسقط خطوط صفائح الأسطرلاب على خط مستقيم، فتكون من ذلك الأسطرلاب الخطي أو عصا الطوسي(٢٦). أي إنه أسقط سطحاً ثنائي الأبعاد على خط له بعد واحد. وهذه فكرة عبقرية أخرى سبقت عصرها، لأن علم الهندسة الوصفية الذي تعتمد عليه فكرة الطوسي علم حديث لم يبرز إلا في القرن التاسع عشر الماضي. ونجد في عصرنا جهازاً شبيهاً بالأسطرلاب الخطي هو المسطرة الحاسبة الزلاقة SLIDE RULE. وكانت هذه المسطرة هي الآلة الحاسبة المعتمدة عند المهندسين والمتخصصين في العلوم كالفيزياء والأرصاد الجوية والفلك، وذلك قبل نحو خمسة وعشرين عاماً عندما انتشرت الآلات الحاسبة الإلكترونية CAL-CULATORS. ويبين الشكل(٧) صورة المسطرة الحاسبة.

اعتمد المهندسون المعماريون المهتمون بالعمارة الإسلامية على تصاميم من وحي البيئة العربية الإسلامية تسر الذوق الجمالي

- آلات السلامة الصناعية: تعدُّ السلامة الصناعية من المجالات الحديثة التي لم تعرف إلا في القرن العشرين، عند انتشار المصانع الكبيرة والحوادث الصناعية التي نتجت منها إصابات العمال. ولكن الباحث في تاريخ العلوم والتقانة عند المسلمين يجد أن الحضارة الإسلامية لم تغفل هذا الجانب المهم. واهتمام الشريعة الإسلامية الغراء بالعمل اليدوي وبسلامة العمال موضوع طويل. ويهمنا في هذا المقام أن نذكر بعض أجهزة السلامة الصناعية التي ورد وصفها في كتب التقانة التراثية. فمنها جهاز ورد وصفه في كتاب «الجماهر في معرفة الجواهر» للبيروني (ت: ٤٤٠هـ)، وهو جهاز للتنفس الصناعي استعمله الغواصون ببغداد في عهد المؤلف، وهو موضح في الشكل(٨). ومنها جهازان ورد وصفهما عند بني موسى بن شاكر، أحدهما جهاز للتنفس الصناعي يستخدم للمناجم والآبار العميقة، وهو منفاخ هواء متصل بأنبوب، ويوضع المنفاخ خارج المنجم أو البئر، وينفخ فيه، فيرسل عبر الأنبوب هواء نقيًا للعامل.

والآخر جهاز لالتقاط الأشياء من قاع البحار والأنهار من دون النزول إليها. وهو ملقاط ميكانيكي يقبض على الجسم المراد إخراجه من القاع. ويتم تحريك الملقاط بسلاسل من بعيد(٢٧).

- تلوث البيئة: الاهتمام بتلوث البيئة موضوع حديث لم يبدأ إلا في السنوات العشرين الأخيرة (منذ السبعينيات الميلادية). ولكننا نجد سبقًا للحضارة الإسلامية في هذا المجال أيضًا. فمن الكتب المؤلفة في هذا المجال(٢٨):

- رسالة في الأبخرة المصلحة للجو من الأوباء للكندي.
- رسالة في الأدوية المشفية من الروائح المؤذية للكندي أيضاً.
- رسالة في تحقيق أمر الوباء والاحتراز منه وإصلاحه إذا وقع، لأبي سهل عيسى بن يحيى السميحي. منه نسختان مخطوطتان بإستنبول.
- رسالة في إصلاح فساد الهواء، لابن الجزار.
- مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء، للتميمي. منه نسخة مخطوطة وحيدة بحلب.

بعض هذه الكتب فقد ولم يصل إلينا، وبعضه لا يزال مخطوطًا ينتظر الناشر العربي ليدعم تحقيقه وطبعه.

- طب الأعشاب: عرفت الحضارة العربية الإسلامية تطوراً كبيراً في طب الأعشاب (أو الطب الشعبي أو الطب التقليدي كما يسمى عند بعض المحدثين). ولكن تطبيقاته في البلاد العربية انحسرت، بل اتهم بعض المعالجين الخبراء بالأعشاب بممارسة الدجل والنصب، مع أن هذا النوع من الطب معترف به بوصفه مهنة راقية في الهند والباكستان والصين. بل نجد في الغرب عودة إلى أنماط من الطب ليست من مجالات الطب الحديث. فعندهم ما يسمى بـ «المعالجة المثلية» HOMEOPATHY وهي المعالجة بجرعات صغيرة من دواء تسبب الجرعات الكبيرة منه المرض نفسه لو أعطيت لشخص سليم. وعندهم ما يسمى بعلاج النباتات PHYTOTHERAPY، والعلاج بالبحر THALASSOTHERAPY، وهو العلاج بالنزهات البحرية والاستحمام في البحر ونسيم البحر إلخ.

وفي الصين يدرس الطب التقليدي جنباً إلى جنب مع الطب الحديث. فأصبحت الأعشاب الطبية والوخز بالإبر والكي على الطريقة الصينية من الممارسات المعتمدة لدى الأطباء. أما في الهند والباكستان فالطب التقليدي يسمى عندهم «الطب اليوناني»، أو UNANI MEDICINE. ويدل استعمال كلمة UNANI بلفظها العربي (بدلاً من قولهم GREEK MEDICINE) على إبراز دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير طب الأعشاب بعد أخذ الفكرة الأساسية من اليونان.

وإذا علمنا أن هناك كثيرا من الأمراض لا تزال تنتظر تطوير العلاج اللازم لها، وأن العلماء يبحثون في كل مكان؛ في أعماق الغابات وقيعان المحيطات عن أعشاب تخلص البشرية من الأمراض الصعبة، وأن كتب التراث لا تزال كنزاً لم تصل إليه أيدي الباحثين، لوجدنا أهمية هذا التراث في عصرنا هذا. فالدعوات عديدة من قبل باحثي الغرب والشرق للنهوض بهذا الطب(٢٩) ووضع القواعد والأسس لممارسته ومراقبة المشتغلين فيه، كما كانت الحال إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. حيث كان من وظائف المحتسب (وهو مراقب السوق والصناعات والحرف) الاستعانة بخبراء في مجالي الطب والصيدلة لمراقبة المحترفين فيهما.

المراجع والهوامش

١. سعداني، محمد الطيب: «نحو رؤية جديدة لتدريس العلوم في الجزائر»، المجلة الجزائرية للتربية، العدد الثالث، جوان (شهر ٦) ١٩٩٥م، ص ٦٠ - ٦٨. وقد كان الباحث قد حاضر بشق من بحثه في حفل افتتاح الملتقى المغاربي الثالث لتاريخ الرياضيات العربية، بمسرح المدرسة العليا للأساتذة ١/١٢/١٩٩٠م.

٢ - الحسن، أحمد يوسف: كلمته بصفته رئيس جامعة حلب ومدير معهد التراث العلمي العربي بها، في حفل افتتاح الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، حلب، نيسان/أبريل ١٩٧٦م. (نشرت ضمن كتاب أبحاث الندوة المذكورة، نشر جامعة حلب، ١٩٧٧م).

٣ - الحسن، أحمد يوسف: تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية، نشر جامعة حلب، ١٩٧٦م، ص ٣٦ - ٣٧.

٤ - سويسي، محمد: «دور المصطلحات العلمية التراثية في عملية التعريب المعاصرة»، الموسم الثقافي الحادي عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، نشر المجمع سنة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ص ٢٩ - ٥٠، وهو ينقل عبارة البيروني (ص٤٥ من المحاضرة) من كتاب «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن»، نشر معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ١٩٦٢م، ص٢٩.

٥ - الباشا، أحمد فؤاد: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، طبع دار المعارف بمصر، ١٩٨٣م، ص ١٣٠.

٦. سويسي، محمد: «نحن والتراث»، محاضرة في ندوة «التراث ودوره في البناء الحضاري المعاصر»، أكتوبر/تشرين الثاني ١٩٧٦م، نشر وزارة الشؤون الثقافية بتونس، ١٩٧٨م، ص١٣٠.

٧ - شيربي و وادسورث: «الفولاذ الدمشقي»، مجلة العلوم، تصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، وهي ترجمة scientific american، العدد التجريبي، يناير/كانون الثاني ١٩٨٦م، ص ٤٢ - ٤٨.

٨ - بياسكوفسكي: «فحص معدني لشفرتين مصنوعتين من الفولاذ الدمشقي»، مجلة تاريخ العلوم العربية (نشر جامعة حلب)، المجلد ٢، ١٩٧٨م، العدد الأول، ص ٣ - ٣٠ من القسم الأجنبي.

٩ - الحسن، أحمد يوسف: «تكنولوجيا الحديد والفولاذ في المصادر العربية»، مجلة تاريخ العلوم العربية، نشر جامعة حلب، المجلد ٢، ١٩٧٨م العدد الأول، ص ٣١ - ٥٢ من القسم الأجنبي.

10 - SIERRA NEVADA (TOURISM COMPANY), JUNTA DE ANDALUSIA (SPANISH GOVERNMENT AGENCY) AND UNESCO THE LEGACY OF AL- ANDALUS, 1995.

١١. سناغوستان، فلوريال: «اتجاهات حالية في الطب العربي التقليدي»، مجلة تاريخ العلوم العربية، نشر جامعة حلب، المجلد ٨، ١٩٨٤م، ص ٥٩ - ٩٨ من القسم الأجنبي.

١٢. سنكري، محمد نذير: «الأسماء العربية للنبات والتي لتنت» أبحاث المؤتمر السنوي الخامس لتاريخ العلوم عند العرب الذي عقد عام ١٩٨١م، نشر جامعة حلب، ١٩٨٣م، ص ٣٤٣ - ٣٤٩.

١٣. الأسد، محمد: THE MUQARNAS: A GEOMETRIC ANALYSIS, IN THE TOPKAPI SCROLL, BY: G. NECIPOGLU, (PUBLISHED BY:) THE GETTY CENTER, CALIFORNIA, 1997, PP. 349 - 359.

14- DOLD Y: THE 15th CETURY TIMURID MATHEMATICIAN GHIATH AL- DIN AL-KASHI AND HIS COMPUTATION OF THE QUBBA, IN DEMIDOV, FOLKERTS & SCRIBA (ed): AMPHORA. FESTSCHRIFT FOR HANS WUSSING ON THE, THE OCCASION OF HIS 65th BIRTHDAY, BASEL, 1992, PP. 171- 181.

15- DOLD (Y): PRACTICAL ARABIC MATHEMATICS: MEASURING THE MUQARNAS BY AL- KASHI, CENTAURUS, VOL. 35 (1992), PP. 193 - 242.

١٦. الملتقى المغاربي الثاني، حول تاريخ الرياضيات العربية، عقد في عام ١٩٨٨ بتونس، نشر جامعة تونس، ص٧٤-٨٤ DOLD- SAMPLONIUS (Y) "AL- KASHI'S MEASUREMENT OF MUQARNAS

١٧ - الملتقى المغاربي الخامس حول تاريخ الرياضيات العربية، عقد في عام ١٩٩٤م بتونس، قيد النشر. DOLD - SAMPLONIUS (Y) AL- KASHI.S CALCULATIONS OF ARCHES AND VAULTS.

18 - ILYAS, MOHAMMED: ASTRONOMY OF ISLAMIC TIMES FOR THE 21ST CENTURY, MANSELL PUBLISHING Ltd. LONDON, 1989.

١٩ - الحسن: المرجع المذكور بالهامش رقم ٣ أعلاه.

٢٠. صالحية، محمد عيسى: «تنظيف الثياب من الآثار والطبوعات والأوساخ في ضوء التراث العربي»، أبحاث الندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب، عقدت بحلب عام ١٩٨٧م، نشر جامعة حلب، ١٩٩٣م، ٢/١٧٩ - ٢٠٤.

٢١. قاري، لطف الله: «الرسم الهندسي في التراث الإسلامي»، بحث قدم للمؤتمر السنوي الرابع عشر لتاريخ العلوم عند العرب، عقد بسورية عام ١٩٩٠م، ثم أعيد طبعه في كتاب إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

22 - ROBERTS, V: THE SOLAR AND LUNAR THEORY OF IBN ASH - SHATIR: A. PRE - COPERNICAN MODEL, ISiS, VOL. 48 (1957), PP. 428 - 432, REPRINTED IN: D.A.KING & M.H. KENNEDY (ed): STUDIES IN THE ISLAMIC EXACT SCIENCES, AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT 1983, PP. 50 - 54.

٢٣. جينكريتش (١) «علم الفلك الإسلامي»، مجلة العلوم، تصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي (وهي ترجمة SCIENTIFIC AMERICAN)، المجلد١، العدد١، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٦م، ص ٨ - ١٩.

٢٤. قاري، لطف الله: «الاسطرلاب وما بعده»، مجلة الفيصل، العدد ٢٦٩، ذو القعدة ١٤١٩هـ آذار/مارس ١٩٩٩م، ص ٨١ - ٨٨.

٢٥. المصدر السابق.

٢٦. المصدر السابق.

٢٧. قاري، لطف الله: «السلامة الصناعية في تراثنا العلمي»، أبحاث الندوة العالمية الخامسة لتاريخ العلوم عند العرب، المنعقدة بغرناطة عام ١٩٩٢م، نشر معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، ١٩٩٥م، ص١٥٣-١٩٦ ثم أعيد طبعه في كتاب «إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية»، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

٢٨. قاري لطف الله: ARABIC TREATISES ON ENVIRONMENTAL POLLUTION UP TO THE END OF 7/13 CENTURY، بحث قدم للمؤتمر الدولي السادس والثلاثين لتاريخ الطب، تونس، أيلول/سبتمبر ١٩٩٨م.

٢٩. المرجع المذكور بالهامش ١١ أعلاه.



معنى تعلُّق الأحكام بالأعيان والخلاف فيه

أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري

قال أبو عبدالرحمن: صرف الأصوليون الكلام في هذه المسألة إلى الإجمال والعموم في أفعال المكلفين المتعلقة بالأعيان، وانصرفوا عن أساس المسألة، وهو: هل يتعلق الحكم بالعين أو لا؟ ومن تكلم في ذلك تكلم إجمالاً، ولم أر التفصيل عند غير بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي الشافعي (٧٤٥ ـ ٧٩٤هـ)؛ فإنه لما عرَّف الحكم بأنه «خطاب الشرع المتعلق بفعل المكلف بالاقتضاء أو التخيير»(١) قال: «علم من تعريف الحكم بالتعلق بفعل المكلف: أن الأحكام لا تتعلق بالأعيان»(٢) ثم قال: «ولكن هذا ليس متفقًا عليه؛ فقد ذهب جمع من الحنفية إلى أن الحكم يتعلق بالعين كما يتعلق بالفعل.. ومعنى حرمة العين خروجها من أن تكون محلاً للفعل شرعًا، كما أن حرمة الفعل خروجٌ من الأعيان شرعًا».

وذكر صاحب الميزان من الحنفية(٣): أن الحل والحرمة إذا أضيفا إلى الأعيان فهي(٤) أوصاف لها، كما تكون أوصافًا للأفعال في قول الحنفية خلافًا للمعتزلة.. قال: «وإنما أنكرت المعتزلة إضافة التحريم إلى الأعيان؛ لئلا يلزمهم نسبة خلق القبيح إلى الله تعالى؛ بناء على أن كل محرم قبيح.. وذكر صاحب الأسرار منهم: أن الحل والحرمة معًا ـ إذا كانا لمعنى في العين ـ أضيف(٥) إليها؛ لأنها نسبة كما يقال: جرى الميزاب. وقال: حرمت الميتة؛ لأن تحريمها لمعنى فيها.. ولا يقال: «حرمت»؛ لأن حرمتها احترام المالك؛ فحصل في تعليق الأحكام بالأعيان ثلاثة مذاهب.. وذكر هذه المسألة هنا من الغرائب»(٦).

قال أبو عبدالرحمن: المذهب الثالث: أن الحكم قد يتعلق بالمالك، والثاني التعلق بالعين، والأول التعلق بالفعل.

وقال الزركشي: «قال القاضي في التقريب(٧): «إن الشيء قد يوصف بما يعود إلى نفس الذات، أو صفة نفسية أو معنوية قائمة بالذات، أو صفة تَعلُّقٍ لا يرجع شيء منها إلى الذات.

وقد اختلف في الأحكام: أتكتسب بها الذوات صفة أم لا؟.. الجمهور على أنها من صفات التعلق؛ فإذا قيل: هذا نجس: فليس(٨) النجاسة، ولا كونه نجسًا راجعًا إلى نفسه، ولا إلى صفة نفسية أو معنوية للذات.. بل هي حال الطهارة والنجاسة على حد سواء.. لم يُفد هذا الحكم صفةً زائدة قائمة بها لأجل الحكم.. ومعنى النجاسة تعلُّق قول الله تعالى: إنها مجتنبة في الصلاة، ونحوه.. وكذا قولنا: شرب الخمر حرام: ليس المراد تجرُّعها وحركات الشارب، وإنما التحريم راجع إلى تعلق قول الله تعالى في النهي عن شربها.. وقد تحقق في علم الكلام: أن صفات التعلق لا تقتضي إفادة وصف عائد إلى الذات، وهذا كمن علم أن زيدًا قاعد بين يديه: فإن علمه وإن تعلق بزيد لم يغيِّر من صفات زيد شيئًا، ولا حدثت لزيد صفة، لأجل تعلق العلم به. وذهب بعضهم إلى استفادة الذوات من الأحكام فائدة، ورأوا أن التحريم والوجوب يرجع إلى ذات الفعل المحرم والواجب، وقدَّروه وصفًا ذاتيًا.. قال القاضي: واعتلوا لذلك بضرب من الجهل، وهو أنه لو توهم عدم الفعل لعدمت أحكامه بأسرها فوجب أن يكون أحكامه هي هو.. قال القاضي: وهذا باطل؛ لأنه يوجب أن تكون جميع صفات الأجسام وأحكامها وأقوالها وأفعالها هي هي؛ لأنه لو تُصوِّر عدم الجسم لعدمت أحواله وألوانه وجميع تصرفاته؛ فيجب أن يكون عبارة عن أفعاله.. ولا يقوله عاقل.. ونسب غيره هذا إلى المعتزلة؛ فقالوا: الأحكام ترجع إلى تعلق الخطاب، وهي صفة إضافية.. وقالت المعتزلة: إلى صفات الأفعال، وهي نفسية.. وقال الغزالي: وقولنا: الخمر محرمة: تَجوُّز؛ فإنه جماد لا يتعلق به خطاب، وإنما المحرم تناولها.

وقال إلْكِيا الطبري: الحكم لا يرجع إلى

ذات المحكوم ولا إلى صفة ذاتية له: إن قلنا: إنها زائدة على الذات، أو صفة عرضية له.. وإنما هو تعلق أمر الله بالمخاطب.. وهذا التعلق معقول من غير وصف محدث للمتعلق به كالعلم يتعلق بالمعلوم.

وإذا سمعت الفقيه يقول: «حقي يتعلق بالعين»: فمعناه أنه ثبت لمعنى في العين كالخمر حُرِّمتْ لمعنى فيها؛ فتعلق الحكم تابعاً(٩) للمعنى؛ فكانت على حال ما يتعلق بالعين وإن لم يتعلق بها حقيقة»(١٠).

قال أبو عبدالرحمن: صاحب هذا النص من الحفاظ للمتون في صغره، وكان يلقب بالمنهاجي؛ لأنه حفظ «منهاج الطالبين» للنووي.. ذكر عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة أنه: «كان منقطعاً في منزله لا يتردد إلى أحد إلا إلى سوق الكتب، و إذا حضره لا يشتري شيئاً، وإنما يطالع في حانوت الكتبي طول نهاره ومعه ظهور أوراق يعلق فيها ما يعجبه، ثم يرجع فينقله إلى تصانيفه»(١١).

ومؤلفاته نفيسة مليحة كثيرة في التفسير والحديث والفقه وأصولهن، والفلسفة والمنطق والبلاغة والأدب، فكان يلقب بالمصنِّف على الرغم من أن عمره تسعة وأربعون عاماً.

قال أبو عبدالرحمن: وتقميشه من الحانوتي أفاده أيما فائدة في تعميق مؤلفاته بالنخب والنفائس النادرة؛ ولهذا قال عن كتابه في الأصول: «اجتمع عندي بحمد الله من مصنفات الأقدمين في هذا الفن ما يربو على المئين، وما برحت لي همة تهم في جمع أشتات كلماتهم وتجول، ومن دونها عوائق الحال تحول.. إلى أن منَّ الله سبحانه بنيل المراد، وأمد بلطفه بكثير من المواد، فمخضتُ كتب القدماء، ووردتُ شرائع المتأخرين من العلماء، وجمعت ما انتهى إليَّ من أقوالهم، ونسجت على منوالهم، وفتحت ما كان منه مقفلاً، وفصلت ما كان مجملاً.. بعبارة تُستعذب، وإشارة لا تُستصعب.. وزدت في هذا الفن من المسائل ما ينيف على الألوف، وولدت من الغرائب غير المألوف، ورددت كل فرع إلى أصله، وشكلٍ قد حيل بينه وبين شكله، وأتيت فيه بما لم أسبق إليه، وجمعت شوارده المتفرقات عليه؛ بما يقضي منه العجب!!»(١٢).

قال أبو عبدالرحمن: هكذا والله كان كتاب الزركشي البحر المحيط، وقد نقل عن مصادر مفقودة اليوم يفرح المتطلع أن يقرأ منها أسطراً، فمن ذلك كتب شرح الرسالة، والدلائل، والإعلام للصيرفي.. والنقل عن هذا الفقيه الأصولي الشافعي في كتاب البرهان للزركشي يدل على أنه من كبار المفكرين، وكتابا الرد على داود الظاهري في إنكاره القياس، والإعذار والإنذار لأبي العباس ابن سريج، وكتب القاضي عبدالوهاب المالكي، وأصول الفتوى لأبي عبدالله محمد بن سعيد الداوودي - قال: وهو عمدة الظاهرية فيما صح عن داوود.

كيف تكون العين محلاً محرماً لذاتها من غير فعل محرم تكون محلاً له؟!

قال أبو عبدالرحمن: وأقف عند نص الزركشي الوقفات التالية:

الوقفة الأولى: أنه نقل عن بعض الحنفية قوله عن معنى تعلق الحرمة بالعين: «ومعنى حرمة العين خروجها من أن تكون محلاً للفعل شرعاً»..

قال أبو عبدالرحمن: العبارة ناقصة موهمة، وصواب تقديرها هكذا: «...من أن تكون محلاً للفعل المحرم شرعاً».. وحينئذ تكون الحرمة للفعل، وتكون العين محلاً للفعل المحرم لا للحرمة.

الوقفة الثانية: قد يقول قائل: إن العبارة مفهومة بغير هذا التقدير، بل بتقدير آخر، وهو: «معنى حرمة العين خروجها من أن تكون محلاً محرماً للفعل شرعاً».

قال أبو عبدالرحمن: هذا التقدير إعادة للدعوى غير المتصورة - وهي حرمة العين -، وليس تفسيراً لها، ويبقى السؤال الذي يقتضي تفسيراً بحسبه، وهو: كيف تكون محلاً محرماً لذاتها من غير فعل محرم تكون محلاً له؟!.. فإن كانت محلاً محرماً لفعل المكلف: عادت الحرمة إلى الفعل المتصورة حرمته، لا إلى المحل غير المتصورة حرمته إلا بمعنى فعل محرم، فيكون المحل محلاً للفعل المحرم لا للحرمة.

الوقفة الثالثة: في النقل عن ميزان السمرقندي: أن الحل والحرمة وصف للأعيان.. قال أبو عبدالرحمن: لا خلاف في إضافة الحكم - حرمةً وحلاً - إلى الأعيان لفظاً، وبناء على هذه الإضافة اللفظية يكون الحكم وصفاً للعين لفظاً.. وإنما الخلاف في معقول الخطاب: هل يُتصور أن يكون الحكم للعين وهي غير مخاطبة بالتكليف، أو أن الحكم لفعل المكلف المخاطب - بصيغة اسم المفعول -؟.. وقولهم: «إن الحكم وصف للعين»: ترديد للدعوى بوجه لفظي آخر، وليس تفسيراً لها لتكون معقولة.

الوقفة الرابعة: ليس بصحيح أن إنكار المعتزلة جَعْلَ الحرمة للعين بسبب مذهبهم في التحسين والتقبيح، بل هذا مذهب الجمهور من غير المعتزلة.. وإنما السبب استحالة تصورحرمة العين؛ لأنها غير مخاطبة.. وهذه الدعوى على المعتزلة من البَدَوات!

الوقفة الخامسة: كل ما في الوجود خلق الله سبحانه، والقبح نسبي؛ فالفأرة من خلق الله وهي قبيحة مستقذرة، ولكن خلقها حسنٌ في فعل الله من جهتين:

أولاهما: إتقان الصنع وفق المراد.

وأخراهما: غاية الإيجاد المتعلقة بعلم الله وحكمته.. وعقول البشر المحدودة قاصرة عن الإحاطة بحكم الله وعلمه؛ ولهذا كان ربنا سبحانه: *لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون.* **الأنبياء: ٢٣** لأنه سبحانه لا يفعل اعتباطاً، بل لحكمة، وعن علم مهيمن.

الوقفة السادسة: كل محرم شرعاً قبيح: إما لقبح في المحرم فعله، وإما لقبح

في الفعل المحرم، أو لأن عاقبته وخيمة؛ إذ الكفار من المقبوحين في الآخرة.. وعلى هذا فتحلي الرجال بالذهب جمال لا قبح؛ ولهذا كان من زينة أهل الجنة، فالقبح قبح العاقبة.. ولكن يوصف التحلي المحرم شرعًا بالباطل والشر لرجوحيته بالحكمة الشرعية التي حُرِّم من أجلها، ولمرجوحيته بحلية أفضل في الحياة الأبدية؛ ولهذا يقال للكفار: *أَذْهَبْتُم طَيِّبَاتِكم في حياتكُم الدنيا*. **الأحقاف: ٢٠**.

الوقفة السابعة: من تحصيل الحاصل غير المؤثر في محل النزاع: القول: بأن تحريم العين لمعنى فيها.. وليس هذا لعين دون عين، بل كل عين محرمة فالحرمة للفعل، والمعني هو المحل الذي يتعلق به الفعل المحرم.. أما حكمة تحريم الفعل في محل معين: فقد تكون منصوصة، وقد تكون مستنبطة، وقد تكون مفوضة لا نَفْقَهُ منها إلا محض التعبد والابتلاء.

الوقفة الثامنة: لا معنى للمذهب الثالث القائل: الحرمة للعين احترامُ المالك.. هذا كلام لا يُعقل، بل المعقول: أن المحرَّم فِعْلُ غير المالك بغير إذنه.

الوقفة التاسعة: تقسيم القاضي الباقلاني للأوصاف والتعلقات غير الممثل لها ليس وراء العناء في تحقيقه كبير فائدة، وإنما يحقق ما يُورد منه مثالاً لتفريعات المسألة كما سيأتي إن شاء الله.

الوقفة العاشرة: معضلة التساؤل عن مدى اكتساب الذوات صفة بالأحكام الشرعية: أنها سؤال وضع في غير موضعه منطقًا، لأن الأحكام لفظًا صفة للذوات، وليست الذوات صفة للأحكام.. وفي معقول الخطاب تكون الأحكام صفة للأفعال المتعلقة بالذوات، وليست الأفعال صفة للأحكام؛ فلا تقول: صفة الحرمة شرب الخمر!.. وإنما تقول: صفة شرب الخمر أنه حرام.. إذن السؤال من أصله فاسد.

الوقفة الحادية عشرة: السياق منذ قول الزركشي: «فإذا قيل: هذا نجس: فليس النجاسة ولا كونه».. إلى قوله: «راجع إلى تعلق قول الله في النهي عن شربها»: كلام مضطرب لا يتحقق منه كلام مفيد؛ لأنه تشقيق للجواب عن سؤال أسلفت أنه فاسد في الأصل؛ ولهذا أَرُدُّ كل مثال ورد إلى وضعه الطبيعي المنطقي.

الوقفة الثانية عشرة: ما حَكَم الله بنجاسته فليس معنى النجاسة فيه تعلق قول الله تعالى: إنها مجتنبة في الصلاة.. فهذه عبارة ملتوية، والصواب: أن هناك حكمًا، ووصفًا للمحل المحكوم في الفعل المتعلق به؛ فالحكم المنع والتحريم للفعل المتعلق بالمحل، والوصف النجاسة، وهذا الوصف في المحل بلا ريب؛ لأن الحكم مُعلَّل بالنجاسة.. وقد تكون النجاسة حسية، وقد تكون حكمية معللة بالمعقول أو التفويض.

الوقفة الثالثة عشرة: قوله عن الخمر: «ليس المراد تجرُّعَها،..إلخ» خارج عن السياق؛ لأن سياقه عن الصفة في المحل

الأحكام لفظًا صفة للذوات وليست الذوات صفة للأحكام

المتعلق به الحكم وكلامه عن نوع الفعل المحرم.

قال أبو عبدالرحمن: وبعد هذا التفريق أشير إلى أن الحكم حرمة الخمر، وأن الحرمة تشمل أفعالاً منها شربها وبيعها.. والشرب هو كل ما سمي لغة شربًا سواء أكان تجرعًا أم جريانًا سلسًا، والوصف أو المعنى الموجود في محل الفعل هو السكر.

الوقفة الرابعة عشرة: نقله قول أهل الكلام: «صفات التعلق لا تقتضي إفادة وصف عائد إلى الذات».. قال أبو عبدالرحمن: كيف تكون هي صفة ثم لا تقتضي وصفًا؟!.. أما المثال «بأن علم عمرو بقعود زيد بين يديه لم يغير من صفات زيد شيئًا، ولا حدثت له صفة من أجل تعلُّقِ علم عمرو»: ففيه مغالطة من أربع جهات:

الأولى: أن الحكم وصفٌ للفعل في المآل، وهو وصف للمحل لفظًا؛ فهو وصف شرعي استجد بالخطاب الشرعي.

والثانية: ما سبق غير الصفة المبحوث عنها في المحل؛ فيعلم أن الحكم جاء من أجلها؛ فهذا قد يكون محسوسًا، أو معقولاً، أو مُفَوَّضًا.

والثالثة: علم عمرو بقعود زيد ليس حكمًا على فاعل يفعل فعلاً محله زيد.. والحكم الشرعي بخلاف ذلك، لأنه ليس مجرد علم يتعلق بزيد، وليس خبرًا عن ذلك العلم، وإنما هو تكليف بفعل أو ترك؛ فيكون وصفًا على نحو ما ذكر في بيان الجهة الأولى من جهات المغالطة.

والرابعة: أن الصفة في المحل التي جاء الحكم من أجلها لا تكون جديدة، بل تكون موجودة؛ فيجيء الحكم من أجل وجودها إذا كان الحكم معللاً بغير محض التعبد والتفويض.

الوقفة الخامسة عشرة: ذكر مذهب مَن رأى استفادة الذوات من الأحكام، وأن الحكم راجع إلى ذات الفعل، وأنه وصف ذاتي.

قال أبو عبدالرحمن: بل هو وصف إضافي للفعل من قبل الشرع، والذات محل الفعل.

الوقفة السادسة عشرة: لا يمكن أن يكون الفعل هو نفس الحكم.. أي إن شرب الخمر هو نفس تحريمه.. وقد ردَّ ذلك القاضي ابن الباقلاني بكلام فلسفي مطول يغني عنه العلم بأن الفعل سلوك المكلف، والحكم قضاء الله خالق المكلف؛ فهما غيران.

الوقفة السابعة عشرة: لا نكارة في قول من قال: «الأحكام صفة إضافية؛ لأنها ترجع إلى تعلق الخطاب»؛ فهذا صحيح. فالتحريم الشرعي صفة لأكل الميتة، وهي صفة إضافية من الشرع لمعنى نعقله أو لا نعقله فلا يظهر لنا إلا محض التعبد.. ولو شاء ربنا إباحتها لفعل لا معقِّب لحكمه.

أما تعليل الحكم بمعنى في محله أو محل محله مؤثر، فقضية أخرى غير قضية تعلق الأحكام بالأفعال، بل المعنى صفة

للمحل، والحكم صفة للفعل.

الوقفة الثامنة عشرة: قد يتعلق الحكم؛ بالفعل بإطلاق كأكل الميتة، وقد يتعلق بصفة من صفات الفعل كالشرب واقفًا ـ على خلاف في هذا الحكم فقهًا وإنما الغرض المثال الشارح: فلا معنى لإطلاق بعض المعتزلة القول: بأن تعلق الخطاب بصفات الأفعال.. أما تعليل الحكم (الذي هو غير الحكم ذاته): فقد يكون لوصف معقول في الفعل أو محله، أو يكون التعليلَ مفوضًا مع الاعتراف بمحض التعبد والابتلاء.

الوقفة التاسعة عشرة: كلمة أبي حامد الغزالي رحمه الله مليحة نفيسة، وهي قوله: «إن تحريم الخمر تجوُّز، وإنما المحرم الفعل المتعلق بها»؛ إذ علل ذلك بأنها جماد لا يتعلق به خطاب.

الوقفة العشرون: سياق إلْكِيا الطبري مرّ نقاشه في الوقفات السابقة.

الوقفة الحادية والعشرون: وجَّه الزركشي رحمه الله تعالى قول الفقيه «حقي يتعلق بالعين»: بأن الحق ثبت لمعنى في العين كالخمر حُرِّمت لمعنى فيها؛ فتعلق الحكم ـ حالة كونه تابعًا للمعنى ـ؛ فكانت الخمر على حالٍ ما تتعلق بالعين وإن لم تتعلق بها حقيقة.

قال أبو عبدالرحمن: وقبل الوقفة أُحلل عبارة الزركشي الغامضة إلى مآلها؛ فالمعنى الذي لا يفهم من كلامه غيره: أن السكر حالٌ في الخمر؛ فأصبح تعلق الحكم (وهو الحرمة) بالخمر تبعًا لهذا المعنى؛ فكانت الخمر على حال تُسكر، وهذه الحال لا تتعلق بالخمر حقيقة.. ومعنى نفي الحقيقة باحتمالين:

أولهما: أن السكر صفة للشارب لا للخمر.

وثانيهما: أنه لا يحصل السكر من الشرب القليل، وقد لا يسكر المدمن بالكثير، فالسكر أغلبي لا حتمي.

قال أبو عبدالرحمن: مهما كان التقدير فوقفتي من عدة جهات:

أولاها: أن السكر صفة للخمر؛ لأن قضاء الله الكوني دبَّر تأثيرها في الشارب؛ ولهذا توصف بفاعليتها؛ فيقال الخمر مسكرة.

وثانيتها: أن وجود الإسكار فيها حقيقة؛ لأنها لابد أن تسكر بمقدار معروف من التجربة إذا تخلفت الموانع.. ووجود المانع لا ينفي حقيقة وجود المقتضي، وإنما يعني تعطيله.

وثالثتها: أن وصف الخمر بالإسكار لا ينفي وصف الشارب أيضًا من جهة المفعولية.. وقولهم: سكر فلان: مجاز؛ لأنه لم يفعل السكر، وإنما فعل ما أحدث له السكر.

ورابعتها: لم يرد الخطاب بالنهي عن السكر بالخمر، وإنما ورد النهي عن شربها وإن لم يحصل بقليلها سكر.. إذن من الحكمة المعقولة لحرمة الشرب أمران معًا هما: السكر، ومظنة السكر.

وخامستها: ليس بصحيح أن قول الفقيه: حقِّي في العين بمعنى ثبت حقي لمعنى في العين.. بل المعنى: أن حقه فعل له في العين كلي أو جزئي بناء على حق الملكية الثابت حكمه شرعًا؛ فالعين محل فعله، والفعل محل الحكم.. وهكذا الخمر محل لفعل المكلف المحكوم فيه شرعًا.. أما تعليل الحكم في الفعل بمعنى في الفعل ـ أو في محل الفعل ـ: فقد ذكرت آنفًا أن ذلك قضية أخرى، وأنه تعليل للحكم؛ فوجود الحكم شيء، وتعليله شيء آخر.

الوقفة الثانية والعشرون: الفاصل في هذا الاختلاف الأصولي ـ حول تعلق الحكم بالأعيان أو الأفعال ـ هو التمييز بين قضاء الله الكوني وقضائه الشرعي.. أما قضاء الله الكوني فيتعلق بكل الأعيان عاقلها وجمادها.. قال تعالى: *ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين*. **فصلت:** ١١، وقال تعالى: *وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء*. **فصلت:** ٢١، وقال تعالى: *إنا عرضنا الأمانة على السماوات(١٣) والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها*. **الأحزاب:**٧٢.

أما قضاء الله الشرعي فهو ما أنزله الله على رسله وحيًا، وأخبر أنه لم يكلف به غير الثقلين من الإنس والجن، وجعل للتكليف شروطًا منها العقل.. والأعيان من غير الثقلين غير مكلفين بشرعنا؛ فلا يصح الزعم بأن الحكم متعلق بهم، وإنما يتعلق الحكم بالمكلف اعتقادًا وقولاً وعملاً؛ فكل ذلك فعل المكلف.

والأعيان محل لأفعالنا التي يرد من الله الحكم فيها شرعًا.. فقد يمنعنا من إيجادها ـ إن كانت مما جعله الله لقدرتنا ـ كصناعة الخمر، أو التسبب في إيجادها (إن كانت مما جعل الله أفعالنا أسبابًا مقتضية لها بقدرته مع تخلف المانع) كالسعي في إنبات ما هو مسكر أو مخدر.. وقد يتعلق فعلنا بشيء موجود.

أما أعيان المكلفين فالحكم متعلق بأفعالهم؛ فإذا حرم الله على الذكر الفاحشة فتمكين المرأة فعل شيءمنها محرم، وإلى لقاء، والله المستعان.

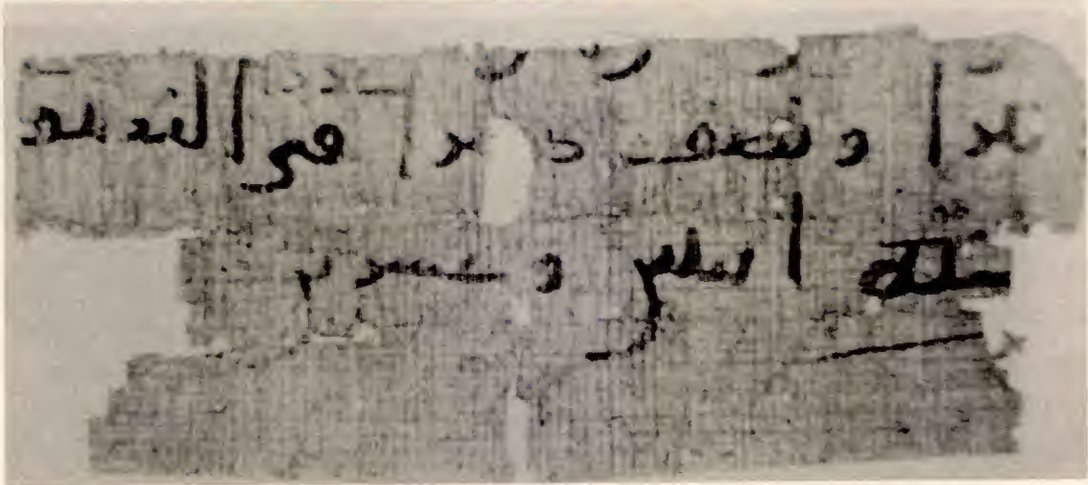
المراجع والهوامش:

١ـ البحر المحيط في أصول الفقه تحقيق عبدالقادر عبدالله العاني/ نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت/ ط دارالصفوة بالغردقة/ الطبعة الثانية عام ١٤١٣هـ ١١٧/١.
٢ـ المصدر السابق ١١٩/١.
٣ـ قال أبو عبدالرحمن: هو السمرقندي كما في مقدمة المؤلف ٨/١.
٤ـ قال أبو عبدالرحمن: الصواب: «فهما»؛ لأن الأعيان موصوفة، وليست أوصافا.
٥ـ الصواب: أضيفا.
٦ـ البحر المحيط ١١٩/١.
٧ـ هو التقريب والإرشاد للقاضي أبي بكر ابن الباقلاني.
٨ـ الصواب: فليست.
٩ـ «تابعًا» حال، أو صفة لمحذوف.. والتقدير: فتعلق الحكم بالعين تعلقًا تابعًا.
١٠ـ البحر المحيط ١١٩/١ ـ ١٢١.
١١ـ مقدمة المحقق للبحر المحيط ٩/١ عن الدرر الكامنة ١٧/٤.
١٢ـ البحر المحيط ٦/١ ـ٧.
١٣ـ لا أرى وجهًا للتقيد برسم المصحف الكريم في الاستشهاد، بل أرى أنه يجب على المفسر ـ لإيضاح كلام الله ـ أن يورد النص برسم المصحف، فإذا شرع في التفسير كتب بالرسم الراهن الذي يقرؤه الجمهور.

أهمية البَرْدِيَّات في كتابة التاريخ الإسلامي

جاسر خليل أبو صفية

البَرْديّ:نبات مائي، له خوص كخوص النَّخل، وله ساق طويلة خضراء مائلة إلى البياض، عليها مُقْلة كبيرة، وساق رهيفة هَشَّة. يُعْرَف في مصر بالفافير أو البابير. ومنه تصنع القراطيس. ينبت في مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وصقلية وغيرها من الأماكن التي تكثر فيها المستنقعات(١).



أقدم بردية مؤرخة في ٢٢ هـ

أسماؤه في العربية

أطلق العرب على نبات البَرْدي أسماء متعددة منها:(٢)

الحَلفاء، والخَفأ، وحُفارة، وغَريف، والأباءة، والسَّقِيّ، والقَنْصَف، وهو البَرْدي إذا طال، وخُراط وخُراطة، والعُنْقُر، وتطلق هذه التسمية على البَرْدي نفسه وعلى أصله وساقه، والسَّرير، وهو شَحْمة البَرْدي التي تؤكل.

قال الأعشى:

كبَرديَّة الغيل وسْط الغَريـ
فِ ساق الرُّصافُ إليه غديرا

وقال أوس بن حجر:

ليثٌ عليه من البَرْدي هِبرية
كالمَرْزُبانيّ عَيَّالٌ بأوصالِ

وقال امرؤ القيس:

وكشحٍ لطيفٍ كالجَديل مُخَصَّرٍ
وساقٍ كأنبوبِ السَّقِيِّ المُذَلَّلِ

اكتشاف الوثائق البردية(٣)

- سنة ١٨٧٧م: اكتشفت مجموعة الفيوم الأولى.

- سنة ١٨٩٦/١٨٩٧م: اكتشفت الجمعية المصرية للآثار، بإشراف

غرينفل GRENFELL وهَنْت HUNT؛ في البهنسا بمصر أكبر موقع للبرديات.

ـ سنة ١٩١٠م: اكتشفت مجموعة الفيّوم الثانية التي أُطلق عليها أفروديتو APHRODITO نسبة إلى اسم المدينة القديم.

ـ سنة ١٩٣٦/١٩٣٧م: اكتشفت برديات عوجا الحفير، جنوب بئر السَّبع في فلسطين، وعرفت ببرديات نصّان.

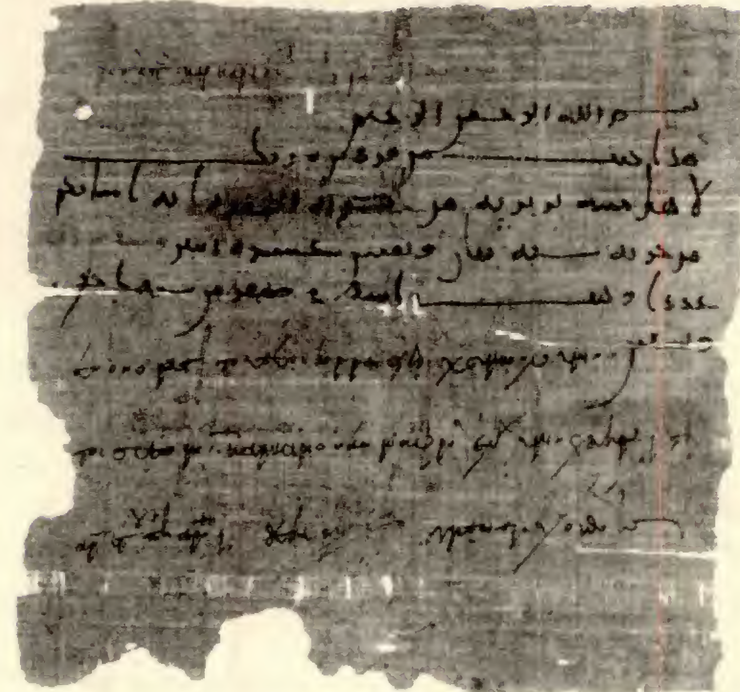
ـ سنة ١٩٥٢م: اكتشف موقع آخر للبرديات في فلسطين في خربة المرد، قرب وادي النّار جنوب عين الفيشا.

ـ كما اكتشفت بعض البرديّات في سامرّاء وقرب دمشق.

أظهرت البرديات لِقُرّة بن شريك والي مصر صورة مناقضة لصورته في كتب التاريخ



بردية «ألف ليلة وليلة»



رسالة من قرّة إلى إحدى قرى «أشقوة» باللغتين العربية واليونانية

القيمة العلمية للبَرْدِيَّات

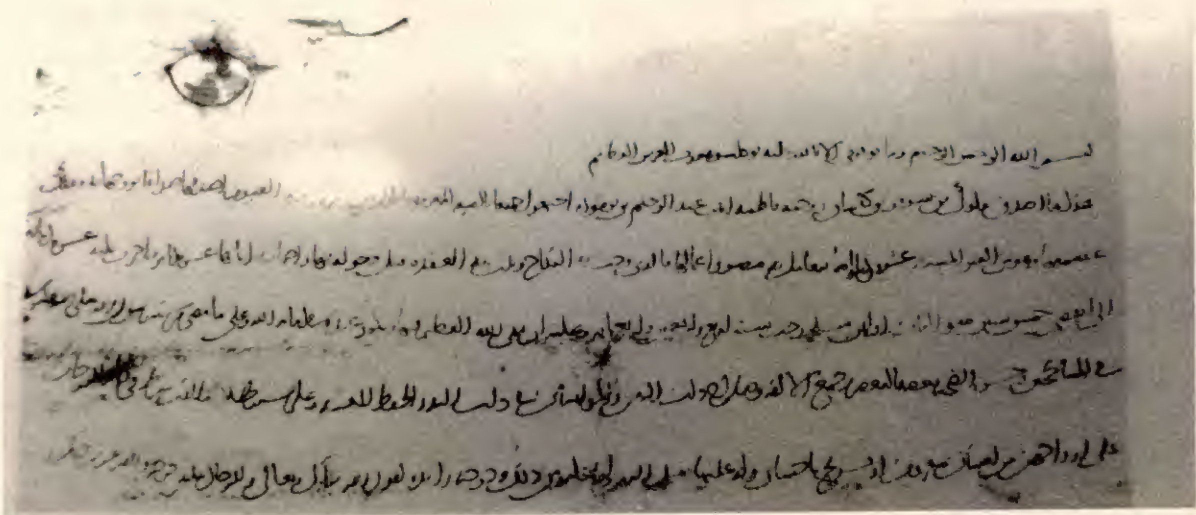
الوثائق البردية حقيقية لا مجال للشّك فيها، ولا مكان للأهواء والميول؛ لأنها أدلة موثوقة مسجلة في العصر الذي كتبت فيه. ولذا فهي مصدر أصيل للمؤرخ والأديب واللغوي والفقيه.

قال كينيون KENYON: «للأوراق البردية قيمة علمية لدارس التاريخ وعلم اللغة؛ فهي تقدم حقائق جديدة على قَدْر كبير من الأهمية، يعتمد عليها الباحث في تفسيره للنصوص الأدبية والتاريخية»(٤).

أهمية البرديات في كتابة التاريخ الإسلامي

ذكر ابن خلدون أن حقيقة التاريخ «خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل: التّوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصّنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران...»(٥). أي هو تاريخ للمجتمع، خاصه وعامه في مختلف نواحيه: السياسية والإدارية والمالية والعسكرية والفقهية والأدبية.

وفيما يلي أمثلة تبين أهمية البرديات في كتابة التاريخ الاجتماعي



عقد زواج إسلامي

في العصور الإسلامية المختلفة:

فضح الروايات المزوَّرة على رجالات الدولة الأموية - قُرَّة بن شريك مثالاً:

قال المؤرخون العرب عن قُرّة بن شريك العبسي الذي كان واليًا على مصر في عهد الوليد بن عبدالملك (٩٠هـ - ٩٦هـ):

«ظالم جبّار، عات، فاسق.. أنشأ جامع الفُسطاط. وكان إذا انصرف منه الصُنّاع دخله ودعا بالخمور والمطربين، ويقول: لنا اللّيل ولهم النهار. وكان جائرًا عَسُوفًا»(٦).

ولكنَّ البرديات أظهرت لِقُرّة بن شريك صورة مناقضة لصورته في كتب التاريخ مما دعا جرومان إلى القول: «إنَّ كلَّ ما قيل عن قُرّة محض افتراء، وإنّ رسائله تبدو فيها نزاهته وعدالته وتسامحه وتقواه»(٧).

ففي إحدى البرديات باللغة العربية يعترض قُرّة على بسيل صاحب كورة أشقوة (تعرف اليوم بكوم أشقاو) لأنه عاقب بعض القرى ليجبرهم على دفع الجزية، فكتب إليه ينهاه عن ذلك:

«أمّا بعد، فإنَّ القاسم بن سيّار، صاحب البريد، ذكر لي أنَّك أخذت قُرًى في أرضك بالذي عليهم من الجزية. فإذا جاك كتابي هذا فلا تعترض أحداً منهم بشيء حتى أُحدث إليك فيهم إن شاء الله»(٨).

وفي بردية باللغة اليونانية يأمر قُرَّة بسيلاً أن يتقي الله، ويتوخى العدل والمساواة في تقدير الجزية، وأنه سيعاقب كل من يظلم أو يُحابي في تقدير الجزية أو تحصيلها(٩).

وعقوبة الظلم أو الاعتداء على الفلاحين في الكيل شديدة ومتنوعة، وهي:

- أن يجلد مئة جلدة، وأن تُجزَّ لحيته ورأسه، وأن يُغَرّم ثلاثين دينارًا، وأن يُغرّم الزيادة التي أخذها من الفلاحين.

ويختم قرة رسالته إلى بسيل بقاعدة ثابتة في السياسة والإدارة، تدلُّ على حسن التدبير عنده وليس على سوئه كما قالت الرّوايات التاريخية، يقول: «واتّق الله فيما تلي، فإنّما هي أمانتك ودينك، ثُمّ احْجُر عمّالك ونفسك عن ظلم أهل الأرض؛ فإنّ الأرضَ لا صبر لها على الظّلم ولا بقاء. وإذا أتى أهلَ الأرض الظلمُ مِنْ قِبل مَنْ يلي أمرهم فإنَّ ذلك خرابُهم...»(١٠).

أخبار أغفلتها المصادر التاريخية

- الغزوات البحرية:

اعتاد قُرة بن شريك أن يرسل الأسطول الإسلامي من شواطئ مصر لغزو الروم والجهاد في سبيل الله سنويًا. وهو أمر سكتت عنه المصادر التاريخية.

ففي بَردية باللغة العربية يكتب قُرّة إلى بسيل بشأن إعداد سفن مصر والشام، وقسمة النُّواتية بين القطرين. وفيها ذكرٌ لما يحتاجه المقاتلة من الخبز الطَّيِب(١١).

وفي أطول بردية باللغة اليونانية، وهي رقم (١٣٩٣) نجد أخبارًا مفصلة عن البحّارة والمقاتلين (وهم من العرب الذين أُطلق عليهم لقب «المهاجرون») والعُمال المهرة ومقدارما يحتاج إليه كلٌّ منهم من الأطعمة، ومقدار الأجر الذي يتقاضاه، والمدّة الزّمنية التي سيقضيها على ظهر السفينة.

- **غزو أفريقية بحرًا:**

تشير البردية (١٣٥٠) إلى البحارة الذين رجعوا من غزو أفريقية بقيادة موسى بن نصير الذي أرسلهم مع رافع بن عطاء إلى كورة أشقوة. وفيها يطلب من بسيل أن يحصي عدد البحارة الذين رجعوا، وأن يسألهم عن الذين بقوا مع موسى بن نصير وعن سبب تخلّفهم هناك. ويطلب منه أن يتحرى عن عدد الذين ماتوا في الغزوة أو في طريق عودتهم(١٢).

- **ديوان الجند:**

ذكر الكِندي أنّ قُرّة دوّن الديوان الثالث سنة خمس وتسعين(١٣). ولم يُبيّن طبيعة هذا التدوين. وجاءت البرديات لتبيّن أنّ هذا التدوين يتصل بديوان الجند والعطاء لشدّة اهتمام قُرّة بذلك.

وتَبيَّنَ من إحدى البَرديات باللغة العربية أنّ تدوين قُرّة قد وقع قبل سنة خمس وتسعين(١٤).

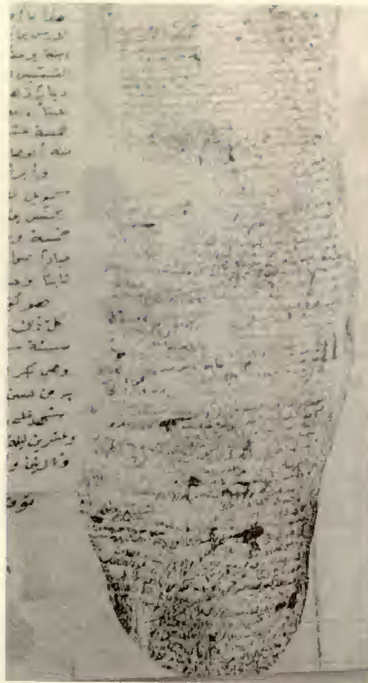
- **غزوة دمياط سنة ٢٣٨هـ:**

ذكر الطّبري غزوة دمياط باختصار مُخلّ، وهو أنّ الروم غزوا مدينة دمياط سنة ٢٣٨هـ في عهد المتوكل، فقتلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا البلد، ولم يعرض لهم أحد(١٥).

وفي رسالة بردية إخوانية تذكر أنّ الوالي قد جَنَّد النَّاسَ بالسُّخرة، وأخذ من يعرف فنّ البحر ومن لا يعرف، يقول كاتب الرسالة: « يا با حفص، لو رأيت الناسَ فيه عندنا اليوم من التخليط والسُّخرة، يؤخذ النُّواتية وغير النُّواتية. وكلّ من قَدروا عليه أخذوه»(١٦).

التاريخ الإداري والمالي والفقهيّ

قضايا التاريخ الإداري والمالي والفقهي في البرديات كثيرة جداً، أكتفي


عقد زواج قبطي

بذكر الأمثلة التالية على وجه الاختصار:

- **تعريب الدواوين:**

من أهم القضايا التي عبثت بها الروايات الشعوبية؛ إذ زعمت أن ديوان الخراج في فارس والعراق كان يكتب بالفارسية، وفي مصر باليونانية والقبطية. فجاءت البَرديات لتكشف كذب هذا الادّعاء؛ إذ كانت الرسائل الصادرة عن ديوان الخراج تكتب بالعربية ثُمَّ تترجم إلى اللغات الأخرى(١٧).

- **قضية الجوالي:**

من أهم المسائل الإدارية والمالية التي واجهت الأمويين في مصر قضية الجوالي (أهل الذِّمة). وهي قضيّة شوّهها المستشرقون؛ ولكنّ البرديات فضحت مزاعم المستشرقين؛ إذ بينت البرديات بأدلّة واضحة أنَّ قُرّة كان يعاقب كلَّ مَنْ يعتدي على أهل الذمة

كشفت البَرديات أن الرسائل الصادرة عن ديوان الخراج كانت تكتب بالعربية ـ وليست بالفارسية واليونانية والقبطية ـ ثمَّ تترجم إلى اللغات الأخرى

في تقدير الجزية أو تحصيلها(١٨).

- **ضريبة المَكْس (العشور):**

أسقط قُرّة ضريبة المكس (العشور) عن التُّجّار المتنقلّين في إحدى سنوات المحل حتى لا يحتكروا القمح فيرتفع سعره. فيكون بذلك قد حافظ على سعر القمح، واستفاد التجار قيمة الضريبة التي أُسقطت عنهم.

قال في إحدى البرديات: «فإنّي قد وضعتُ عنهم (عن التُّجار) مكسه، فليبيعوه بالفسطاط، وعَجِّل ذلك، فإنّي خفت غَلا الطعام بالفسطاط وإنّي إذ وضعت للتجار مكسهم أصابوا ربحًا حسنًا»(١٩).

- **تصاريح العمل وجوازات السفر:**

نجد في بَرْدية من عهد الأمير عبيدالله بن الحَبْحاب مؤرخة في سنة ١١٢هـ، تصريحًا لشخص قبطيّ بالعمل في قرية غير قريته لوفاء ما عليه من الجزية ولكسب معاشه. وفي هذا التصريح صفة هذا القبطي كما في جوازات السفر اليوم(٢٠).

الوثائق الفقهية

أمّا الوثائق الفقهية في البرديات، فتقدم لنا صورة دقيقة مُفَصّلة عن المجتمع الإسلامي في عصوره المختلفة، وهي كثيرة ومتنوعة؛ فمنها

عـقـود زواج وطـلاق وإبراء وعـتق ومـعـامـلات تجارية ومـيـراث وشـراء منازل وأراضٍ، وغيـر ذلك ممّا لا نجد تفصيلاً فيه في كتب الفقه على سعتها.

وأكـتـفي بذكـر مثـالين على عـقـود الزواج، أحـدهمـا إسـلامي، والآخـر قـبطي، وممّا يـلاحظ في عـقـود الزواج عدة أمور منها:(٢١)

أ ـ النص على مـقـدار المهر المعـجّل والمؤجّل، وأنّ المؤجّل يُدفع فـي مُـدة مقررة في العقد.

ب ـ من شروط العقد المكتوبة:

ـ شَرْط الزوج لزوجـتـه تقوى الله وحـسن الصحـبـة والمعاشـرة على سنة الله ورسوله.

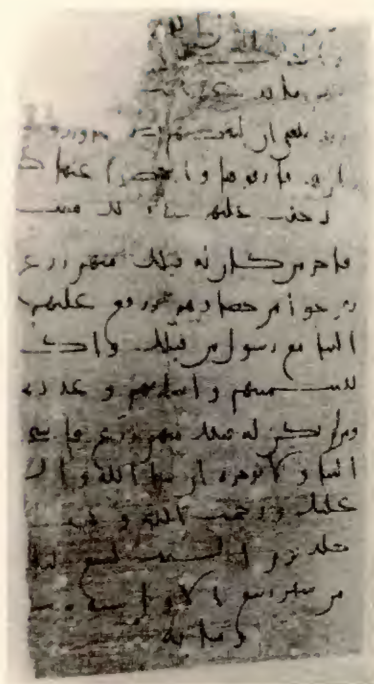
ـ الإمسـاك بالمعـروف أو التسـريح بإحسان.

ـ كلّ امـرأة يتـزوجـهـا الزوج، أو الجـارية التي يملكهـا، يكون أمرها بيد الزوجـة الأولى، فإن شاءت أمسكتـها وإن شاءت طلقتها.

جـ ـ خلـو الزوجـين من مـوانـع الزواج العقلية والبدنية.

د ـ كثـرة الشهود الموقعين في عـقد الزواج؛ فـقد كان عـدد الشـهـود الذين شهدوا على عقد الزواج القبطي حوالي أربعة وخمسين من المسلمين.

وبعد، فـأرجو أن تكون هذه العـجالة قد بيَّنت أهمية البـرديات في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي كتابة منصفة.



رسالة الأمير عبيدالله

المراجع

١ـ انظر حول تعريف نبات البردي وصفته: ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، بولاق، القاهرة، ٨٦/١؛ الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول الغساني، «المعتمد في الأدوية المفردة»، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص٢٠.

٢ـ انظر في أسماء البردي: لسان العرب: حفأ، برد، سرر، غرف، قنصف، سقى.

٣ـ حول اكتشاف أوراق البردي ينظر: نابيا أبوت، برديات قرة، ص ١ـ٢.

و GROHMANN, ARABISCHE PAPYRUSKUNDE, BRILL, 1969, P.61

4- KENYON, F.G, ANCIENT BOOKS AND MODERN DISCOVERIES, CHICAGO, 1927, PP.51-52.

٥ـ ابن خلدون، عبدالرحمن، المقدمة، طبعة كتاب التحرير، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص٣٥.

٦ـ انظر: الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م، ٤٠٩/٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، القاهرة، د.ت، ٢١٧/١ ـ ٢١٨.

7 - GROHMANN, FROM THE WORLD OF ARABIC PAPYRI, CAIRO, 1952, P.124.

8- GROHMANN, ARABIC PAPYRI IN THE EGYPTIAN LIBRARY, CAIRO, 1934, VOL. III, P. 28.

9- BELL, H.I, TRANSLATIONS OF THE GREEK PAPYRI IN BRITISH MUSEUM, DER ISLAM, VOL. II, 1911, P. 276.

10- BECKER, C., PAPYRI SCHOTT - REINHARDT, PP. 76, KHOURY, G.R., CHRESTOMATHIE DE PAPYROLOGIE ARABE, BRILL, 1993, PP. 155 - 158.

11- KHOURY, CHRESTOMATHIE, P.161.

12- BELL, TRANSLATIONS OF GREEK PAPYRI VOL. 2,P.279.

١٣ـ الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف، كتاب: الولاة والقضاة، تحقيق جست GUEST، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص٦٥.

١٤ـ جرومان، أوراق البردي العربية، ١٩/٣ رقم ١٥٠.

١٥ـ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٤، د.ت، ١٩٣/٩ ـ ١٩٥.

16 - DELLA VIDA, ARABIC PAPYRI IN THE UNIVERSITY MUSEUM IN PHILADELPHIA (PENNSYLVANIA), ROMA, 1981, P.129.

١٧ـ انظر التفصيل في بحث: جاسر أبو صفية، «تعريب الدواوين في العصر الأموي ـ دراسة نقدية»، مجلة العقيق، المجلد الثاني، العددان ٣/٤، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ـ ١٩٩٣م، ص٤٩ ـ ٦٨.

١٨ـ انظر التفصيل حول قضية الجوالي في بحث: جاسر أبو صفية، «مشكلة الجوالي في البرديات الأموية»، دراسات، المجلد ٢٤، العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد١،فبراير / شباط ١٩٩٧م، شوال ١٤١٧هـ، ص٦٦ ـ ٧٢.

١٩ـ أوراق البردي العربية، ج٣، ص٨.

٢٠ـ أوراق البردي العربية، ج٣، ص١١٩.

٢١ـ حول عقد الزواج ينظر: KHOURY, R.G., PAPYROLOGISCHE STUDIEN, WIESBADEN, 1995,PP. 7-9.

وحول عقد الزواج القبطي ينظر:

NABIA ABBOTT, ARABIC MARRIAGE CONTRACTS AMONG COPTS, ZDMG, VOL. XCV, PP.61-65.

وانظر حول عقود الزواج: أوراق البردي العربية ج١، ص٧١ ـ ١١٤.

نساء من الجزائر عبر التاريخ بين الواقع والأسطورة

عادلة طالبي

وصلت إلينا حكايات عديدة حول بطولة النساء الجزائريات على مر الزمن، عن طريق روايات شفهية على شكل قصص أو على شكل أناشيد، أو عن طريق مدونات تاريخية. إلا أن تلك الروايات تعرضت لبعض التشويهات فنجد أحيانًا روايات مختلفة لقصة أو نشيد، ومن ثم يصعب علينا تمييز الأحداث الحقيقية ومعرفة أين تبدأ. فنجدها في مختلف أنحاء الجزائر بأسماء مختلفة، وأحيانًا، قد تختلف أحداث القصة من منطقة إلى أخرى أوتتناقض، لكن على ذلك، تبقى مميزات البطلة وأعمالها.كمايصل تشويه أحداث القصة إلى حد أن يغلب عليها الطابع الخرافي، فتتحول إلى ما يشبه الأساطير، ولكن يظل ذلك الاعتزاز الشديد بالبطولات، فتحفظهاالذاكرة، وتتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل.

وفي تاريخ الجزائر منذ القدم وحتى زمن قريب، نجد أسماء نساء في شتى المجالات. فمنذ الكاهنة، وهي أقدم بطلة بربرية فرضت اسمها على الذاكرة، إلى النساء اللواتي شاركن في ثورة التحرير. من الضروري أن تُذكر بعض الأسماء. إلا أننا في مقالنا هذا، اخترنا بعض النساء اللواتي اختلطت قصصهن بالخرافة، لأن تاريخهن لم يُكتب إلا بعد فترة طويلة من الزمن اعتماداً على روايات شفهية أو أناشيد شعبية تذكارية، وقد تكون بعض هذه الشخصيات التاريخية نفسها ـ كما اتضح لنا بعد الدراسة ـ أسطورية، يعني أنها لم تُوجد حقيقة، إلا أن الأجيال اخترعتها واخترعت قصصها ومسيرتها التي يُراد منها «العبرة»، وفي هذه الحال يمكن القول: إن المرأة اختيرت بالذات رمزاً لشيء معين، لحكمة معينة، كما كان الحال في كثير من ملحمات العصور القديمة والروايات المخترعة في المشرق، ففي القصص الشرقية المشهورة «ألف ليلة وليلة»، تحولت شهر زاد شيئًا فشيئًا إلى رمز، ليس رمز عجائب المشرق الساحر فحسب، بل رمزاً للأنوثة، والمعرفة، حتى أصبحت في النهاية إنسانًا خالداً، تختلف طبيعته العجيبة عن طبيعة البشر العاديين.

لكن على أية حال، يبدو أن المرأة أدت في تاريخ الجزائر أدواراً شتى، إذ نجدها في الأساطير والقصص المرأة المذنبة والمعاقبة، أو الناجية تارةً، وتارةً أخرى نجدها المنقذة للآخرين بسبب قوة شخصيتها وشجاعتها وذكائها وحكمتها. فبالنسبة إلى المرأة المذنبة أو الناجية، فغالبًا ما أُشير إلى صخور ورسومات في جميع أنحاء الجزائر جُسدت فيها نساء مجهولات حُوِّلن إلى حجارة. إما بسبب لعنة إلهية لارتكابهن ذنبًا ما، وإمّا لأن الإله أنجاهن بذلك من خطر كن سيتعرضن له. بينما في حالات أخرى رُويت بطولات عن أعمال ومسيرات نساء برزن في عهود معروفة تاريخياً وبذكر أسماء حقيقية أو خرافية.

أساطير التحجير

مثلما هو الحال في بقية بلدان العالم، لا تخلو الجزائر من أساطير التحجير في جميع أنحائها. ففي منطقة القبائل الكبرى، على بعد نحو ٣ أو ٤ كم شمال منطقة دراع الميزان، توجد أحجار معروفة في المنطقة بالرجل الملتحي «بو لحية» واحدة منها تشبه حقيقةً رأس رجل ملتح. ولكن هذه الأحجار سُميت كذلك باسم «العروسة» تذكاراً للحادث المؤلم الذي ذهبت ضحيتها فتاة عروس.

وتقول الرواية المتعلقة بها إنه في ذات يوم، ذهب رجلٌ من عائلة شريفة من جبال الجرجرة بالقبائل الكبرى إلى قبيلة فليسة أم الليل ليأتي بزوجته، وعند رجوعه بها في موكب كبير يتألف من أصدقائه وخادمه، توقف لتناول الطعام في المكان نفسه حيث توجد الأحجار التي نحن بصددها. جلست الزوجة وكانت تحمل ابنها الصغير بين يديها، ثم راحت تنظفه بقطعة من الرغيف، فغضب عليها الإله وحوّلها وكل الأشخاص المرافقين للموكب إلى أحجار، إذ بقي كلّ منهم على الوضع الذي كان عليه عند وقوع الحادثة. وبالطبع إذا شاهدنا هذه الأحجار من ناحية الغرب، يمكننا رؤية

مشهد لامرأة تحمل طفلا على صدرها.

وفي منطقة أخرى في شمال الجزائر تسمى الكف الأخضر يوجد أحد جبال التيتيري، الذي يُلاحظ عليه بقع سوداء، ظهرت نتيجة سيلان مياه الأمطار التي سبَّبت حفراً عميقة فيه، إلى جانب انحلال الحديد الموجود في هذه الصخرة الرملية. مع ذلك، تقول الأسطورة المحلية إن هذه البقع السوداء تمثل جنوداً تحجروا منذ زمن قديم، وكان هؤلاء الجنود تابعين لامرأة بربرية تُدعى خيرة(١)، كانت تسكن الكف الأخضر عند مجيء العرب ونظمت مقاومة ضدهم. ويُقال: إنها أنشأت قرية على الواجهة الشمالية للكف، حيث نجد إلى يومنا هذا آثارها، ومنها «قصر خيرة». وكان القائد العربي الذي احتل هذه المنطقة يُدعى عبدالله، فدبرت خيرة خدعة، وراحت تلون الكف الأخضر باللون الأحمر لكي تجعل عبدالله يعتقد وجود جيش بربري هائل عندما ينظر من بعيد. فتراجع عبد الله عن الهجوم لكنه عندما اكتشف الخديعة قال: «لقد أهنتني (بالرعب الذي سببته لي) يا أيها الكف الأخضر. أدعو الله أن يهين كل سكانك». وهكذا، سخط الله على سكان الكف واستولى العرب على هذه المنطقة.

هذا النوع من الأساطير يعبر عن اللعنة الإلهية، وعلى العقاب والهلاك الأبدي بسبب ارتكاب المرأة خطأ ما. لكن سوف نرى في أساطير أخرى بأنه حتى، في حالة عدم ارتكابها أي خطأ، فإنها تتحول إلى حجرة. وهناك رواية تدل على ذلك؛ فذات يوم في قسنطينة، التقى رجلٌ زنجيٌ وآخر روميٌ بفتاة على ضفة نهر، وكان للرومي حصانٌ، وعند مشاهدة الرجلين للفتاة أسرعا للفوز بها، فأعطاها الرومي حصانه كي تعبر به النهر وحدها، ثم عبر الرجلان النهر وراحا يتصارعان من أجل الفتاة، وانتهى الصراع بمقتل الزنجي، وعندما حاول الرجل الرومي الاعتداء على الفتاة تحولت إلى صخرة بينما تحول الرجلان إلى نهر، ومن ثم نجت الفتاة من الخطر، لكنها مكثت صامتة إلى الأبد.

ونجد مثل هذا النوع من الأساطير حتى في جنوب الجزائر، ففي داخل مدفن بمنطقة زرفوكات التي تقع جوار التازروك بالأهجار، عُثر على حجرتين الأولى سوداء والثانية بيضاء، تمثل الأولى رأس ثور، بينما تمثل الثانية هاوناً عادياً. سُميت هاتان الحجرتان بالتيبرادين (أي الفتيات) بلهجة التماهاك البربرية المحلية. وتقول أسطورة الطوارق المتعلقة بهاتين الحجرتين إن البيضاء تمثل أميرة والسوداء جاريتها، كلتاهما ناجت الإله كي يحولها إلى حجارة لتنجو من الغزاة فاستجاب الإله لدعائها، وبعد مغادرة الغزاة للمنطقة لم ترجعا إلى شكلها الحقيقي.



الذاكرة الحديثة لا تزال تحفظ أساطير الماضي

شخصيات تاريخية بطولية
(من القرن الرابع إلى القرن التاسع عشر الميلادي)
تين هينان(٢) (القرن الرابع أو الخامس الميلادي)

في منطقة أبالسة بالأهجار في جنوب الجزائر، أي على بعد حوالي ٨٠كم غرب ولاية تمنراست، وفي عام ١٩٢٦م عُثر في مدفن TUMULUS على هيكل نسبته الطوارق إلى تين هينان التي تُعرف بأنها كانت ملكتهم الأسطورية، وهذا المدفن يعد نموذجاً فريداً من نوعه في الصحراء الجزائرية، بُني على جبل صغير، جرت فيه تنقيبات أثرية بين ١٩٢٥ - ١٩٣٣م وعُثر بداخله على ١١ غرفة. ففي الغرفة الأولى عُثر على هيكل تين هينان ونُقل إلى متحف باردو في الجزائر العاصمة.

يحيط بمدفن تين هينان ١٤ قبراً من الحجر الأصم، عُثر فيها على هياكل، نُسب أحدها لخادمة تين هينان «تكمات»، بينما نُسبت بقية الهياكل للعبيد. وحسب الأسطورة الشائعة في المنطقة، أصل تين هينان من تافيلالت بالمغرب الأقصى، غادرت هذه المنطقة على ظهر جمل باتجاه الشرق وكانت تصحبها خادمتها تكمات وعدد من العبيد. وخلال سفرهم لم يكفهم التمر لكي يصلوا إلى الأهجار، فالتقطت تكمات بعض الحبوب التي خزنها النمل في مخبئه، ثم وصلوا إلى منطقة أبالسة التي أدت دوراً مهماً في حركة مرور القوافل في العصور الوسطى، وهناك عاشت تين هينان وتوفيت. وحسب روايات الطوارق، كانت تين هينان بربرية مسلمة، إلا أن المدفن الذي دُفنت فيه يعود إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادي، أي المرحلة السابقة لظهور الإسلام.

ويدّعي طوارق «كل رلة» بأنهم من سلالة هذه الملكة البربرية، بينما يدّعي طوارق «داج رالي» بأنهم من خادمتها تكمات.

لكن يبدو أن هناك نقصًا وتناقضًا في هذه الرواية خصوصًا فيما يتعلق بأصل تين هينان وسلالتها وانحدارها. إذ تبين أن تين هينان لم تلد أبدًا وذلك حسب نتائج الدراسات العلمية الإنسانية (الأنثروبولوجية) لحوض هيكلها، ومن جهة أخرى ليس هناك أي دليل علمي بأن هذا الهيكل حقيقة لتين هينان، وهذه الفرضية مبنية على روايات الطوارق. مع ذلك، فقد كانت هذه المرأة ولعدة قرون محور الذاكرة والوجدان لشعب بكامله.

الكاهنة (نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلاديين)

بعد الفتوحات العربية الإسلامية لإفريقية(٣) توجه العرب نحو الغرب، وفي منطقة الأوراس في شمال شرق الجزائر كانت هناك الكاهنة. امرأة بربرية، قيل إنها ملكة الأوراس في شمال شرق الجزائر، مُثلت في الروايات كامرأة فريدة من نوعها، قادت المقاومة البربرية ضد الفتح العربي الإسلامي مباشرة بعد موت كسيلة البربري في سنة ٦٨٦م، الذي كان أول من قاوم العرب في الأوراس.

بعض الشخصيات التاريخية نفسها أسطورية، يعني أنها لم تُوجد حقيقة، إلا أن الأجيال اخترعتها واخترعت قصصها ومسيرتها التي يُراد منها «العبرة»

وكثيرون ـ في الحقيقة ـ هم الذين كتبوا عن هذه المرأة، إلا أن الباحث ر. لوتورنو R. LE TOURNEAU ذكر قائلاً «إن تاريخ (كرونولوجية) الأحداث الزمني غير مؤكد على الإطلاق، لقد مُثل أبطال الرواية على الفور كأشخاص خرافيين تقريبًا... يظهر لنا كسيلة والكاهنة كوجوه أسطورية»(٤). وبالفعل، كان ابن عبدالحكم أول من كتب عن حالة البربر عند الفتوحات الإسلامية في منتصف القرن التاسع الميلادي، وقال عن الروايات الشفهية إنها كانت قد شوهت أو في طريقها إلى التشويه من حين لآخر.

ويذكر مؤلفو كل الكتب التي تحكي تاريخ المغرب العربي الأعمال الباهرة لكسيلة والكاهنة(٥)، معتمدين على مدونات العرب الذين كتبوها في القرن الخامس عشر. وتُعد رواية ابن عبدالحكم، المتوفى بالقاهرة سنة ٨٧١م، الأقدم، وهي الوحيدة التي رُويت مباشرةً وحرفيًا كما يقول و. مارسي(٦) W. MARCAIS. بينما غالبًا ما تُذكر أعمال ابن خلدون الذي كتب في نهاية القرن الرابع عشر، ذلك لتأثيره الساحر ولنقده، ولطريقة استعماله للمصادر، إلا أنه كتب عن هذه الأحداث بعد سبعة قرون من حدوثها. وفي عصرنا هذا لا يزال المؤرخون يكتبون عن الكاهنة مثل ن. روث(٧) N. ROTH، والتونسي م. طالبي.

أ ـ هوية الكاهنة:

كانت الكاهنة من قبيلة الجراوة من فئة الزناتة المرتبطة بقبيلة البتر الرعاة، بينما كانت كسيلة من فئة أوربا المرتبطة بقبيلة البرانس الحضر، ويُعدُّ اسم الكاهنة لقبًا أعطاه المؤرخون العرب لهذه المرأة، ومعناه: المتنبئة التي تدعي معرفة ما سيحدث في المستقبل، أو الساحرة، فعُرفت بهذه الصفة في الروايات الشفهية المغاربية. ولقد كتب ابن خلدون بأن «الشياطين» الآلفين لها كانوا يشاركونها الآراء والنصائح التي كانت تعطيها للآخرين، كما قال إن اسمها الحقيقي كان ديهة أو داهية.

كما برزت لها عدة تسميات عند المؤرخين، فقد كانت تُسمى داهية بنت ماتيا بن تيفان، أو دامية بنت يُنافق أو داهية بنت تاثيت، وربما شُوهت الأسماء، فقد نجد كذلك ديهية(٨) أو دِيه. كما قال م. طالبي، ربما يعني ماتيا ماتياس أو ماتيو، وتيفان تيوفان، وفي هذا الحال يكون أصل الكاهنة إغريقيًا ـ لاتينيًا وهذا ما جعل الكاتب نفسه يقترح بأنه من الممكن أن تكون الكاهنة أحد البرابرة ذوي الدم المختلط، المنحدرين من زواجات مختلطة، وهذا ما قد يفسر حكمها وسيطرتها ليس على البربر فقط، بل حتى على البيزنطيين. ربما هذه الفرضية ليست بعيدة عن الحقيقة بما أنه يُقال إن الكاهنة عزمت على الزواج من رجل إغريقي. وبالفعل، كانت الكاهنة تحكم بربرًا غير مسيحيين وشعوبًا مسيحية (روم وبربر اعتنقوا المسيحية)، وقاوموا العرب جنبًا إلى جنب.

وحسب المصادر، كان للكاهنة ابنان: إيفان ويزديان. ويقول م. طالبي إن من المحتمل جدًا أن تكون هذه الأسماء حقيقية بما أن إيفان اسم بربري محض، واسم يزديان لاتيني، أصله رومي.

إلا أنه استنادًا إلى معلومة ابن خلدون التي قال فيها إن قبيلة الجراوة اعتنقت الديانة اليهودية، استنتج بعضهم أن الكاهنة كانت يهودية أو اعتنقت اليهودية. ومن بين المؤرخين الذين يعتقدون ذلك نذكر ن. سلوش(٩) N. SLOUSCH. وحسب الكاتب نفسه في ٤٨١م عين رجل دين يهودي من الجراوة ملكًا عليها، وتُعد الكاهنة آخر ممثل لهؤلاء المسؤولين ذوي الأصل اليهودي، احتمالا من سلالة أسرة كهنة عظماء هارونيين أتوا من القدس. ويقول الكاتب نفسه بأن «الكاهنة» اسم يهودي أكيد (مؤنث كوهن بالعبرية)، وبأن الكاهن العبري (أي الكوهن) يتنبأ بالمستقبل.

بينما يرى المؤرخ الإسرائيلي هـ. ز. هيرشبرج(١٠) H. Z. HIRSCHBERG وهو مختص في تاريخ يهود شمال إفريقية، خطأً في كتابة الاسم، إذ يعتقد بأن اسم «الكاهنة» غير صحيح وكان يجب أن يُكتب «كاهية»، معتمدًا في ذلك خصوصًا على الشعر التالي المعروف لدى يهود قسنطينة في شمال شرق الجزائر، والذي نقله د. كازس(١١) D. CAZES.

«يا أبناء يشورون
لا تنسوا أسلافكم؛

الكلديون، قيصر، أدريان وكاهية...».

ويضيف المؤرخ نفسه أن حرف «ك» (الذي يُكتب بهذه الطريقة «كـ» في بداية الكلمة) وحرف «د» لا يختلفان الواحد عن الآخر في الكتابة العربية، إذ عند حذف الخط المائل العلوي «كـ» في كتابة مهملة، يُقرأ هذا الحرف «د» ولذلك من الأصح قراءة «داهية» وليس «كاهية»، لأنه يرى أن اسم «الكاهنة» غير موجود على الإطلاق في العبري القديم، إذ ليس هناك مؤنث لكوهن بالعبرية.

وتظهر لنا فرضية هذا المؤرخ مبنية على بيِّنات غير مقنعة، لأنه ليس هناك ما يشير إلى أن المرأة المقصودة في شعر يهود قسنطينة هي الكاهنة بالذات، كما أنه لا يمكننا الاعتماد كلياً على شعر القرن التاسع عشر كمعلومة عن القرن السابع. ثم نود أن ننتقد منهجية هذا المؤرخ، فهو يحاول أن يغير الاسم كله الذي جاء في هذا الشعر، إذ فيما يخص الكتابة المهملة التي أشار إليها (ويبقى هذا مجرد اقتراح يستحيل برهانه ولا يمكن أن نبني افتراضات عليه أو الاعتماد عليه)، تبدو لنا المشكلة غير متعلقة بتغيير حرف واحد في هذا الاسم (أي من «د» إلى «كـ»)، بل في حروف الاسم كله الذي غُيرت حتى نهايته، إذ عوضاً عن «ي» في داهية، نجد «ن» في الكاهنة.

فتبدو لنا مقاييس انتساب الكاهنة إلى اليهود، وهو اسمها وانتسابها إلى قبيلة الجراوة اليهودية، ضعيفة جداً بالنسبة إلى اسمها، ولا ننسى بأنه مجرد لقب أعطاه العرب لهذه المرأة البربرية، كما أنه معروف بأن بعض المدونين العرب شوهوا الأسماء الأجنبية عند تعريبها، فربما «الكاهنة» هي الترجمة العربية لديا dia (وهو مؤنث ديوس dios) بما أنه قيل في بعض المدونات يحتمل أنه كان هذا اسمها، والذي يعني بالرومانية: الربَّانية، الجليلة، القوة الطبيعية. أما انتسابها وحكمها لقبيلة الجراوة التي اعتنقت اليهودية، فهذا مشكوك بصحته أيضاً، إذ كيف نفسر حكمها للبيزنطيين المسيحيين خلال الفترة التي كان هؤلاء هم المسيطرين على شمال إفريقية، بينما لم تكن لليهود أية سلطة فيها.

أخيراً، يقول المالكي إنه في أثناء انصراف الكاهنة أمام حسن بن النعمان (قائد الجيش العربي إلى المغرب)، كان يصحب الكاهنة صنمٌ كبيرٌ من الخشب الذي كانت تعبده وكان يسبقها على جمل. بينما يفترض م. طالبي بأن الصنم كان تمثالاً للمسيح أو للعذراء أو لقديس يحمي القبيلة، كما يعتقد بأنه من المحتمل أن الكاهنة كانت مسيحية، ولم تكن يهودية ولا وثنية.

ب ـ سيرة الكاهنة:

هناك روايات عديدة حول سيرة الكاهنة. بعد وفاة كسيلة، قادت المقاومة البربرية ضد العرب، وقد ذهب م. طالبي إلى أنها دخلت التاريخ وهي أرملة كبيرة في السن بالتأكيد، ويقال إنها عاشت ١٢٧ سنة وكانت ملكة في الأوراس مدة ٣٥ سنة.

وتقول إحدى الروايات إن الكاهنة تزوجت في البدء من قائد طاغية كان يغوي الفتيات فطعنته بخنجر، ويُقال إنها قبل ذلك كانت قد أبعدته عندما كان طامعاً في الزواج منها، وبعد أن أصبح ملكاً تزوجت منه ثم تولت الكاهنة منصب الملكة بعد وفاته(١٢).

بعد انتصار حسن بن النعمان في المرة الأولى في قرطاجة، اتجه إلى الأوراس لمحاربة الكاهنة، وجرت بينهما معركة أولى بالقرب من وادي النيني، فانتصر البربر على العرب، وسُمي وادي النيني بـ «وادي العذارى» لأسباب غير معروفة، كما سُمي بـ «نهر البلاء» ثم بعد فترة وقعت معركة ثانية في جابس بتونس فاضطر العرب إلى الانسحاب خارج إفريقية. وهكذا، توقف حسن في شرق طرابلس بليبيا بأمر من الخليفة عبدالملك. ومن بين الأسرى العرب، يُقال بأن الكاهنة تبنت خالد بن زيد (أو خالد بن خالد) بينما يعتقد المؤرخ ن. روث أن قصة خالد هذه ومثلما رُويت ما هي إلا خرافة للتعبير عن فكرة أن القبائل البربرية (التي اعتنقت اليهودية، ثم المسيحية فالإسلام) انضمت في النهاية إلى العرب تحت ظل الإسلام، وروى المدونون هذا الحادث لتشجيع المصالحة بين أعداء الأمس فقط(١٣).


ارتبطت أساطير كثيرة بأماكن محددة

أمرت الكاهنة بحرق الأراضي لإبعاد العرب. في بعض الأحيان أنكر بعض الباحثين هذا التخريب، بينما بالغ فيه بعض المدونين العرب. ويقول م. طالبي(١٤) في هذا الصدد إنه لم يتجاوز حدود بعض مناطق إفريقية، لكنه على ذلك، كان خطيراً لدرجة أنه أغضب عدداً كبيراً من السكان، فراحوا يطلبون تدخل حسن. وهكذا ساعد الخلاف والشقاق الذي حدث بين البربر على هجوم حسن عليهم.

بعد ذلك رجع حسن مع قواته، واستولى على قرطاجة من جديد سنة ٦٩٨م(١٥)، وكان قبل ذلك قد فرّق جنود الكاهنة في منطقة جابس. ويقول المؤرخون إن الكاهنة في هذه الأثناء نصحت ابنيها إيفان ويزديان بالانحياز إلى العرب واعتناق الإسلام كي يبقى لهم حكم القبائل البربرية، حيث قالت «عن طريقكم، سيحتفظ البربر بالسلطة». يُقال بأن الأسير خالداً كان يخبر إخوانه العرب

عن حالة الكاهنة، وكان يرسل إليهم رسائل (حسب ما يُقال، كان يغرسها في الرغيف)، وذلك ليعلمهم بالوقت الملائم للهجوم.

وهكذا أصبح جنود الكاهنة مُطاردين من قوات حسن، فوقعت معركة بينهم بأسفل جبل كما يذكر ابن عبدالحكم، بينما يقول المالكي إن المعركة حدثت في جنوب الأوراس، أي في المنطقة نفسها التي قتَل فيها كسيلة عقبة بن نافع في سنة ٦٨٣. ويتحدث آخرون عن المعركة جرت في مسرح لجم بتونس، بينما يقول البكري إنها حدثت في قصر يوجد فيه نفق يؤدي إلى البحر، ومن هذا النفق فرت الكاهنة. وفي رأي ن. روث قد تكون هذه الخرافة وهذه المعلومات ما هي «إلا محاولة لإعطاء هوية لأماكن جغرافية»(١٦). ونجد الرأي نفسه فيما يخص هذه المعلومة عند ش. ديهل CH. DIEHL الذي قال «من الأوراس وحتى عشرين مكانًا، أشير فيه إلى المكان حيث هلك آخر حام للاستقلال البربري»(١٧).

إذًا كانت هذه آخر معركة قاضية بالنسبة إلى البربر، إذ أخفقت الكاهنة عند محاولتها اللجوء إلى قلعة بيزنطية ببسكرة، فواصلت طريقها إلى أن اصطدمت بالعرب في طرفة بتونس حسب المالكي، أو طرفلة في شمال طبنة بالأوراس حسب م. طالبي، وهناك قُتلت في سنة ٧٠٠ أو ٧٠١م وقُطع رأسها ونُقل بسرعة على حصان إلى المشرق.

ومع وفاة الكاهنة، انتهت مرحلة المقاومة البربرية المسلحة ضد العرب، وبدأت القبائل البربرية تعتنق الإسلام تدريجيًا بعد توقفها عن محاربة العرب، بل اتحدت بعضها معهم وتعربت، وحافظ الباقي على لغته وتقاليده.

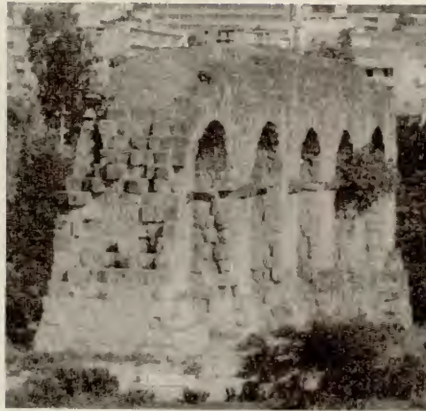
يبدو لنا أن هناك مبالغة كبيرة في رواية الكاهنة حول المناطق التي ذُكرت في النص، وخصوصًا عند محاربتها للعرب في تونس، وعند محاولة فرارها بعد انهزامها في آخر معركة ضدهم. ليس هناك أي دليل أو مقياس لاختيار أو تفضيل مكان أو أماكن معينة من بين تلك التي ذُكرت في النص، لكن يبدو لنا أن نذكر مناطق في تونس خاصة، وهي بعيدة جدًا عن الأوراس بالنسبة إلى تلك المرحلة، وانتصار الكاهنة على العرب بعيدًا عن الأوراس، مبالغ فيها.

وربما لم تقم حروب في هضاب الأوراس العليا التي هي منطقة جبلية معقدة، ومن ثم صعبة بالنسبة إلى العرب الآتين من الصحاري والسهول، والدليل على ذلك أنه لم يسيطر العرب كليًا على المناطق المرتفعة حتى بعد انتصارهم على البربر، لأن هذه المناطق لاتزال تحافظ إلى يومنا هذا على لغتها، وثقافتها وتقاليدها البربرية المحلية مع اعتناقها الإسلام، ولم يختلط سكان المرتفعات بالعرب على عكس سكان السهول. مع ذلك، لا يسوغ هذا ابتعاد الكاهنة وجيوشها من بلاد الأوراس بمسافات بعيدة لمحاربة أعدائها، بل ينفي احتمال لجوئها إلى مناطق سهلية كبسكرة لتنقذ نفسها عندما كان الخلاص أضمن لها في الأوراس. إن وجود الكاهنة تاريخيًا ومحاربتها للعرب أمر مؤكد، لكنه من الضروري أن نكون حذرين في تصديق موضوعية الشعوب وبعض المؤرخين عند ذكر الأحداث، ولا أحد يعرف المراحل الحقيقية لآخر معركة للكاهنة، وما كُتب عنها منذ المرة الأولى ما هو إلا نقل لروايات شفهية محلية، وكان ذلك بعد حوالي نصف قرن من وفاتها.

جازية (القرن الحادي عشر الميلادي)

تُعدُّ جازية إحدى الشخصيات الجزائريات البارزة في سيرة بني هلال. كان لها شعر أسطوري وكانت أخت السلطان الهلالي حسن وزوجة دياب، الراعي والفارس الشجاع الذي غزا تونس.

وصلتنا الرواية التي تتعلق بها من أ. بل (A. BEL) تحت عنوان جازية(١٨)، وهي نشيد بلهجة بني شجران (معسكر) العربية، مؤلف من ٧٨ بيتًا. لقد وصلت إليهم ملحمة جازية عن طريق الروايات الشفهية، حيث سمع أ. بل عنها روايتين ثم ألف عنها نصًا باللغة العربية مع نص آخر مترجم إلى الفرنسية.



تحتفظ الأماكن بأساطيرها وآثارها

يقول النص: أصابت بني هلال مجاعة في المنطقة التي كانوا يقيمون بها، فلجؤوا إلى تونس طالبين الحبوب والكرم أو على الأقل أرضًا يسكنون فيها. إلا أن زعيم المدينة ابن هاشم (المدعو الخليفة الزناتي في أساطير أخرى) شرط عليهم الزواج من جازية زوجة دياب بن غانم مقابل الكرم. توسل الهلاليون إلى جازية لكي تضحي من أجل قبيلتها وكانوا يخشون دياب المرعب، لكن دياب قبل ذلك وطلب بالمقابل ٢٠٠٠ شاب وفتاة من بين شعب القبيلة ثم انصرف بهم.

سُلمت جازية إلى الزعيم ولم تكف عن التفكير في دياب. وبعد مرور وقت ندم الهلاليون على مغادرة دياب لهم، فأرادوا العثور عليه فقرروا الذهاب نحو الجنوب وأخبروا جازية التي رغبت في الالتحاق بهم فدبرت حيلة تتلخص في أنها لاطفت الزعيم وطلبت منه أن يلعب معها الشطرنج مقترحةً أن الخاسر يخلع ملابسه أمام الرابح. في الدور الأول تركته يربح فخلعت ثيابها أمامه لكن بقيت مغطاة بشعرها الأسطوري الرائع. في الدور الثاني ربحت، لكن لم يجرؤ الزعيم على خلع ثيابه أمامها من الخجل، وبالمقابل قال لها اطلبي مني كل ما تريدين، فطلبت منه أن يسمح لها بزيارة أقاربها ثم ترجع إلى القصر. فذهبا معًا باتجاه الهلاليين الذين لم يكونوا مقيمين بعيدًا، ويومًا بعد يوم كان هؤلاء يأخذون الزعيم إلى الصيد ويبتعدون بهذه الطريقة من مكان إقامتهم حتى لا يلاحظ الزعيم شيئًا. لكن بعد مرور

أربعين يوماً اكتشف الزعيم حيلة جازية والهلاليين، فرجع إلى تونس وحده تاركًا جازية مع قبيلتها، مع ذلك هيأ نفسه لإرجاعها بمساعدة جنوده.

وبعد فترة هجم الزعيم على بني هلال في غياب دياب وأخذ جازية، إلا أنها أخّرت سير جنود الزعيم بترك شعرها الطويل يتمسك بالشوك، فظهر فرسان دياب فجأةً وقضوا على الجيش كله، بينما أبقوا على حياة الزعيم الذي رجع إلى تونس حيث توفي حزناً.

نساء تلمسان (القرن الثالث عشر الميلادي)

عرفت تلمسان مركزين كبيرين في عهد بني عبد الوادي(١٩)، وحتى في هذه الفترة اختلطت الأسطورة بالتاريخ (أي الخرافة بالحقيقة) لدرجة تغيير جزء من تاريخ هذه المدينة.

يُقال في مجال الأسطورة إنه كان هناك زنجي يتولى أمور مكناس في المغرب الأقصى. تجادل ابن هذا السلطان، مع والده ثم خشيةً منه لجأ إلى تلمسان ووجد الكرم هناك. فاتجه السلطان إلى هذه المدينة طالبًا ابنه، لكن التلمسانيين رفضوا هذا الالتماس، فحاصر السلطان المدينة وأسّس فيها المنصورة مدينة له، ونوى تجويع سكان تلمسان وتحويل معيشتهم إلى بؤس. وعند شعور تلمسان بنهاية طاقتها وقدرتها، دبرت امرأة عجوز من هذه المدينة حيلة: أمرت بجمع الحبوب القليلة من هنا وهناك لإطعام عجل صغير ونحيف، وعندما صار هذا العجل سميناً صرفوه إلى مركز السلطان الزنجي حيث أُصيب بسهم وقُتل. وعند تنفيذ الأمر لذبح الحيوان، وجدوا الحبوب في معدته، فتفاجأ السلطان بأنه بعد مرور سنين منذ إقامتهم في هذه المنطقة، لاتزال تلمسان تملك كثيراً من الحبوب لدرجة أنها تطعم حيواناتها منها، لذلك جمع السلطان في اليوم التالي كل جنوده ورجع بهم إلى الغرب.

يدّعي طوارق «كل رلة» بأنهم من سلالة الملكة البربرية تين هينان، بينما يدّعي طوارق «داج رالي» بأنهم من خادمتها تكمات

بينما نعرف في مجال التاريخ أن حصار تلمسان من حاكم من سلالة بربرية آتية من المغرب وتأسيسه لمدينة المنصورة في غربها، حقيقة تاريخية. وتُدعى هذه السلالة بني مرين، حكمت في المغرب مدة ثلاثة قرون تقريباً (من ١١٩٥ إلى ١٤٦٨م)، أسسها عبدالحق المريني على أنقاض دولة الموحدين. أحد أحفاده، يوسف بن يعقوب الذي كان خامس سلاطين بني مرين في المغرب، قضى أيام ملكه في الحروب وقمع الثورات، فحاصر تلمسان التي كانت آنذاك عاصمة بني زيان حصاراً طويلاً وأنشأ فيها مدينة المنصورة مقراً له، وأحاطها بأسوار. واغتال هذا السلطان أحد مماليكه وبمصرعه كان خلاص تلمسان من محنتها.

أم هاني بنت رجب باي (نهاية القرن السابع عشر، بداية القرن الثامن عشر الميلادي)

في أواخر القرن السابع عشر أي خلال قيام الدول العثمانية، زوّج رجب، باي قسنطينة، ابنته أم هاني إلى المسمى الجيدوم من عائلة دواودة، آملاً أن يصبح هؤلاء البدو المشاغبون تابعين له، وحدث ذلك في سنة ١٦٧٢م(٢٠).

وقيل إنه كانت لأم هاني (وهي من أم إسبانية) شخصية قوية، وكانت نشيطة جداً. وقد التقى بها الرحالة بيسونيل (Peysonnel) في سنة ١٧٢٤م (أي بعد زمن طويل، إذ كانت كبيرة في السن)، وتفاجأ بعزتها، إذ إنها كانت محترمة جداً من البدو.

بعد وفاة زوجها الجيدوم، تزوجت أم هاني من أخيه أحمد بن صخري الذي كان كبيراً في السن. وبعد فترة، فقد رجب باي سلطته فلجأ ابنه وأخته إلى أم هاني في شمال الصحراء، حيث كانت تعيش مع الدواودة. كان لأم هاني سلطة كبيرة على القبيلة، لذلك جعلت الآخرين يغارون منها. ولعدم استطاعتهم محاربتها مباشرةً، قتل هؤلاء أخاها خلال عملية صيد في منطقة تقع بين بسكرة وسيدي عقبة، فقررت أم هاني الانتقام لأخيها، فقتلت زوجها أحمد بن صخري وأقاربه ومؤيديه. وهكذا استولت على قيادة قبيلتها من زاب إلى بوسعادة، واعترفت قبائل الهضاب العليا بهذه السلطة. ومنذ ذلك الحين أصبحت أم هاني تقود جنودها إلى المعارك، راكبةً بغلة وحاملةً عوداً كسلاح.

كان سكان دواودة متحالفين مع سلاطنة تغورت، لذلك بعد الانتقام الأول انقلبت أم هاني ضد هؤلاء السلاطين، فجذبت سليمان، سلطان تغورت، إلى حفل وقضت عليه، وبعدها مشت في الواحة وتحدت محمد بن سليمان في أرض مكشوفة، فقتلته ودخلت تغورت حيث عهدت بالحكم إلى محمد الأكحل من قبيلة بن جلاب من تغورت.

مع ذلك استطاع فرحات ابن ابن صخري الذي قتلته أم هاني، أن ينجو من الدمار الذي حدث ضد أقاربه، فجمّع مؤيديه وكل الحاقدين على أم هاني وبدأ معاركه ضدها إلى أن انتصر عليها. وخلال هذه المعارك قُتل أبناء أم هاني الأربعة واعترفت هذه بانهزامها، وهكذا استولى فرحات على حكم القبيلة ولجأت أم هاني إلى العلمة بقرب من سطيف حيث التقى بها بيسونيل(٢١).

علجية بنت بوعزيز من الحنشة (القرن الثامن عشر الميلادي)

في شمال شرق الجزائر بين قسنطينة وعنابة وسوق أهراس وباتجاه تبسة، كان يقيم الحنشة على رأسهم الشيخ الكبير بوعزيز بن ناصر(٢٢). وكان هؤلاء يعتقدون أنفسهم أقوياء لدرجة أن بإمكانهم أن يبعدوا أية سيطرة أجنبية، إلا أن الأتراك تغلبوا عليهم. بعد ذلك قرر بايات قسنطينة وتونس العاصمة القضاء عليهم. وهكذا، هجموا عليهم فجأةً في عام ١٧٢٤م مع أنهم كانوا يعلمون أن للشيخ بوعزيز ٨٠٠٠ فارس بإمكانهم مواجهة العدو، وفي الأخير كانت المعركة

لصالح باي قسنطينة (حسين) الذي قرر فيما بعد السيطرة على الشيخ. فراح خليفة الباي باتجاه الحنشة، وعندما حاول الشيخ تجنيد رجاله لمواجهة العدو ثانيةً كان هؤلاء يائسين بسبب الانهزام الأول، وهنا بدأ دور ابنة الشيخ علجية.

ارتدت علجية أجمل ثيابها، وركبت حصاناً ونادت كل نساء وفتيات قبيلتها اللواتي استجبن وركبن أحصنة، ثم حدثتهن قائلة: «بما أنه ليس لهؤلاء الرجال الشجاعة لمحاربة الأتراك الذين سيأتون لاغتصابنا أمام عيونهم، لنذهب نحن ولنبع حياتنا وشرفنا غالياً ولا نبقى مع هؤلاء الجبناء»، ثم كشفت عن صدرها وصرخت للرجال: «يا أبناء ناصر! من منكم يريد المص من هذا الحليب فما عليه إلا أن يتبعني!». شعر رجال الحنشة بالخجل الشديد الذي جعلهم يهجمون بحماسة على الأتراك ويدفعونهم بعنف، فتمكنوا من استرجاع جزء من الغنم الذي كان قد أُخذ منهم ثم سجنوا الخليفة، وهكذا تم انتصارهم على الأتراك.

بعد أكثر من قرن من هذا الحادث، نقل ش. فيرو (Ch. Feraud) نشيداً تذكارياً له في سوق أهراس، وهذا جزءٌ منه:

"يا أيها الحاضرون، اسمعوا إلى قصة حادث جرى قديماً مع الأتراك المختالين، واحسرتاه!

عند طلوع النهار تأثر شبان نبلاء: يا أيها السامعون! كل ولاتنا فنوا بسبب الخيانة.

(...) أبناء الأحرار، في المعركة، يشبهون شياطين هائجين: ضد الحظ السيئ، يتقدمون ثانيةً إلى الأمام كما إلى التسلية».

عايشوناش الجلابية (القرن التاسع عشر الميلادي)

كان بنو جلاب، سلاطين تغورت، محور الدراسات المعروفة لـ ش. فيروا، كما كتب عنهم مجالي - بوازار (Magali-Boisard) روايةً تحت عنوان: سلاطين تغورت (١٩٣٣م)، وذكرهم اللواء الفرنسي دوما (Daumas) في كتابه: «الصحراء الجزائرية» (١٨٤٥م).

يُلاحظ من خلال هذه المدونات وجود أنثوي. لم تكن هؤلاء النساء حتماً محاربات، مع ذلك حكمت إحداهن وحدها مدة ثماني عشرة سنة. وحسب الأسطورة التي تتعلق بها(٢٣)، كانت أُسرة بن جلاب (وهم أبناء العم) متنافسين، يحكم بعضهم تغورت وبعضهم الآخر يحكم تيماسين، وكانت عايشوناش بنت أمير تيماسين رائعة الجمال لدرجة أن أمير تغورت أُغرم بها، لكن عندما طلب أمير تغورت القرب منها رفض والدها أن يعطيه إياها لأنه كان يتمنى لها من هو أحسن منه، وفي ظنه في الوقت نفسه أنه ليس لتغورت جمال تيماسين. فأحس أمير تغورت بالإهانة وأقسم بأن يرد على ما أسماه بالشتيمة. فجمّع رجاله، وذهبوا في ليلة باتجاه تيماسين وفاجؤوهم بمعركة لم تدم طويلاً، فانتصروا عليهم ورجعوا إلى تغورت مختطفين عايشوناش التي أصبحت، من ثم، لأمير تغورت.

حاول أمير تغورت أن يرضيها ووعدها بكل ما تطلبه منه، فقالت: «أريد أن أرى والدي حتى يغفر لي، لأنه بمجرد أنني قبلت بحبك فإنني أشعر بالذنب». قبل الأمير طلبها وأرسل أناساً إلى تيماسين للتفاوض مع أميرها وكانت النتيجة أنه لا أحد من الأميرين كان يثق بالثاني. لكن في الأخير قبل أمير تيماسين أمير تغورت صهراً واستعد لزيارة ابنته بشرط أن يُقيم في قصر أمير تغورت، ولم يكن ذلك مستحيلاً إذا قُسم القصر قسمين وأُعطي قسم لوالد عايشوناش.

وافق أمير تغورت على هذا الحل. فاختارت عايشوناش الجانب من القصر الذي تبقى فيه، ثم طلبت من خاطفها أن ينسحب كي تحضر الكسكس(٢٤) لوالدها، وفي كل يوم ترسل له طبقاً منه في قفة مع خادميها.

وللمرة الثانية قبل الأمير طلبها، فخطرت لعايشوناش حيلة: ملأت نصف القفة بمسحوق البارود حيث المخزن كان في النصف الثاني من القصر الذي اختارته عايشوناش، وعلى هذا المسحوق حفنات من الكسكس. ولعدم صبره، سألها الأمير متى ستتوقف عن إرسال الطعام لوالدها، لكنها طمأنته قائلةً إنه آخر يوم، وطلبت أن تكتب لوالدها في اليوم نفسه لكي يأتي لزيارتها. ذهب أمير تيماسين في المساء باتجاه الشمال ومعه جنوده، فلم يكن لجنود تغورت إلا الخناجر لأن مسحوق البارود كان قد أخذه المهاجمون، وهكذا انتصر أمير تيماسين ورجاله، وحكمت عايشوناش تغورت مدة ثماني عشرة سنة.

الهوامش

١- لم تحفظ الأسطورة الاسم البربري لهذه المرأة.

2 - G. Camps 1965, pp. 65-83; M. Gast, 1973, pp. 395-400 & 1986, pp. 283-284; E.F. Gautier & M. Reygasse, 1934; S. Hachi, 1983, pp. 65-71. H. Lhote, 1984a & 1984b; M. Reygasse, 1950.

٣- إفريقية هو اسم أطلقه العرب على بلاد البربر الشرقية، أما الغربية فسميت بالمغرب.

4 - p. 125. 1956.

5- Ch. Diehl (1896). E.F. Gautier (1952), Ch. A. Julien1952), G. Marcais (1946), E. Mercier (1891), etc...

6- 1931, p. 150.

7- 1982, pp. 122-125.

٨- اسم ديهية لايزال يُستعمل إلى يومنا هذا عند بربر منطقة القبائل.

9 - pp. 573-583, 1909.

10- 1974, pp. 88-97.

11- D. Cazes, 1888, p. 46.

12- O. Keun, 1919, p. 24 & H. Stora-Sudaka, 1928-1929, p. 232.

13- N. Roth, op. cit. p. 124.

14- M. Talbi, 1971, p. 441.

١٥- التاريخ الوحيد الصحيح في رواية الكاهنة، إذ في سنة ٦٩٧ استرجع البيزنطيون قرطاجة، وفي سنة ٦٩٨ استولى عليها العرب ثانيةً ونهائياً.

16 - p. 124. 1982.

17- 1896, p. 586.

18- 1903.

١٩- بنو عبد الوادي (أبو بنو زيان) هم سلالة بربرية من الزناتة حكمت في الجزائر بين ١٢٣٦ و١٥٥٠. أسسها يغمراسن بن زيّان في تلمسان، حالفوا الموحدين، قضى عليهم الإسبان والأتراك.

20 - E. Mercier, 1891, pp. 284-285 & 1895, pp. 129-131 & 1908, pp. 248-249.

21- Ch. Feraud, 1882, pp. 373-374.

22- Ch. Feraud, 1874, pp. 212-221.

23- A. Sadouillet, 1954, pp. 59-62.

٢٤- الكسكس هو نوع من الطعام في المغرب العربي.

مقالة

الصمت فضيلة

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الصمت فضيلة، دأب الحكماء والعلماء، والأسوياء من الناس على وصفه بهذه الصفة، وحرصوا كذلك على الاتصاف بها، وحث الناس على التخلق بهذا الخلق، لفوائده التي لا تكاد تحصر، ومزاياه التي لا تكاد تعد.

والصمت المطبق محمود، ولا يحمد خلافه إلا لعاقل يزن الكلام، سليم الفكر، مأمون القول، وراء نطقه جلب منفعة، أو دفع مضرة. وأولى فوائد الصمت قلة سقط الكلام، والسلامة من زلات اللسان، وما يضفيه التزام الصمت من الهيبة والوقار، وما يحيط به صاحبه من الغموض المحبب، وما يأتي له به من اعتبار كسبه بهذا الصمت، الذي ستر عيباً، وحجب نقصاً، وحمى صاحبه من أن يسقط من أعين الناس، أو أن يزدروه، فكم من صامت أعطي وزنه لمظهره، تقديراً وتبجيلاً، وكم من صامت كُرِّم وقُدِّم، لهيئته وبنية جسمه، وهو لا يستحق من ذلك قطميراً، وكم من متكلم صُفع على قفاه وأخرج من المجلس؛ لأن كلامه فضح مظهره وهيئته، وأساء لحق نفسه، ولحق الآخرين.

والنطق له قواعد دقيقة تحكمه، أما الصمت فلا يكاد يكون له قواعد، فالإنسان فيه يطبق شفتيه فلا يدري الناس ما وراءهما، فإذا تكلم عرفه من لم يعرفه، ووزنه بمثاقيل ناقدة، ومعايير قاسية؛ لأن للحديث عند الناس قيوداً، وسلاسل وأغلالاً، فالقيود على جوانبه تحميه من أن يخرج عن طريق الصواب، والسلاسل تحكمه عن أن يربع من دون ضابط أو لجام؛ ومن حدود النطق وسلاسل القول وأغلاله، ألا يسبق القول الفكر، وألا تزيد الكلمات على الإبانة، وأن تكون الكلمات خادمة مطيعة للمعاني، سائرة في ركابها، متحصنة بحصنها، لا تتعداها إلى غيرها، ولا تقصر دونها، لابسة أبهى لباس، ومتدثرة بأجمل برد، تشد السامع ولا تنفره، تهديه ولا تضلله.

وشروط نجاح الكلمة لا تكمل إلا بحسن وقع نبرتها ودقة مؤداها، ووضوح نطقها، وبيان صيغتها وحسن اختيارها؛ فإذا تساعدت هذه الأمور، وتساندت أتى التعبير وافياً بالهدف، مصيباً للغرض، مملوءاً بالفائدة، مفعماً بالنفع؛ وإلا كان القول ناقص الفائدة، أو زائداً على الحد، مملاً، فيكون مرفوضاً، والصمت خير منه؛ وأخف على السامع نفقة، لأنه أخل بشروط القول القاسية، ولأن الصمت صندوق مقفل، لا يعرف أحد ما بداخله، ولو حاول أحد أن يحتال عليه باستقراء ملامح الوجه، أو استنطاقها، أو بتفسير حركة اليدين، أو رصد مشي الرجلين، لعاد بخفي حنين، فالجوارح نادراً ما تبدي المكنون، أو تكشف المضمون؛ وعلى هذا يبقي الصمت صاحبه لغزاً غير مفسر، وسراً مبهماً.

والحياة، ودروبها، ملأى بالصامتين، الذين جملهم الصمت، وعاد عليهم بالمدح، وبالناطقين الذين فضحهم النطق، وعاد عليهم بالذم، فكسب أولئك بالصمت، وخسر أولئك بالنطق، ومن عاش، وطال عمره، وامتد به زمانه، لابد أن يرى نماذج من هؤلاء الناس، من صمت فلم يُعرف، ومن نطق فعُرف، ولو سجِّل ما يمر بالناس من ذلك، لملأ أسفاراً ومجلدات، وقد اعتنى آباؤنا بهذا وأمثاله فقيدوا أوابد جذابة منه، فجاؤوا بالطريف الممتع، المضمَّن مواعظ وعبراً، تكشف عن بعض جوانب المجتمع، وسوف نقتطف من هذه المدونات مثلاً أو مثلين، لنرى صورة مما رسموه، ومظهراً مما سجلوه.

«حكى ابن عائشة:

«أن شاباً كان يجالس الأحنف، ويطيل الصمت، فأعجب ذلك الأحنف، فخلت الحلقة يوماً، فقال له الأحنف:

تكلم، يا ابن أخي.

فقال:

يا عم، أرأيت لو أن رجلاً سقط من شرف هذا المسجد، هل كان يضره شيء؟

فقال:

يا ابن أخي، ليتنا تركناك مستوراً.

ثم تمثل الأحنف بقول الأعور الشَّنِّي:

وكائن ترى من صامتٍ لكَ معجبٍ ... زيادتُهُ أو نقصُهُ في التكلم

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدم

وكالذي حكي عن أبي يوسف الفقيه:

أن رجلاً كان يجلس إليه، فيطيل الصمت،

فقال له أبو يوسف:

ألا تسأل:

قال:

بلى، متى يفطر الصائم؟

قال: إذا غربت الشمس.

قال: فإن لم تغرب إلى نصف الليل؟

قال: فتبسم أبو يوسف ـ رحمه الله ـ وتمثل ببيتي الخطفى، جدّ جرير:

عجبتُ لإزراء العَيِيِّ بنفسه ... وصمتِ الذي قد كان بالقولِ أعلما

وفي الصمتِ سترٌ للعَيِيِّ وإنما ... صحيفةُ لبِّ المرءِ أن يتكلما

(أدب الدنيا والدين: ٢٨٤)

السينما أسطورة القرن العشرين

سعيد الناجي

كانت أفلام الأخوة لوميير LUMIERES تعرض بالعاصمة الفرنسية باريس في سنة ١٨٩٥م. ويرجع المؤرخون ظهور فن الصور المتحركة (السينما)، الذي أصبح فنا جماهيريًا لا حدود له بدءًا من أواسط القرن العشرين، إلى تلك السنة.



(لوريل وهاردي) نموذج لما تمثله السينما من تصوير للعلاقات الاجتماعية

والاتفاق الذي وقع حول سنة ظهور السينما لم يشمل مكان الظهور؛ إذ اتجهت بعض الكتابات، خصوصًا الألمانية منها إلى الإشارة إلى أن أول عرض للأفلام كان في السنة نفسها، في برلين. وهي في أغلبها أفلام كانت تصور مشاهد واقعية مأخوذة من حركة الناس في الشارع. وسواء أظهرت السينما في فرنسا أم في ألمانيا، فإنها كانت عنوانا يؤكد أن الصورة أصبحت مكونًا أساسيًا من مكونات المجتمعات الحديثة، وفنًا جديدًا استفاد من تبلور فنون التشكيل والتصوير (الفوتوغرافيا) والسرد، واستثمر عطاءات التقنية (التكنولوجيا)، ليحدث تحولات جذرية في بعض الفنون كالرسم والمسرح بسبب التباسه بهما، لينتقل إلى أن يصبح فنًا يصرف القيم التربوية لمجتمعات الاستهلاك الحديثة.

وقد ظهرت السينما تتويجًا لثلاثة عوامل على الأقل:

الأول: ظهور الصورة الفوتوغرافية في بداية القرن التاسع عشر (١٨٢٢م) بوصفها تتويجًا لواقعية الرسم وأمانته في نقل المشاهد الخارجية بفضل إتقان تقنية المنظورية PERSPECTIVE التي اكتشفها رسامو إيطاليا خلال القرن الخامس عشر، والتي أتاحت امتلاك القواعد التطبيقية لإيجاد الإيهام بالعمق في اللوحة التشكيلية، وذلك قاد الرسم إلى أن ينجح في التصوير الدقيق والأمين للمشاهد الواقعية، كما ظهر مع اتجاه الباروك BA-ROQUE في الرسم، وإضافة إلى تقنية المنظورية، فإن الرسم التنقيطي كان يقرب اللوحات التي تعتمد على تقسيم الألوان عبر التقريب بين نقاط متعددة الألوان، إذ كان يقرب الرسم من التصوير الفوتوغرافي الذي استند على تقنية النقط نفسها.



أهمية الصورة فجرت أسئلة كثيرة في محيط الفنون

ولم تكن الصورة الفوتوغرافية إلا إلحاقًا علميًا لواقعية الرسم واتجاهه التنقيطي -POINTIL LISTE بالإمكانية التقانية التي أنتجت آلة التصوير.

الثاني: تطور الرواية وطرائق السرد التي وصلت هي الأخرى، بحثًا عن الواقعية، إلى درجة من الدقة والوفاء للمرجع الخارجي. كان ذلك هو المبدأ الذي أطر الرواية التجريبية، خصوصًا مع إميل زولا ZOLA الذي يقول عن تصوره للرواية: «ينطلق الروائي بحثًا عن حقيقة.. وعلى العموم، فإن العملية تفترض أن تأخذ الوقائع من الطبيعة، وأن ندرس آليات اشتغالها، وأن نؤثر فيها بإجراء تغييرات على ظروفها وأوساطها من دون أن نبتعد عن قوانين الطبيعة»(١).

يشير هذا النص إلى تصور خاص للسرد الروائي يجعله ملاحقًا للطبيعة والواقع الخارجي، دارسًا له دراسة مجهرية علمية. وقد تبلور هذا التصور بناء على تقدم العلوم الدقيقة في أوربا خلال القرن التاسع عشر.ومن خلال استثمار التطور (التكنولوجي) وبخاصة عامل ظهور الإضاءة الكهربائية، أصبحت السينما سردًا للرواية بلغة أخرى وبإيقاع آخر.

الثالث: مبدأ السرعة الذي أصبح ناظمًا لمعطيات المجتمع الصناعي. ذلك أن السينما أصبحت بصيغة أو بأخرى، ناقلة لهذا المبدأ من السياق الإنتاجي والصناعي إلى سياق التداول الفني، وبهذا نفهم أن السينما كانت:

أ- تسريعًا لتعاقبات الصورة الفوتوغرافية، فهي تتابع لصور متعددة ومتلاحقة.

ب- تسريعًا للوحدات السردية ولتعاقباتها بما يختلف مع تعاقبات الرواية البطيئة.

وعلينا أن نفهم من هذا المبدأ تأثر الفنون بالتطور (التكنولوجي) وظهور تقنيات الإضاءة والتمويج وضبط الأصوات. كان هذا التأثر ملمحًا حديثًا يبرز مدى التحولات التي عرفتها الفنون والأجناس الأدبية بسبب التحولات (التكنولوجية)، كما يبرز كيف استطاعت بعض الفنون كالرسم والسرد أن تتطور وفق قوانين معينة (الواقعية) إلى درجة انتهائها إلى استثمار الإمكانات (التكنولوجية) المنسجمة مع ذلك التطور: آلة التصوير بالنسبة إلى الرسم الواقعي و(الكاميرا) بالنسبة إلى الرواية الواقعية.

يشير جان فرانسو ليوتارد J.F. LYOTARD في حديثه عن الوضع ما بعد الحداثة إلى هذا التطور الذي حدث خلال الانتقال إلى السينما والتصوير الضوئي (الفوتوغرافيا): «فالتصوير الفوتوغرافي لم يظهر بوصفه تحديًا للتصوير من الخارج، بأكثر مما ظهرت السينما الصناعية بالنسبة إلى الأدب السردي. فالتصوير الفوتوغرافي كان يضع اللمسة الأخيرة فقط في برنامج ترتيب المرئي الذي طورته فنون القرن الخامس عشر الإيطالية، بينما كانت السينما آخر خطوة في التأليف بين التعقبات بوصفها كليات عضوية، وهو الأمر الذي كان يمثل المثل الأعلى لروايات التعلم العظيمة منذ القرن الثامن عشر»(٢).

وبهذا، إذا كانت السينما تتويجًا لتبلور فنون وتكنولوجيا وإيقاع تداول الرموز والنصوص والعلامات، فإنها كانت مفجرة لكثير من الأسئلة في الكثير من الفنون ومجالات المعرفة. وبمعنى آخر، فإن هيمنة الصورة على التداول الثقافي، ووصول الواقعية إلى منتهاها قد فجرا أسئلة الإبداع والتجاوز والمغايرة في فنون اللغة وفنون الفرجة(٣).

التطلع إلى المسرح

فتعدد مدارس الفن والشعر والنقد في بداية القرن العشرين كان جوابا عن تلك الأسئلة التي فجرها التطور التكنولوجي الحداثي الذي اخترق الفنون: صورة فوتوغرافية وسينما ولواحقهما فيما بعد. وبدا وكأن كل فن قد أصابته حمى التجديد والتحول، وأضحت التبادلات بين الفنون ناظمة لسيرورة الإبداع؛ وبدأنا نلمس إفرازات مشروع الحداثة، الذي انطلق منذ عصر التنوير، وتأثيراته في الفنون والعلوم وباقي مجالات الحياة في المجتمع الغربي.


اميل زولا

وهكذا بدأ التجديد في المسرح بافتتاح أنطوان ANTOINE المسرح الحر THEATRE LI-BRE بباريس سنة ١٨٨٧م معلنًا عن بداية عهد المخرجين، وعن بروز مهارة جديدة هي فعالية المخرج المسرحي الذي لم يعد يكتفي بنقل النص المسرحي إلى الخشبة بأمانة تامة، ولكنه يحرص على الإبداع والتدخل بإحساسه ومهاراته ليقدم عرضاً مسرحيًا فيه النص المسرحي، وفيه إبداع وثراء آخرين.. وكان من الطبيعي أن يستند المخرج المسرحي في مشروعه هذا إلى المهارات الفنية الأخرى كالتمثيل والسينوغرافيا (المحاكاة) وهندسة الصوت والخشبة والإضاءة وفن الملابس والتزين (الماكياج).. لقد صعدت كل هذه الفنون والمهارات مع صعود المخرج المسرحي؛ وانخرط المسرح في البحث عن خصوصياته ومميزاته بالموازنة مع الفنون الأخرى، خصوصاً أمام السينما التي التبست به «وسرقت» الكثير من تقنياته وأدواته. من هنا انطلق مشروع البحث عن التمسرح THEA-TRALITE أي عما يجعل من المسرح مسرحاً ويضمن تفرده أمام الفنون الأخرى.

التحديث في الإبداع أمام صعود سلطة الصورة

واستمرت حمى التحديث تعدي كل الفنون، فظهرت التكعيبية في الرسم في أعقاب الانطباعية والتأثرية والرمزية، وكان للمعرض الذي نظمه براك BRAQUE سنة ١٩٠٨م صدى انفجاري انتهى بظهور المكعبات في الرسم، وببروز فنانين كبار مثل بيكاسو وكريس GRIS وغيرهما.. وكانت التكعيبية بحق ثورة عميقة في الفن التشكيلي غيرت من مفاهيم إدراك المساحة والأشكال وقوانين الترابط والتجاور والتراكب.. وشارك بيكاسو في عدد من الأعمال المسرحية: مهندس ديكور ومصمم ملابس وفنانًا تشكيليًا يسهم في بناء العرض المسرحي(٤). وتكاثرت المدارس والاتجاهات جوابا عن سؤال التحديث في الإبداع أمام صعود سلطة الصورة وتقدم وسائط الاتصال وتداول المعرفة؛ فظهرت الحركة المستقبلية FUTURIS-ME في الشعر بإيطاليا، وسرعان ما انتقلت إلى الرسم، وإلى روسيا حيث اجتمع عدد من الشعراء والرسامين المستقبليين الذين بفضل إنجازاتهم تبلور الاتجاه الشكلاني في النقد. وفي سويسرا كانت قصائد تريستان تزارا TRISTAN TZARA تعلن عن ميلاد الدادائية DADAIS-ME، المدرسة التي أخضعت الشعر إلى مبدأين: الفوضى والمصادفة، وكانت رسومات جون آرب JHON ARP توضح وتشرح قصائد تزارا اللاهبة، التي قادت بعد وقت قصير إلى ظهور السريالية في الشعر وفي الرسم وفي فنون أخرى.. وكان سالفادور دالي رائدها بامتياز. فتعددت المدارس والاتجاهات، وكان هذا التعدد هو السياق الذي ظهرت فيه السينما بوصفها فن الصورة وفن السرعة.. وبسبب ظهورها هذا كانت هذه الحركية في الفنون.

فإذا كانت السينما تتويجًا لتطور تكنولوجي وثقافي، فإنها كانت إيذانًا بتطورات لاحقة، وبمجتمع تهيمن عليه الصورة ووسائط الاتصال والتواصل. لقد أصبح المجتمع استهلاكيًا إلى أقصى حد، تجاوز إنجازات الحداثة، وأخضع كل الحاجات والثروات إلى قيم الاستهلاك وجدلية العرض والطلب حتى أضحى المجتمع سوقًا كبيرة.

مجتمع الاستعراض

وبفضل تطور وسائل الاتصال وأنظمة تخزين المعرفة وآليات تداول المعطيات والمعلومات بسبب تبلور مفهوم الشاشة الذي أضحى ناظمًا للعلاقات الاقتصادية الاجتماعية، انتقل المجتمع إلى مرحلة ما بعد الصناعية التي تتميز بهيمنة الاستعراض SPECTACLE والظهور من جهة، وبتطور طرائق تنظيم المعرفة والمعلومات من خلال الحاسب والسيبرنيتيك والتيليماتيك..

يعرف كي ديبور GUY DE-BORD مجتمع الاستعراض بأنه المجتمع الذي «تقدم الحياة نفسها بكاملها على أنها تراكم هائل من الاستعراضات. كل ما كان يعاش على نحو مباشر يتباعد متحولاً إلى تمثيل REP-RESENTATION»(٥).

إن الاستعراض يسلب من السلعة طابعها الاستعمالي ويؤسس علاقة المستهلك بها على الصورة أو التبدي، مما يحيل المعيش إلى تمثيل، ذلك أن الاستعراض ليس «مجموعة

من الصور، بل علاقة اجتماعية بين أشخاص، تتوسط فيها الصور...(و) بوصف الاستعراض تزييناً لا غنى عنه للأشياء التي تنتج الآن، وبوصفه خلاصة عامة لعقلانية النظام، وبوصفه قطاعاً اقتصادياً متقدماً يشكل مباشرة حشداً متنامياً من الأشياء ـ الصور، فإنه الإنتاج الرئيس للمجتمع الراهن»(٦).

وبهذا المعنى يمسي المجتمع استهلاكياً استعراضياً يتحكم في تداولاته المادية والرمزية مبدأ الشاشة أساس الصورة. إنه المبدأ الذي يتيح للبضاعة أن تتداول وتستهلك من خلال ملحقاتها الإشهارية والتزيينية، ويتيح للخدمات أن تصبح مقنعة بتوفير كل أسباب الراحة (الخدمات السياحية مثلاً)، ويقود المعرفة إلى أن تخضع للمبدأ نفسه، فتمسي معلومات مخزنة في (الحاسب)، أو متداولة في شاشات التلفزة، أو متناقلة من خلال الأقمار الصناعية. بل إن مفهوم الشاشة بوصفه تبدياً، ينتقل إلى العلاقات الاجتماعية (الموضة مثلاً) وإلى العلوم الإنسانية (تبلور علم العلامات: السميولوجيا)، وإلى اللغة (تبلور المرئي في المقروء). ومن ثم، نستطيع أن نخلص إلى أن مجتمع الاستعراض يتميز بـ:

أـ هيمنة الصورة.

ب ـ السرعة.

جـ ـ إنتاج الصور.

واكب الانتقال الذي عرفه المجتمع الحديث من المرحلة الصناعية إلى ما بعد الصناعية انتقال ثقافي من مرحلة الحداثة إلى ما بعد الحداثة، وفق المعطيات التي أشرنا إليها بخصوص المجتمع الاستعراضي. ويمكن أن نفهم السينما ليس بوصفها فناً مستقلاً فقط، بل فناً للصورة يشمل الفيلم وغيره من معطيات المجتمع، إن

فن متخيل

وبناء عليه، لاحظنا أن التطور الهائل الذي عرفته السينما جاء في أواسط القرن العشرين، لحظة الانتقال إلى ما بعد الحداثة لكونها مرحلة تسيطر فيها الصورة بآلياتها وملحقاتها: وسائط التواصل والحاسب والشاشات وبنوك المعلومات. في هذه اللحظة

إذا كانت السينما تتويجاً لتبلور فنون تداول الرموز والنصوص والعلامات، فإنها كانت مفجرة لكثير من الأسئلة في الكثير من الفنون ومجالات المعرفة



السينما تجسيد لواقع الحياة بمشكلاته وتطلعاته

السينما واقعة في الفيلم وفي التلفزة وفي الصورة وحتى في البضاعة وبمعنى آخر تصبح السينما قيمة للعرض وفق تداولات معينة.. إنها واقعة في جوانب عرفت بجديتها: السينما في الانتخابات بوصفها تقديماً وإقناعاً، السينما في الأفلام الوثائقية، السينما في صور الحرب والمجاعة.

انتقلت السينما من كونها تسجيلاً، وتصويراً للحركة الخارجية في الشوارع، إلى فن متخيل يقوم على تصوير قصة متخيلة، وعلى صناعة وأدوات وتقنيات، وهكذا استطاعت أن تنمو وفق معطيين أساسيين:

أـ تقدم صناعة السينما وتقنياتها بفضل تطور تقانة (تكنولوجيا) المجتمع الحديث، وقد كان فيلم «الأزمنة الحديثة» LES TEMPS MODERNES لشارلي شابلن دليلاً على هذا الجانب، وقد استمر تطور السينما فيما بعد بفضل تقدم (الحاسب) ووسائط التواصل MULTI MEDIAS حيث تستفيد السينما الآن من إمكانات المزج والإيهام في الصور من خلال برامج الحاسوب.

ب ـ تقدم الخدع السينمائية وإمكانات الإيهام والتخييل، حيث أصبحت الأفلام تقوم على وسائل خاصة تستطيع نقلنا إلى عالم ما قبل التاريخ أو إلى فضاءات مستقبلية حيث توجد حيوانات بدائية أو أخرى محتملة والأفلام الأكثر نجاحاً الآن في سوق السينما هي أفلام الخيال العلمي.

تشكيل مجتمع الاستهلاك الباذخ

وتقنية الخدع ليست سينمائية فحسب، ولكنها تشمل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فكم مرة نكتشف، بعد اقتنائنا لبضاعة ما، أنه لا تتوافر بها الصفات والخصائص المكتوبة على غلافها أو المتداولة في إشهارها، وكم مرة ينقذ الخداع والنفاق علاقات اجتماعية (المجاملة مثلاً يمكن عدّها تبدياً لما هو غير حقيقي)، فيمكن أن نفهم السينما بأنها الفن الذي وقع في قلب هذه التحولات المادية والثقافية، وبأنها الفن الذي سرق من فنون الاحتفال كالمسرح مثلاً مبدأ التجمع ومخاطبة جمهرة الناس، حيث

أصبحت السينما فنًا جماهيريًا احتفاليًا استطاع المجتمع الاستهلاكي أن يوظفه بذكاء لينشر نموذجًا سلوكيًا لا يستقيم الاستهلاك من دونه. وبهذا أصبحت السينما، منذ أواسط هذا القرن، الفن الذي يستهلك بإقبال الناس عليه أفلامًا ومهرجانات، والفن الذي يساهم في تحويل المجتمع من مجتمع الحاجة إلى مجتمع الاستهلاك الباذخ، وذلك بتقديم صورة للإنسان النموذجي. ومن ثم أصبحت السينما تتحول إلى وسيلة تربوية لتوحيد نمط العيش حسب الطريقة الغربية، وتقديم الصيغة الغربية للحياة على أنها الصيغة النموذج. وقد أفلحت السينما في استنبات هذه الصيغة في بيئات مختلفة كثيراً مثل البيئة العربية والبيئة الآسيوية.

وبدأت السينما من خلال البطل السينمائي النجم تنشر نموذجًا إنسانيًا بمواصفات معينة تتحول إلى معايير للسلوك الاجتماعي؛ ويتمثل هذا النموذج في السوبرمان الغربي القوي السريع المتفوق والذكي الذي يحترم النظام ويحافظ على الاستقرار ولو باستعمال العنف، ويحارب قوى الشر عصابات أو عفاريت أو سكان عوالم أخرى.

هذا هو النموذج المتناغم مع مجتمع الاستهلاك في تجلياته الضحلة، وفي انتقاله من مرحلة التملك AVOIR (المرحلة الصناعية) إلى مرحلة (التبدي) PARAITRE (ما بعد الصناعة)، واستناده إلى التماهي والاندماج. ولهذا، لم يكن مصادفة أن يبلور برتولد برشت تقنية التغريب وتكسير الاندماج(٧) في المسرح في أواسط القرن العشرين حين بدأت السينما تبلور هذه الصورة للإنسان ولنمط العيش القائم على التماهي. والحال أن النجم السينمائي كان ضعفًا لنجوم أخرى أعلى من شأنها المجتمع الحديث: النجم السياسي والاقتصادي والرياضي. يشير ديبور DEBORD إلى عمق هذه الظاهرة في قوله: «في شخصية النجم التي هي التمثيل الاستعراضي للإنسان الحي، يتجسد هذا الابتذال عن طريق تجسدها لصورة دور ممكن ويعني كون المرء نجمًا التخصص في المعاش ظاهريًا، فالنجم هو موضوع التماهي مع الحياة الظاهرية الضحلة، التي يجب أن تعوض تفتت التخصصات الإنتاجية المعاشة فعلاً. ويوجد النجوم لكي يجسدوا أنماطًا مختلفة من أساليب الحياة وأساليب فهم المجتمع، حرة في التعبير عن نفسها بشكل شامل»(٨). ينطبق هذا الحديث الدائر عن النجم بكل أبعاده في المجتمع على النجم السينمائي الاستعراضي. هنا تتحول السينما إلى أداة تربوية رهيبة تنشر نموذجًا سلوكيًا موحدًا يهاجر بين الفضاءات والأزمنة والثقافات. ولولا هجرة السينما، وأفلامها، لانقرضت في مهدها.

وعلينا أن نلاحظ أن تطور قدرة السينما على تدويل هذا النموذج السلوكي منذ أواسط القرن العشرين كان يتزامن مع تبلور منهجية التدريس بالأهداف في السياق التربوي

التطور الهائل الذي عرفته السينما جاء في أواسط القرن العشرين، لحظة الانتقال إلى ما بعد الحداثة لكونها مرحلة تسيطر فيها الصورة بآلياتها وملحقاتها



شارلي شابلن نموذج الإنسان البسيط

الأمريكي، وهي المنهجية التربوية (البيداغوجية) التي كانت تتوخى توحيد خطط (إستراتيجيات) العملية التعليمية من أجل التحكم في صياغة ذهنية موحدة على الرغم من تباعد المسافات والثقافات. وهكذا، بينما كان يتم تقديم صورة الإنسان النموذجي الصالح من خلال البطل السينمائي، كانت النظريات التربوية تبحث عن توحيد منهجيات التدريس وأهدافه من أجل توحيد المعرفة المنقولة إلى المتعلمين وتوحيد نتائجها.

جفاء لا تواصل

كان هذا المشروع يتقدم في تناغم تام مع تطور المجتمع الاستهلاكي الذي كان يدمن تحطيم أشكال التواصل الاجتماعي وما يترتب عليه من تكافلات وتبادلات مادية تجعل من الطبيعي تبادل الأفراد للحاجات وللخدمات؛ ذلك أن مثل هذا التكافل والتواصل الاجتماعيين كان يعيق تكاثر الاستهلاك والإقبال على البضاعة وعلى مؤسسات الخدمات. فنجاح الاستهلاك يقوم أساسًا على عزل الفرد إلى درجة لا يستطيع معها تلبية حاجاته المادية خصوصًا والرمزية كذلك إلا في المؤسسة: المتجر وامتداداته بخصوص الحاجات المادية والوكيل أو الوكالة بالنسبة إلى الخدمات، والصورة بالنسبة إلى الحاجات الرمزية أو المتع PLAISIRS.

من هنا نفهم أن ذلك التطور التكنولوجي الذي سمي وسائل التواصل ووسائطه لم يكن مشروعاً للتواصل الاجتماعي بقدر ما كان يمنع ذلك التواصل ويحدث قطيعة أو جفاء اجتماعيًا. إن الشاشة تمنع تواصل أفراد العائلة، وظلام السينما يمنع تواصل المشاهدين، ويعوض علاقة التواصل الحقيقية بين الممثل والمتفرج التي يصوغها المسرح إلى علاقة المتفرج بصورة شبه وهمية، وقد يتيح الحاسب التواصل بين فردين من مناطق بعيدة، لكنه يمنع التواصل الحي بين أفراد في قاعة واحدة. إننا أمام مشروع متكامل يعزل الفرد ويوجد قنوات استهلاكه ومسالك تلبية حاجاته ويقدم له بفضل السينما نموذجًا سلوكيًا موحدًا ويقدم له المعرفة في المدرسة بشكل موحد ووفق خطة محددة.. من هنا كان انسحاق الفرد في مجتمع الاستهلاك وإحساسه بالعزلة فيه.

مرحلتان لصورة البطل

إن نموذج النجم السينمائي أو البطل الذي يتوافق مع صورة الإنسان المثالي الصالح لمجتمع الاستهلاك الاستعراضي لم تتم صياغته في الغرب إلا بإحداث تحول أساسي في صورة البطل ومواصفاته بعد أن بدأت تتحدد ملامحه مع ظهور الأفلام التخييلية الصامتة، ومن ثم نستطيع تحديد مرحلتي هذا الانتقال:

المرحلة الأولى: كانت تمثلها أفلام شارلي شابلن بامتياز، حيث كان البطل السينمائي نموذجًا للإنسان البسيط، العامل أو الفقير أو المتسول، الذي يكافح من أجل لقمة العيش، ويستند إلى أشكال التكافل الاجتماعي كافة من أجل الاستمرار في الحياة، ولا يتخلى عن أخلاقه ومبادئه كما وقع لشارلو مع الطفل في فيلم الصبي LE KID.

المرحلة الثانية: هي مرحلة البطل السوبرمان الذي يختزل كل صفات الإنسان القوي. وقد تحول مفهوم القوة ليصبح مرتبطًا حتى بحدود تمثل البطل لقيم النجاح الاجتماعي والتزامه مبادئ السلوك السوي المنسجم مع غايات مجتمع الاستهلاك. ومن هنا فالقوة قد تتجاوز الجسد لتصبح القدرة على التزام قيم المجتمع ومبادئ تداولاته الثقافية والسياسية والاقتصادية. وهنا لاحظنا أن بإمكان البليد أو الساذج أو المتخلف عقليًا أن يصبح بطلاً ثم نموذجًا للنجاح الاجتماعي. إن البطل بهذا المعنى هو استمرار لبطل الويسترن، المحارب القوي ذي التجارب والخبرات. وقد استمرت هذه الصورة في أفلام السوبرمان خلال السبعينيات، ذلك البطل الذي يكون خجولاً مترددًا في حياته العادية، قويًا خارقًا في تحوله إلى سوبرمان. وقد كانت هناك موجة من أفلام التحول الخارق إلى كائنات قوية لا تقهر.



التاريخ من الموضوعات المفضلة للسينما

إن صورة البطل هذه انتهت إلى تشكيل بطل له مواصفات متعددة ومتناقضة، ومثله

بامتياز فورست كامب FOR-EST CUMP. إنه الإنسان المعوق الساذج الذي ينجح في مهماته الحربية ومهماته الاقتصادية والرياضية، ويتحول إلى نموذج للنجاح الاجتماعي، إذ يلتقي بجون لينون، وبالرئيس الأمريكي، ويخطب في معارضي حرب الفيتنام.

يشير فيلم فورست كامب إلى نقلة نوعية في السينما وفي توترها مع التصورات التربوية للمجتمع الغربي، ذلك أن تطور هذا المجتمع الاستعراضي الذي كان الحاسب تجليه الأساسي، وتطور السينما صناعة وإبداعا، وتوتر النظام التعليمي مع أنظمة المجتمع الأخرى وأنساقه مثل نسق التشغيل ونسق التقنية وأدائيتها.. كل هذا قاد إلى تفاعل السينما والتربية مع معطيات التقدم المعلوماتي، وإمكاناته الكبيرة. وفي هذا السياق جاء فيلم فورست كامب ليعلن عن الإمكانات الهائلة التي يقدمها الحاسب للسينما حيث أتاحت تقنياته وبرامجه مزج الصور وإدماجها بشكل دقيق ومتقن، فشاهدنا فورست كامب يجالس جون لينون ويصافح الرئيس نيكسون، وغيرها من المشاهد التي استندت إلى إمكانات المعلوميات، ولم يمنع استثمار الحاسب الفيلم من النهوض على تقنية الحكي بمفهومه الشرقي، حيث يجلس الراوي - الذي هو البطل نفسه - في مكان عمومي ويروي للناس قصصه وحكاياته. لقد كان فورست كامب في الحديقة جالسا يروي قصص حياته كما لو كان قصاصا شرقيا يحكي حكاياته على الناس.



السينما أسطورة أسست بالتبادل مع فنون أخرى أهمها الموسيقى

وبالمقابل لم يستطع الحاسب الانسجام مع هذا التطور إلا باستثماره إمكانات الصورة والطرائق السينمائية لتداول المعلومات والصور، وهكذا بلورت المعلوميات تقنية الوسائط المتعددة MULTIMEDIA التي تتيح إنتاج الصور وتخزينها وتبادلها ومزجها، كما تتيح استقبال وقراءة الشرائط الصوتية وأقراص الليزر؛ وبعبارة أخرى تتيح التحكم في الإنتاج السمعي البصري إلى درجة أن الحديث بدأ يتداول عن مستقبل يستغنى فيه عن الاستوديوهات السينمائية وعن الممثلين حيث ستكون كل المشاهد مخزنة في الحاسب، ولن تقع الحاجة إلا إلى عدد قليل من الممثلين أو إلى صورهم فقط. ومع أن في مثل هذا الحديث بعضا من الغلو، إلا أنه يشير إلى مدى تقدم الفتوحات السينمائية للمعلوماتية.

لعل السينما هي الصناعة الأولى التي أنتجها اللقاء المثمر بين التقدم التكنولوجي والمعطيات السردية والتشكيلية خلال القرن العشرين؛ إنها بعبارة أخرى صناعة فن وفن صناعة، لكنها لم تبق ملتزمة هذه الحدود، إذ تحولت إلى فن أخطبوطي استطاع أن يقتحم على الناس عزلتهم، وأن يصوغ لهم أحلاما جديدة ونمط عيش جديدا وسلوكيات جديدة.. فالسينما أسطورة أسست نفسها بالتبادل مع فنون أخرى وقطاعات أخرى وصناعات وتكنولوجيا وتربية.. وغيرها من الأنساق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي ساهمت في إعلاء أسطورة القرن العشرين: السينما...

المراجع والهوامش

1 - 1eme Siecle Edition Magmerd Paris 1986. p458.19

٢ـ جان فرانسو ليوتار: الوضع ما بعد الحداثي، دار شرقيات القاهرة، ١٩٩٤م، ص١٠٣.

٣ـ نميز بين فنون اللغة وهي الفنون الأدبية التي تستند إلى اللغة مادة التعبير، وفنون الفرجة التي تعتمد وسائط أخرى كاللون أو الجسد أو الحركة، وهو ما يفرز المسرح والسينما والرسم والرقص وغيرها.

٤ـ مثل بيكاسو الذي ساهم في إنجاز عرض parade مع جان كوكتو سنة ١٩١٧م بباريس.

٥ـ كي ديبور: مجتمع الفرجة، دار شرقيات (ترجمة أحمد حسان) ،القاهرة، ١٩٩٤م، ص٩.

٦ـ نفسه ص ١٠ ـ ١١.

٧ـ يقوم التغريب في مسرح برشت على نفي توهم المشاهد بحقيقة ما يراه حتى يبقى متيقظ الذهن خلال المسرحية، يفكر في أحداثها بدل التأثر بها. وتستتبع ذلك مجموعة من التقنيات مثل تقسيم الحكاية وإدماج الأغاني في المسرحية ثم تمكين الممثل من أسلوب للأداء المسرحي لا يوهم المشاهد ولا يقوده إلى التماهي بالشخصية المسرحية.

٨ـ ديبور نفسه ص ٢٨.

توزر: عين الصحراء التونسية

خليفة الخياري



وسط صحراء مترامية الأطراف، تجلس حسناء الجريد ملتفّة بالنخيل. تستلهم محبّة البقاء من «الشط» الساكن بين كثبان الرمال. تلك هي مدينة توزر أو تَوْزَرَ كما هي مسجلة في كتب الرحّالين المغاربيين وأشعار السابقين. مدينة ذات طراز معماري تعود أصوله المتميِّزة إلى عرب اليمن الذين استقروا بهذه الجهة بعد الفتح الإسلامي، وهي شبيهة - من حيث المناخ - ببيئة الجزيرة العربية. هناك كان الحجيج المغاربة يحطّون الرحال لاستعادة الأنفاس قبل المغامرة بالتوغل شرقًا وسط كثبان رملية لطالما صارعها الإنسان بقوة عقيدته ومقصده الشريف.. وهناك تتآلف علامات الأحقاب التاريخية بوداد عجيب؛ فلا حداثة المدينة تقصي أصالتها، ولا جذورها العربية العريقة تضيق عن نسق الحياة المعاصرة وتبدّلاتها المتعاقبة.



مدخل المدينة العتيقة



مدخل المدينة من الناحية الشمالية منقوش عليه بيت شعري يتغنى بالمدينة



توزر (منظر عام)

مـدينة يـربك جـمـالهـا الزائر المتـذوّق، إذ هـو على مشارف رحاب أبي القاسم الشابي.. فهناك غنّى الشاعر للحياة ومات لتظل تغني له أغنيـة مجد أثيل.. في صميم البيداء كان ذلك الشاعر يتـشرّب الجمال والنقاء، ويشدو للإرادة الإنسـانيـة الفـاعلة، ويـصلي في هيكل الحب الطاهر صـلاته التي مـازالت إلى اليوم باقية في ذاكـرة النخل الشامخ. هناك التقينا بمناسـبة انعـقاد «مهـرجان الشعر العربي» لنعيش سحر المفارقات الطبيعية وتناسق عناصـرها المختلفـة في الأصل: الماء والحرارة الشـديدة، صفرة الرمل وخـضرة النخل، انبساط الـبناءات وشموخ المآذن، وتعـايش الطراز المعـمـاري الشـرقـي مع النزل العصـرية الحديثة ،وضـيق أزقة المدينة العـتيقـة ورحابة صدور أهلها المشهورين بالنكتـة الجريدية الحاضرة دائماً ولكل مـقـام. كـيف للزائر أن يستـمـتع بثـواني أيامـه في رحـاب هذه الفـاتنة المغرية بأكثـر من شكل جمالي وأكـثـر من سبيل فنّي باهر؟

لهذه المدينة عشّاق يصلون إليها من كل بقاع المعمورة وبخاصة في الفصول التي تنخفض فيها الحرارة. وعلى اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم ونِحلِهم، لهم فيها المباءة الحسنة والفسحة المذْهِبة للغم، واللحظات التي ترسخ في الوجدان كالتياط الحب بقلوب المغرمين.. فضاء التمس فيه « المريض الإنجليزي» البرء الفني، وانفتح فيه متحف «دار شريط» على عجائب ألف ليلة وليلة. وتناثرت النزل الرفيعة فاتحة أحضانها لهواة الرمل وحمّامات الشمس والفارّين من كساد الروح وسطوة الحياة الضاربة في منحاها المادّي.. وقبل هذا وذاك للحواسّ الخمس أن تعمل في الوقت نفسه: ففي هذه البيئة للماء سحره الخاص، وللشَّعر قداسته، وللنخيل هيبته، وللمفاوز فتنة، وللوجود معنى مغاير، وذلك آخر اكتشاف يجده الزائر منبثًا في صدره كالقناعة وهو يغادر توزر سواء في اتجاه العمق الصحراوي أو في اتجاه جربة «جزيرة الأحلام» شرقًا، أو في اتجاه الحدود الجزائرية غربًا، ولا سيما في اتجاه قفصة طريق الشمال.. ولعل هذا الإحساس هو الذي دفع الصديق د. محمد مقدادي (الأردن) ليصافح مستقبليه بمقطوعة شعرية من وحي اللحظة وحرارة الترحاب والابتسامة الصافية:

الحمد لله أن حطت بنا قدم
على أديم ثرى نهوى ونلتحف
أرض الجريد وفيها أهل درّتنا
سمر السواعد كالأشجار إذ وقفوا
من موطن الشمس من عمّان جئتكم
صبًا كواه الهوى كالعشب ينقصف
إنا على العهد يا توزر وقبلتنا
ليل ورمل وأحلام ومرتشف



خصائص معمارية متميزة يرجعها أهل الخبرة إلى أصول يمنية وافدة



روضة أبي القاسم الشابي حيث يوجد قبره محاطًا بنقوش تخلّد بعض أشعاره



للنخيل هيبته في توزر

لا يصـبح الدم مـاء في مـعـاجـمنا
فـالحب بعض الذي آباؤنا نزفـوا
لـو أن كل شـمـوس الأرض آفلة
فـالنخل يبقى ويبقى الله والسّـعف

فالضيافة هنا مقوّم صحراوي وعربي عريق. وأثره في نفس الزائر لا يبعث إلا الرغبة في العودة ثانية وثالثة. إن هي إلاّ شكل من أشكال إثبات انتماء المضيف قبل أن تكون واجباً تجاه الضيف.

قصة «المريض الإنجليزي»

تم تصوير أغلب مشاهد هذا الفيلم بالصحراء المحيطة بتوزر. فهل للفضاء الطبيعي البديع الذي تم فيه التصوير دور في حصد جوائز الأوسكار سنة ١٩٩٧م؟ فإن يكن هذا الفيلم قد اكتسب ثقة اللجان الفنية المقوِّمة فانفرد بأفضلية الإخراج (أنطونيو مينغيلا) وأفضلية التمثيل (جولييت بينوش) وأفضلية الموسيقى التصويرية (غابريال يارد) وأفضلية التصوير والمونتاج والصوت والأزياء.. فلاشك أن لحميمية المشهد الطبيعي دوراً جوهرياً في ذلك التكامل. ولئن اهتمت وسائل الإعلام الغربية والعربية بهذا الإنتاج الفني المتكامل ونوّهت بنجاحاته المتتالية، إنّ ما يلاحظ فيما كتب حوله من مقالات إغفال دور المعطى الطبيعي في إضفاء حيوية خاصة على المشاهد المصورة. فليس من باب الاعتباط أن يُؤْثِرَ المخرج الطبيعة الأصلية في الرمل الاصطناعي المعمول به في مدن التصوير المشهورة.

وهل كان للقصة والقدرات الشخصية للممثلين أن تحظى بهذا الإجماع لولا دوران الوقائع والأحداث على بساط طبيعي لا يخلو من امتيازات جمالية؟ فهذا الفيلم يروي قصة حب يمتزج فيها الحلم الرومانسي بالحقيقة المؤلمة، وتصطدم فيه اللحظة الراهنة والحارقة بالذكرى



يتضاعف سحر الماء في المحيط الصحراوي... حتى ليصبح السبيل الأمتع... والأروع...



«الخرجة» تجسيد حيّ للأصول المشرقية والنزعة العقائدية قلبًا وقالباً...

العاصفة الشاخصة في وجدان الشخصية الرئيسة (رالف فينيس). وهذا الازدواج الحسّي والتداخل الزمني لا سبيل لالتقاط دلالاته وتحويلها إلى مشاهد مصوّرة في فضاء مكاني جاهز إمّا اصطناعياً وإما طبيعياً ليعكس ذلك الازدواج وذلك التداخل في مكوّنات أرضيته. وهذا ما يتوافرفي محيط توزر وشط الجريد (بحيرة الماء المحاصرة بالرمال) دونما تدخل من يد الإنسان. ومثلما كان الفيلم جديراً بعناية النقاد اليوم فقد كان بالأمس القريب يستمد مقوّمات جدارته من الصحراء التونسية حيث مازال أهالي الجريد يتذكرون شخصيات الفيلم

وإطاره الفني وأجهزته التقنية المتعدّدة.. فهل لكل مقام مقال أم لكل مقالٍ مقام؟

متحف «دار شريط»

إن ازدحام السياح على هذا المتحف يوحي لوالجه بخصائص دواخله المتعدّدة ومميزات أجنحته؛ ففيه ينشد الأطفال عجائبية مغارة علي بابا و«افتح يا سمسم» وبيضة الرّخ والتمساح والأفعى في تجسيم إلكتروني فنّي

إذا كان الماء مصدر الحياة، فهو في توزر قرين الشعر من حيث القداسة، وصنوه مادام الثاني يمثل معنى الحياة



الطراز المعماري العتيق ويظهر «صائد هواة التصوير» وبين ذراعيه كلبه

لحكايات ألف ليلة وليلة، يجد الطفل فيها نفسه يؤدي دور علي بابا وليس مشاهداً له، بل الآباء والبنون معاً. إذ إن هذا الجناح لا يشترط سوى بعض الشجاعة وسلامة القلب حتى لا تهزّه سلسلة الغوامض والمفاجآت.. أما جناح التراث الأثري للجهة وهو الفضاء الأكبر فالسياحة فيه هي في الأصل سياحة في أصالة الذات. حيث نجح السيد عبد الرزاق شريط صاحب المتحف في أن يختصر فيه أهم الأدوات والأزياء والتقاليد التي بدأت تختفي من الذاكرة في زحمة الحياة المدنية المعاصرة، ولو أنها باقية في المتاحف الأوروبية الشهيرة لا تمنعها غربتها عن بيئتها الأصلية من شد أنظار الزوّار ومنهم العرب بالتحديد: تزيين العرائس وكاتب العقود والطيّاب (عامل بالحمّامات التقليدية مهمته مساعدة المستحم) ووسائل الصيد وأدوات الكتابة وأواني الطعام النحاسية وأوسمة وأزياء تعود إلى ما قبل فترة الاستعمار الفرنسي.. إلخ، ومشاهد تقحم أمسك في يومك وتهمس في أذنك بلسان الشابي:

عش بالشعور وللشعور فإنما
دنياكَ كونُ عواطفٍ وشعورِ

هذا بالإضافة إلى الركن الخاص بالشاب العملاق يدعوك بابتسامة ذات معان لتلتقط لنفسك صورة نادرة معه مقابل مبلغ مالي زهيد. وإلى المقهى ذي الخصائص التقليدية يشرع أبوابه لك لتناول كوب من الشاي (الأخضر) أو القهوة في خِضَمّ ما ينتاب الذات من رغبة في التأمل والاستراحة بعد تجوال ترتوي منه الروح قبل الجسد.

فلكل مضيف أساليبه الخاصة في تكريم ضيفه يحاول بها قدر المستطاع أن يحقق المغايرة والتميّز.

وقد يكون صاحب المتحف قد بلغ هذا الشأو بمرافقته لنا وسماحه بالتقاط الصور بصفة استثنائية، مثلما يكون قد حققه السيد الصغير الزعيري المعتمد الأول بولاية توزر باستضافته لنا في مكتبه ووضعه سيارته الخاصة تحت تصرفنا عندما علم برغبتنا في إجراء استطلاع



متحف دار شرَيْط ذاكرة مستأمنة على تراث صحراوي ضارب في القدم، ومتنزه يجهل توزر مَنْ لم يزره

لمجلة الفيصل، وهو الغرض نفسه الذي سعت إليه لجنة إعداد المهرجان من خلال تمكين الزائرين من فسحة داخل غابة الواحات المترامية الأطراف على متن العربات المجرورة المعدّة للسيّاح، تلك الغابة الضخمة التي تواكب عالم المتغيرات بتؤدة، فبالأمس كانت «أم العيال» ومصدر الرزق للفلاحين، واليوم تستبدل بألقها الفلاحي تأنقًا سياحيًا لا يخلو من بعض الاصطناع، يفصح عنه السعف المتناثر ومجاري الماء، والمسالك المعدّة للسيارات والعربات السياحية أو ما سعى إليه «عمّي علي» الشيخ المرافق لنا باستمرار على الرغم من الشيخوخة التي أوهنت قواه وتحدّتها ذاكرته التي تتزاحم فيها الأشعار المأثورة لعنترة، وامرئ القيس، والمتنبي، وأبي نواس، وابن زيدون.. فلا تتوقف عن ذكر القديم إلا إجلالاً لحداثة الشابّي ومصطفى خريف صاحب ديوان «شوق وذوق».

ويبقى الشعر والماء

إذا كان الماء مصدر الحياة، فهو في توزر قرين الشعر من حيث القداسة، وصنوه مادام الثاني يمثل معنى الحياة، فلا شيء يتسلح به الأهالي لمواجهة زحف



كاتب العقود (متحف دار شرَيْط)

الرمال سوى الماء المندلق من قاع الصحراء، ولا شيء يشد الأزر حيال اكتساح النمط الغربي لحياة المدينة سوى عشق الشعر واللوذ بالقوافي. الأفق الصحراوي يصنع قداسة الماء، وطراز العيش الحثيث يصنع قداسة الشعر، وما بينهما تنبئ ملامح الإنسان عن ثنائية الأصالة والمعاصرة مجسّمة في اختيارات الأجيال حيث تتزاوج المشاهد في الشارع وتتوزع العين بين المآذن العتيقة إلى جانب النزل العصرية. وسراويل (الدجينز) إلى جانب


أزياء تقليدية تكتسب رونقها من امتزاج الطابع العربي بالألوان الإفريقية

«الحرام الجريدي»، وخبب الحصان إلى جانب زعيق الدراجات النارية.. لكن الثوابت الحضارية باقية ومعززة بإجراءات حكومية تسعى إلى الحفاظ على الخاصية المحلية ومنها العناية بالآثار وترميمها، وإقامة التماثيل المعبرة عن ميزة الجهة، والتشجيع على الصناعات التقليدية، وتوظيف الموارد السياحية لصيانة مختلف المظاهر الدالة على العمق الثقافي والتاريخي للولاية. ولعلّ أبرز أشكال هذه الثوابت تتجلى في تقليدين: أولهما انطلاق أي تظاهرة أدبية من مقام أبي القاسم الشابي. وثانيهما أنه داخل النزل السياحية يتكثف حضور الفرق التقليدية الشعبية الفلكلورية ويعاند التمر فيرافق أكثر الأكلات حداثة، كيف لا تحتفظ «الدقلة في عراجينها» بمذاقها الرفيع وتلك مظانّها والحال أنها تحتفظ بمكانتها في السوق الأوروبية المشتركة؟!

في توزر كل ذكرى جميلة تقوم على ثلاثة أركان: ذكرى الإنسان تقوم على الابتسامة والنكتة وحسن الوفادة. ذكرى المكان ثالوثها الماء والخضرة والقول الحسن، يذكرك ليلها بذؤابات النخيل والهواء الصحراوي العليل وإطلالة القمر الجميل، ويذكرك نهارها بأنك هنا في تَوْزر وأنك هنا في ماضيك التليد وأنك هنا في ذاتك المنشرحة والمبهورة، وثالثها أنك تتذكر ساعة مغادرة المدينة أنك قطعت على نفسك عهد العودة أسوة بشاعر الصحراء وحفيد الشابي: جمال الصليعي في مناجاته لجنته الأرضية:

وقفتُ العمرَ فيكِ فلا نشيدي
يطاوعُ في سواكِ ولا أرومُ
فغطّي من سمائكِ لونَ ليلي
متى ما عدت دلتني النجومُ
خذي ما شئتِ من سهري وعمري
وأبقي لي الرحيل فلا ألومُ
ففي بحريك متّسع لخطوي
وقد ضاقت بتطوافي التخومُ

هناك بالجنوب الغربي التونسي تنتبذ توزر مكانها الشرقي القصيّ، وتلتحف بالكثبان الناعمة في دعة ووقار أكسبهما إياه التاريخ، تتحدى التصحّر الروحي بمعين حضاري لا ينضب، وذاكرة مخصاب تنشئ الجيل تلو الجيل منتسباً إلى رهافة الشعر وشموخ النخل، ومعتدّاً بقيمه العربية الثابتة على مرّ الأحقاب. عين صحراوية في طَرْفها حَوَرٌ قاتل لشتى الأمراض النفسانية المعاصرة. لا يكاد يمر فصل من دون أن تفاجئنا وسائل الإعلام الغربية بتحقيق مصوّر يتغزّل بجمالها أكثر ممّا يستقرئ صفاء روحها. هي على ألسنة أقلامهم الدرّة، والمشتى السّحري، وجنّة الله في الأرض، وبوابة الصحراء الإفريقية.. وغير ذلك من الأوصاف.. لكن عندنا يكفي أن يظلّ اسمها قرين الأدب العربي الأصيل من زمن «ابن الشبّاط» إلى عصر صاحب «أغاني الحياة» وما بينهما حقبة لا تكاد تدرك قرارتها الثقافية. ومثلما هي في نظرهم مدخل لأدغال إفريقية وصحاريها، تظل في نظرنا مدخلاً لمنارات الحضارة العربية الإسلامية وأجلّة أعلامها المغاربيين من قيروان «أفريقية» إلى قرطبة الأندلس.

التعليم العالي في إسرائيل

هشام فوزي عبدالعزيز

يعدّ التعليم بأنواعه ومستوياته المختلفة، في أي دولة من دول العالم، من أهم الدلالات على المستوى العام للدولة المعنية، فإذا كان مرتفعًا ومتقدمًا، فإن ذلك يؤدي إلى نتائج إيجابية لها الأثر الواضح في تقدم تلك الدولة ورقيها في المجالات العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، والعكس صحيح. ومن هذا المنطلق فإن هذه الدراسة تركز على التعليم العالي والبحث العلمي في إسرائيل.

وثمة مسوغات عديدة لدراسة الموضوع لعل من أهمها:

- قلة الأبحاث والدراسات والمؤلفات المكتوبة باللغة العربية التي تناولت موضوع التعليم العالي والبحث العلمي في إسرائيل، إما لصعوبة الكتابة فيه وإما لندرة المصادر والمراجع المتوافرة عنه، أو لأن بعضها الآخر مكتوب باللغة العبرية.

- تعرف المستوى العلمي والبحثي في إسرائيل ومكامن القوة فيه ليصبح هناك إمكان لموازنته بما يماثله في العالم العربي لمواكبة التطور الذي يحدث في ذلك المجال.

- إعطاء دلالات كمية ونوعية عن التعليم العالي والبحث العلمي في إسرائيل، وتبيان أثرها في مختلف النشاطات العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية.

التعليم اليهودي العالي في فترة الانتداب البريطاني ١٩٢١ - ١٩٤٨م

ركزت المؤسسات الصهيونية في فلسطين وخارجها جهودها خلال فترة الانتداب البريطاني على بناء مؤسسات علمية وبحثية متقدمة من أجل تنفيذ مخططاتها الرامية آنذاك إلى إقامة دولة لهم في فلسطين. ولعل من أبرز المؤسسات العلمية التي أقيمت فيها، ما يلي:

- الجامعة العبرية: افتتحت في عام ١٩٢٥م، وأخذت بالتطور تدريجيًا في تخصصاتها وإعداد طلبتها وجهازها التعليمي؛ فقد كانت في بداية عملها تمنح شهادة الإجازة الجامعية (البكالوريوس) إلى أن أصبحت ابتداءً من عام ١٩٣٢م تمنح شهادة الدكتوراه في تخصص العلوم الإنسانية، ثم امتدت إلى مجالات أخرى في الجامعة (١).

- معهد التقنيين في حيفا: افتتح في عام ١٩٢٥م، وهو معهد متخصص في مجال الهندسة التطبيقية، وقد أدى دوراً بارزاً في التقدم العلمي والتقني عند المؤسسات الصهيونية في فلسطين(٢).

- معهد وايزمن للعلوم: أسس في عام ١٩٣٤م تحت اسم معهد زيف للعلوم، لكنه في عام ١٩٤٤م تغير اسمه ليصبح معهد وايزمن للعلوم، نسبة إلى حاييم وايزمن العالم الصهيوني، وأول رئيس لدولة إسرائيل. وقد قصد هذا المعهد إلى إعداد الأبحاث في مجال العلوم التطبيقية (٣).

ويلاحظ مما سبق أن هناك تركيزاً واضحاً على العلوم التطبيقية، وبخاصة الفنية والتقنية التي ساهمت بشكل أو بآخر في التقدم العلمي والاقتصادي والعسكري، مما ساعد الحركة الصهيونية في فلسطين على تحقيق أهدافها العامة.

مؤسسات التعليم العالي في إسرائيل

شهد التعليم العالي في إسرائيل خلال الفترة من عام ١٩٤٨م إلى عام ١٩٩٧م تطوراً كبيراً في مختلف المجالات، فظهرت مؤسسات تعليمية



الاهتمام المبكر لتعليم الطفل..

عليا مختلفة في النوع والمستوى، هي:

مؤسسات التعليم فوق الثانوي: وتشتمل الدراسة فيها على دراسة مهن محددة كالتمريض، والهندسة، والمعاملات المصرفية، والموسيقى، والمهن الطبية المساعدة.

مؤسسات التعليم العالي غير الجامعية: وهي التي تحصل على اعتراف مجلس التعليم العالي لتدريس بعض المهن والموضوعات، لكنها غير مؤهلة لمنح اللقب الجامعي.

المعاهد العليا: وهي التي تمنح اللقب الجامعي الأول (بكالوريوس)، لكنها ليست جامعات بل هي معاهد وكليات لتأهيل المعلمين، أو إنها متخصصة في تدريس الفن والموسيقى. (٤).

التعليم الجامعي: وهو المسار الذي يؤدي إلى الحصول على لقب جامعي من الألقاب الآتية: الدبلوما، والبكالوريوس، والماجستير، والدكتوراه من إحدى الجامعات والمعاهد الجامعية الآتية:

- الجامعة العبرية في القدس.
- معهد وايزمن للعلوم في رحوبوت.
- معهد الهندسة التطبيقية (التقنيون) في حيفا.
- جامعة بار - إيلان التي أسست عام ١٩٥٥م.
- جامعة تل أبيب التي أسست عام ١٩٥٦م.
- جامعة بن غوريون في النقب التي افتتحت عام ١٩٦١م.
- جامعة حيفا التي بدأت تدريسها في عام ١٩٦٦م (٥).
- الجامعة المفتوحة في إسرائيل التي بدأت عامها الدراسي الأول في سنة ١٩٧٦. (٦).

وبسبب أهمية التعليم الجامعي وحجمه وفاعليته في إسرائيل، فإنه سوف يتم التركيز عليه بشكل كبير، كما سيتبين ذلك فيما بعد.

إدارة التعليم العالي والإشراف عليه

يخضع التعليم العالي في إسرائيل من ناحية إدارية وإشرافية «لمجلس التعليم العالي» وهو هيئة مستقلة يرأسها وزير المعارف والثقافة، وتتكون من ١٩ - ٢٤شخصاً من ذوي الاختصاص أو من الذين لهم علاقة مباشرة بالتعليم يتم تعيينهم من طريق رئيس الدولة، بناءً على توصية من الحكومة. ويتمتع المجلس باستقلالية تامة في الإدارة والإشراف على التعليم الجامعي استناداً إلى الصلاحيات التي حددها له قانون مجلس التعليم العالي الصادر في عام ١٩٥٨م (٧). ومن أهمها:

- التوصية للحكومة بمنح مؤسسة تعليمية أو ثقافية ما، إجازة لفتح مؤسسة تعليمية عليا وإدارتها، على أن يبقى القرار النهائي لمنح الإجازة بيد الحكومة، وبعد موافقة الحكومة، فإن مجلس التعليم العالي يقوم بمنح الإجازة لتلك المؤسسات.
- التوصية للحكومة بالاعتراف بمؤسسة معينة مؤسسة للتعليم العالي. بينما يبقى القرار النهائي المتعلق بالاعتراف الرسمي بيد مجلس التعليم العالي. وعند الاعتراف بتلك المؤسسة من المجلس تحصل على إجازة بذلك من رئيس الدولة.
- تقديم التوصيات للحكومة بشأن إنشاء مؤسسات جديدة للتعليم العالي وتأسيسها.
- اعتماد مؤسسات معترف بها بمنح درجات أكاديمية مختلفة.
- منح مؤسسات التعليم العالي المصادقة على استخدام ألقاب علمية.
- رفع المقترحات والآراء والمشروعات للمؤسسات التابعة لها لتطويرها والتعاون العلمي فيما بينها وبخاصة في مجال البحوث والدراسات.
- تقديم مقترحات بشأن مساهمة الدولة في ميزانيات مؤسسات التعليم العالي المعترف بها (٨) ، النص الكامل لقانون المجلس (٩).

ومن المفيد جداً أن نذكر أمثلة على نشاطات مجلس التعليم العالي خلال

عام ١٩٧٩م مثلا لتوافر المعلومات عنه، حيث إن المجلس اجتمع فيه سبع جلسات. ونشطت من خلاله ثماني عشرة لجنة فرعية، منها سبع لجان ثابتة، وإحدى عشرة لجنة مؤقتة بلغ عدد أعضائها أربعة وثمانين عضواً. ومن بين أهم القرارات التي اتخذها بشأن التعليم العالي ما يلي:

- اعتماد كلية الطب في الجامعة العبرية بالقدس لمنح درجة خريج في العلوم الطبية.
- الاعتراف بكلية القدس للبنات مؤسسة تعليم عال، واعتمدت لمنح إجازة التعليم.
- الموافقة على فتح دائرة اللغة الألمانية وآدابها، ومنح درجة بكالوريوس فيها من الجامعة العبرية في القدس.
- تم اعتماد جامعة حيفا لتطبيق مناهج تعليمية من أجل منح درجة الماجستير في الجغرافية (١٠).

مالية التعليم العالي في إسرائيل

إن توافر المصادر المالية لأي نوع من التعليم يعدّ من العوامل المهمة التي تؤدي إلى النجاح في تحقيق الأهداف الموضوعة له، فكلما كانت تلك المصادر مناسبة أدى ذلك إلى تفعيل مستواه وتحسينه، وإذا كانت قليلة أو محدودة أثّر ذلك سلبًا في تحقيق أهدافه. وتوضح الإحصاءات الرسمية الإسرائيلية أن مالية التعليم العالي في إسرائيل خلال الفترة من عام ١٩٧٢م إلى عام ١٩٩١م شكلت ما نسبته ١٨ - ٢٢٪ من مجموع ما أنفق على التعليم في إسرائيل على المستويات التعليمية كافة. ومقدار ما ينفق على مؤسسات التعليم العالي مقدرًا بالدولارات الأمريكية يعدّ مناسبًا، ويفسح المجال أمام تلك المؤسسات أن تحقق الأهداف الموضوعة لها.

وثمة مصادر مختلفة للإنفاق على التعليم العالي، لعل من أهمها المخصصات الحكومية والتبرعات من مؤسسات وأفراد من إسرائيل وخارجها، إضافة إلى الرسوم الدراسية التي يدفعها الطلبة المنخرطون في هذه المؤسسات(١١).

التطور الكمي في التعليم العالي

بذلت إسرائيل جهودها لاستيعاب السكان فيها والمهاجرين اليهود القادمين إليها من مختلف أنحاء العالم في مؤسساتها التعليمية المختلفة، ومن بينها مؤسسات التعليم العالي.



تتلاحق الأجيال وتزداد نسبة الطلاب

ويبلغ مجموع عدد الطلبة في مؤسسة التعليم العالي غير الجامعية هو ٦١٫٩٥٠ طالبًا وطالبة في عام ١٩٩٤/١٩٩٥م. وقد شكل هؤلاء الطلبة في كل تخصص النسب الآتية: لكل من تأهيل المعلمين والتكنولوجيا ٣٢٪، وإدارة وحقوق ١٩٪، والفنون ١٠٪، والمهن الأخرى ٤٪، والتمريض ٢٪، والمهن الطبية ١٪، كما يتبين أن عدد الطلبة في بداية التسعينيات قد شهد ازديادا ملحوظًا، ويعزى ذلك إلى هجرة أعداد كبيرة من يهود الاتحاد السوفياتي إلى فلسطين، إضافة إلى الزيادة السكانية الطبيعية.

كما شهد التعليم العالي الجامعي تطورًا كميًا في أعداد الطلبة.

فبلغ مجموع الطلبة في الجامعات والمعاهد الإسرائيلية التالية: الجامعة العبرية والتقنيون وتل أبيب وحيفا وبارإيلان وعين غوريون ووايزمن ٩٦٫٦٠٠ طالب وطالبة يدرسون في المرحلة الجامعية الأولى (البكالوريوس) وتوزعت نسبهم في العام المذكور على تلك المعاهد على الشكل التالي: جامعة تل أبيب ٢٧٪، والجامعة العبرية ٢١٪، وجامعة بار ايلان ١٧٪، وجامعة حيفا ١٣٪، والتقنيون ١١٪، وجامعة بن غوريون ١٠٪، ومعهد وايزمن ١٪. ويلاحظ أن أعداد الطلبة في المؤسسات التعليمية المذكورة كانت في ازدياد من عام إلى آخر نتيجة التطور فيها وقدرتها على استيعاب الهجرات اليهودية المتتالية.

ويضاف إلى طلبة الدرجة الجامعية الأولى هناك طلبة الدرجة الجامعية الثانية (ماجستير) وطلبة الدرجة الجامعية الثالثة (الدكتوراه)، وطلبة الدبلوما.

ويبلغ مجموع الطلبة في مؤسسات التعليم العالي في إسرائيل في عام ١٩٩٤ - ١٩٩٥م قد بلغ ٢٠٤٫١٥٠ طالبًا وطالبة، ويشكل هؤلاء نحو ٤٪ من مجموع السكان في إسرائيل البالغ عددهم آنذاك نحو خمسة ملايين نسمة

(١٢)، ويشكل الطلاب في مؤسسات التعليم الجامعية الذين يدرسون في الدرجة الجامعية الأولى ٥٥٪ من مجموع الطلاب، وطلبة التعليم العالي غير الجامعي ٣٠٪ منهم، وطلبة الماجستير ١٢٪، وطلبة الدكتوراه ٢٪، وطلبة الدبلوم ١٪.

ويلاحظ أن عدد الطلبة في الدراسات العليا (ماجستير ودكتوراه) يشكّل ما مجموعه ٧ر١٣٪ من مجموع طلبة المؤسسات التعليمية العليا. إذ بلغ عددهم في عام ١٩٩٤/١٩٩٥م نحو ٠٨٠ر٢٨ طالباً ويعدّ ذلك الرقم مرتفعًا إذا ما ووزن بدول أخرى، فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن مجموع طلبة الدراسات العليا (ماجستير ودكتوراه) في الأردن، والتي تعد نسبة التعليم العالي فيها مرتفعة عربيًا، قد بلغ في عام ١٩٩٦م - ١٩٩٧م «١٢١٨» طالبًا وطالبة (١٣)، وهذا يعني أن عدد طلبة الدراسات العليا في الأردن يشكل ما نسبته ٣ر٤٪ من العدد الموجود في إسرائيل، علمًا بأن عدد السكان في الأردن تقريباً يساوي عدد سكان إسرائيل.

وتوضح الأرقام أن تخصصات العلوم الاجتماعية قد استأثرت في العام الدراسي ١٩٩٣/١٩٩٤م بـ ٢٩٪ من مجموع الطلاب في الجامعات الإسرائيلية، وعلى مستوى جميع الدرجات العلمية، والإنسانيات ٢٨٪ من مجموع الطلاب، والرياضيات والعلوم ١٦٪، والهندسة والعمارة ١٢٪، والطب ٧٪، والقانون ٦٪، والفنون ٢٪، والزراعة والكورسات الخاصة لكل منهما ١٪.

وفي مجال الدرجة العلمية استوعبت الدرجة الجامعية الأولى (البكالوريوس) نحو ٦٩٪ من مجموع الطلاب في الجامعات الإسرائيلية والماجستير ٢٤٪، والدكتوراه ٦٪، والدبلوم ١٪.

وقد استقطبت الجامعات الإسرائيلية نخبة من الطاقات العلمية في شتى المجالات والتخصصات.

فزادت أعداد هيئة التدريس والبحث والإدارة في الجامعات الإسرائيلية من سنة إلى أخرى بسبب التطور والتوسع فيها وقبول أعداد جديدة في السنوات الأخيرة وبخاصة بعد ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، إضافة إلى تلبية احتياجات السوق المحلية. ومن خلال إحصاءات عام ١٩٩٣ - ١٩٩٤م يتبين أن ٤٩٪ من العاملين في الجامعات الإسرائيلية هم من أعضاء التدريس والبحث فيها، و ٣٢٪ من الإداريين، و ١٩٪ من الفنيين. وعلى مستوى التدريس والبحث فإن ٥٣٪ من أعضاء هيئة التدريس والبحث في الجامعات الإسرائيلية هم من الجهاز العلمي الرئيس و ١١٪ من الجهاز الثانوي، و ٩٪ من مساعدي البحث والتدريس، و ٢٧٪ في مجالات أخرى.


التعليم أساس لتنفيذ المخططات الإسرائيلية

وعلى مستوى الجهاز العلمي الرئيس فقد خصص لكل من الأساتذة والمحاضرين الرئيسيين ما نسبته ٢٩٪ من مجموع الجهاز العلمي الرئيس، والأساتذة المشاركين ٢٤٪، والمحاضرين ١٨٪ ويعني ذلك ارتفاع المستوى التدريسي والبحثي في الجامعات الإسرائيلية.

الأبحاث العلمية في مؤسسات التعليم العالي

تقسم مؤسسات التعليم العالي في إسرائيل من ناحية بحثية قسمين هما:

- المؤسسات التعليمية غير الجامعية التي يغلب عليها الطابع التدريسي والتعليمي أكثر من الاهتمام بالبحث والدراسات.
- الجامعات الإسرائيلية وهي: الجامعة العبرية، ومعهد التقنيين، ومعهد وايزمن، وجامعة تل أبيب، وجامعة بارايلان، وجامعة بن غوريون، وجامعة حيفا، وتهتم بالناحيتين التدريسية والبحثية،إذ يعد الموضوع الأخير في صلب أعمالها (١٤)،(١٥).

وتعد إسرائيل من الدول المتقدمة في مجال الإنفاق على الأبحاث العلمية إذ إنه في عام ١٩٩٣ - ١٩٩٤م خصص ما نسبته ٧ر٠٪ من مجموع الدخل القومي العام فيها GNP للإنفاق على ذلك المجال. ويعد البروفيسور الإسرائيلي أمنون بازي رئيس لجنة المنح والميزانية في مجلس التعليم الإسرائيلي أن تلك النسبة تفوق ما يخصص للأبحاث العلمية في الولايات المتحدة التي

خصصت في ذلك العام ما نسبته ٥٠ر٠٪ من مجمل دخلها القومي للأبحاث (١٦).

وخصص للأبحاث العلمية في الجامعات الإسرائيلية في العام المذكور آنفًا مبلغ مقداره ١٤٠ مليون دولار أمريكي، جاء مبلغ ٥٠ مليون دولار منه من منح بحثية بمبادرات خارجية، و٥٠ مليون دولار من الميزانية المخصصة للجامعات الإسرائيلية، و٤٠٪ مليون دولار من المنح الصناعية والعقود التي تحصل عليها تلك الجامعات (١٧).

ويذكر البروفيسور أمنون بازي أن عدد الباحثين الذين يعملون في الجامعات الإسرائيلية في عام ١٩٩٣م/١٩٩٤م قد بلغ ٤٠٠ر١٣ باحث.

وقد تفسر كثرة المخصصات المالية التي تنفق على البحث العلمي في الجامعات الإسرائيلية وارتفاع أعداد العاملين فيه إلى أن النشاطات التي يقومون بها في هذا المجال متعددة ومتشعبة وذات مردود مفيد لإسرائيل.

ومما ساعد في إنجاح البحث العلمي في الجامعات الإسرائيلية إضافة إلى العوامل التي ذكرت آنفا أن تلك الجامعات قد وطدت علاقاتها البحثية مع مؤسسات علمية أخرى مماثلة لها في الخارج وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربا الغربية، إذ يقوم الباحثون في الجامعات الإسرائيلية بزيارة تلك المؤسسات وإجراء البحوث فيها، وهذا الأمر أفاد منه الباحثون في إسرائيل؛ إذ أتاحت لهم الاستفادة من الإمكانات والخبرات المتقدمة في ذلك المجال (١٨)، (١٩).

رؤية عامة

وإيجازًا لما سبق، فإنه يمكن القول: إن مؤسسات التعليم العالي في إسرائيل، وبالتحديد الجامعات منها (الجامعة العبرية، ومعهد وايزمن، ومعهد التقنيين، وجامعة تل أبيب، وجامعة حيفا، وجامعة بار ايلان، وجامعة بن غوريون) قد نجحت في تحقيق أهدافها الموضوعة لها؛ ومما يدل على ذلك أنها وفرت للسوق الإسرائيلية شتى التخصصات التي تحتاج إليها، إضافة إلى أنها استوعبت ما يزيد على ٠٠٠ر١١٢ طالب في مختلف الدرجات العلمية (البكالوريوس، والدبلوم، والماجستير، والدكتوراه)، كما أن إنجازاتها البحثية قد أهلتها أن تؤدي دورًا مهمًا في الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية في إسرائيل، ولعل من جملة العوامل التي أدت إلى إنجاحها أنها استقطبت أفضل الطاقات العلمية والبحثية، كما وفر لها الدعم المالي المناسب.

المراجع

1 - ISRAEL POCKET LIBRARY, EDUCATION AND SCIENCE, JERUSALEM, KETER BOOKS, 1974, PP84-85.

2- CARL ALPERT, TECHNION, THE STORY OF ISRAEL'S INSTITUTE OF TECHNOLOGY, NEW YORK - HIFA, 1982 PP 105-133.

٣ـ أفرايم ومناحم تلمي، معجم المصطلحات الصهيونية، ترجمة أحمد بركات العجرمي، عمان، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، ١٩٨٨م، ص٢٧٩ ـ ٢٨٠.

٤ـ عزيز حيدر، التربية والتعليم (في إسرائيل)، في: دليل إسرائيل العام، تحرير صبري جريس وأحمد خليفة، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٦م، ص ٢٧٧ـ ٢٧٩.

٥ـ العلم والتكنولوجيا في إسرائيل ١٩٨٠ ـ ١٩٨١م، ترجمات مختارة من مصادر عبرية، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٢م، ص ٤ ـ ٥.

٦ـ الجامعة المفتوحة في إسرائيل، ترجمة دار القدس، عمان، دار القدس للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص٧ـ٣٠.

7 - STATE OF ISRAEL. MINISTRY OF EDUCATION AND CULTURE: FACTS AND FIGURES ABOUT EDUCATION IN ISRAEL - 1996, JERUSALEM, 1996,P19.

٨ـ العلم والتكنولوجيا، مرجع سابق، ص ٢٠.

9 - STATE OF ISRAEL PP132-136 (مرجع سابق).

١٠ـ العلم والتكنولوجيا في إسرائيل ص ٢٠ـ٢١.

11- AMNON PAZY, HIGHER EDUCATION IN ISRAEL, IN: STRATEGIES FOR THE NATIONAL SUPPORT OF BASIC RESEARCH: AN INTERNATIONAL COMPARSION, JERUSALEM - THE ISRAEL ACADEMY OF SCIENCES AND HUMANITIES, 1995,PP666-667.

12 - AMNON PAZY, HIGHER EDUCATION IN ISRAEL, P306. (مرجع سابق)

١٣ـ خالد نجيب الشريدة وآخرون، دراسة الاحتياجات والإمكانات العلمية والتكنولوجية الوطنية، المرحلة الثانية، الإمكانات العلمية والتكنولوجية، عمان، المجلس الأعلى للعلوم والتكنولوجيا ـ الأمانة العامة، آذار ١٩٩٨م، ص٢١٩ ـ ٢٢٧.

14 - AMNON PAZY, HIGHER EDUCATION IN ISRAEL, P305. (مرجع سابق)

١٥ـ نزار الريس، العلم والتكنولوجيا في إسرائيل، مرجع سابق، ص٢١٨، ٢٢٣.

16 - AMNON PAZY, HIGHER EDUCATION IN ISRAEL, P307-308. (مرجع سابق)

١٧ـ المرجع السابق، ص٣٠٨.

١٨ـ المرجع السابق، ص٣٠٩.

١٩ـ نزار الريس، العلم والتكنولوجيا في إسرائيل، مرجع سابق، ص ٢٢٠ـ٢٢٤.

حضرموت
مقدمة لتاريخ قديم

هزاع بن عيد الشمري

حَضْرَمَوْت: اسم تاريخي قديم ليس له تحديد زمني معين، ولكنه يعني البلاد العربية الواسعة التي تقع في وسط جنوب الجزيرة العربية، ويعني حضارة عريقة سحيقة، تعد من مفاخر بلاد العرب قاطبة، ومن أهم الحضارات الإنسانية على مستوى العالم القديم كله.



وسأتناول في هذه المقالة الأثر الحضاري التاريخي لهذه البلاد العزيزة التي تكون اليوم عدداً من محافظات الجمهورية اليمنية.

وقبل الولوج في صميم الموضوع عليَّ الاعتراف أن هذه المقالة ستكون ناقصة جداً ولن تفي بالغرض المنشود، لأن حقائق حضارة حضرموت مازالت مطمورة لم تكتشف، وما حصلنا عليه ما هو إلا اليسير القليل منها.

اسم حضرموت

قال ابن منظور: (الحضرميَّة: اللُّكْنَةُ. وحضرموت: موضع باليمن معروف، ويقال للعرب الذين يسكنون حضرموت من أهل اليمن: الحضارمة)(١).

أما الأزهري فيذكر أنها سُميت حضرموت بحاضر بن سنان بن إبراهيم، وكان أول من نزلها(٢). وأمّا صاحب كتاب العبر فيذهب إلى القول: إنها كانت لعادٍ مع البحرين وعمان ثم غلب عليها بنو يعرُب بن قحطان، حين ولّى أولاده البلاد أعطى هذه ابنه حضرموت فعرفت به(٢). وقال الهمداني: نُسبت إلى حضرموت بن حمير الأصغر فغلب عليها اسم ساكنها(٣). وهنالك تعريف للاسم عند جواد علي، يستحسن إيراد نصه: (وكلمة: «هزرماوت» «حزرماوت» الواردة في التوراة على أنها الابن الثالث لأبناء «يقطان» تعني «حضرموت» ومعناها اللغوي «دار الموت».

ولعل لهذا المعنى علاقة بالأسطورة التي شاعت عند اليونان أيضاً عن «حضرموت» وأنها «وادي الموت»، وعرفت في الموارد الإسلامية كذلك، قال ابن الكلبي: اسم حضرموت في التوراة «حاضر ميت» وقيل: سميت بحضرموت بن يقطن بن عابر بن شالخ. ويذهب آخرون إلى أن حضرموت هو اسم ابن يقطن أو قحطان.. وبه سميت الأرض)(٤).

ولا يفوتنا ذكر تعاليل أخرى يتوافق بعضها مع ما مضى، وتختلف أخرى معها أوردها أحمد سعيد باحاج، ونصه: (سميت حضرموت نسبة إلى اسم أحد أبناء قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام* بن نوح، كان اسمه: حضر موت وكان أول من نزل الأحقاف. وإذا حضر حرباً أكثر القتل وسفك الدماء فصار يقال عنه إذا حضر مجلساً أو قتالاً «حضرموت» ولقب بذلك ثم أطلق هذا على الاسم «حضرموت»، ينسب الحضارمة أصل الكلمة إلى عدة أصول تاريخية لكنهم يفضلون أن ينسب اسم حضرموت إلى نبي الله هود بعد أن يئس من إصلاح قومه عاد. كانت آخر كلمات نبي الله هود عندما وافته المنية هي: «حضرموت».

وفي سفر التكوين عرف اسم حضرموت في الجزء العاشر تحت اسم «حزارماوث». أما الإغريق فكانوا يتداولون اسم حضرموت بلفظ «ادراميتا» في حين عرفت حضرموت في عهد الرومان ضمن المصطلح التاريخي «اليمن السعيد» أو «العربية السعيدة». تقول إحدى الأساطير اليونانية: إن رائحة اللُبان الذكر، الذي اشتهرت به حضرموت، كانت مميتة مما دعا إلى إطلاق اسم «أرض الموت» على الوادي الذي نبتت فيه هذه الشجرة، فسميت «حضرموت»، إلاّ أن لغويي العرب قرنوا اسم حضرموت بما أشيع عن هذه البلاد من أنها ضارة بالصحة، فقيل إن حضرموت اسم مركب من «حضر» بمعنى مدينة أو أرض و«موت»، على أن هناك بعض المصادر التاريخية التي تشير إلى أن اسم حضرموت إنما هو في الأصل اسم مهري كاسم «ديعوت» و«سيحوت» و«رخيوت» و«ضبوت..»)(٥).انتهى.

ولربما ورد اسم حضرموت تحت مسمى «أرض اللُبان والبخور والمر» أو «بلاد عاد» أو «الأحقاف» أو «مملكة كندة».

أقاليم حضرموت الأخرى

يشمل إقليم «حضرموت» بشكل عام جميع أصقاع حضرموت الأخرى ومخاليفها لكونه اسماً عاماً لها كلها، إلا أن هنالك مدناً تاريخية سُميت الأرضون التي حولها باسمها كمخلاف «شبوة» ومخلاف «أبين» و«المهرة» أو «الشحر» و«الأحقاف». وقد ارتبطت هذه المخاليف والأرضون بشخصية حضرموت التاريخية، ولكنها تارةً تأخذ شخصيةً خاصةً بها في عاديات من الزمن، وسنورد شيئاً عن هذه:

- الأحقاف: بلاد مشهورة في شمال حضرموت الآن، تغلب عليها الرمال الكثيرة الغزيرة، وكانت تسكنها عاد، وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام(٦) ويقال: إنه أول ملك العادية وكانت منازلهم في الأحقاف، ويقال: إنه أول من ملك من العرب وطال عمره وكثر ولده حتى قيل: إنه ولد أربعة آلاف ولد ذكر لصُلبه، وتزوج ألف امرأة وعاش ألف سنة ومئتي سنة، وقال البيهقي: عاش ثلاثمئة سنة(٧).

وفي لسان العرب: الأحقاف: جمع حقف وهو ما اعوج من الرمل واستطال. والحقف: أصل الرمل، وأصل الجبل، وأصل الحائط(٨).

- الشّحْر: ويعني: الشطّ، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن(٨)، أو معناه مأخوذ من شحر الأرض وهو سبخُ الأرض ومنابت الحموض(٩).

ويضرب المثل على حد الاستبعاد: لستَ بمعجز لنا ولو بلغت الشحر ولو حالت دونك يبرين، وبلَغت حضرموت(١٠) وكانت الشحر مدينةً قديمةً جداً.. ولاتزال، وهي ساحلية تقترب من المكلا شرقاً وبالقرب منها قرية «شحير» التي تقع في وادي «حويرة» أحد أودية حضرموت المشهورة. وصف ابن خُرداذبه (ت نحو: ٣٠٠هـ) الشّحر بقوله: «وهي من المراقي العظام ولا زرع بها ولا ضرع، وبها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين والزّنج والحبشة وفارس والبصرة وجُدّة والقُلْزم»(١١)، وهذا يعني أهميتها التجارية وقتذاك. وقال: إنها بلاد الكُندُر وأنشد(١١):

اذهبْ إلى الشّحْرِ ودَعْ عُمانا
إلاّ تَجدْ تَمْرًا تجدْ لُبانا

وأشار القلقشندي (ت:٨٢١) إلى أنه ينسب إليها العنبر الشحري الطّيّب(١٢)، وأن «قُضاعة» كان مالكاً لبلاد الشحر وقبره بجبل الشحر موجود، وهو قضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرة بن زيد بن مالك بن حمير(١٣)، وذكر المسعودي (ت:٣٤٦هـ) أن العنبر أكثره يقع إلى بلاد الزّنج وساحل الشحر من أرض العرب، وأن أهل الشحر أناس من قضاعة وغيرهم من العرب، وهم مهرة، ولغتهم بخلاف لغة العرب(١٤). وبها كثير من ولد نصر بن الأزد(١٥).

- قلت: ويطلق على أرض الشحر وبلادها: بلاد مهرة أيضاً، وهو مهرة بن حيْدان، أبو قبيلة، وهم حي عظيم من العرب من قبائل اليمن وصفهم الهمداني بأنهم ليسوا فصحاء، وأنهم غُتْمٌ يشاكلون العجم. وقال عنها ابن حوقل (ت: ٣٨٠هـ) - وهو جغرافي بدأ رحلته من بغداد سنة ٣٣١هـ، يوم الخميس ٧رمضان -: «بلاد مهرة فقصبتها تسمى الشحر وهي بلاد قفرة، ألسنتهم مستعجمة جداً، لا يكاد يوقف على كلامهم، وليس بها نخل ولا زرع وإنما أموالهم الإبل والمعز، والإبل الدواب، تعلف السمك الصغار المعروف بالورق، وهم وسائر حيوانهم لا يعرفون الخبز ولا يأكلونه، وأكلهم السموك والألبان والتمور، ولهم نُجُبٌ من الإبل تفضل في السير وحسن الرياضة على جميع النُجب. واللُّبان الذي يستعمل بالآفاق من هناك، وديارهم مفترشة به وبلادهم بواد نائية»(١٦). وتنسب إلى المهرة الإبل المهرية ثم العيدية، لبني العيد، قبيلة من مهرة، وهي من كرام الإبل وأشهرها على الإطلاق. وقد تسمى الإبل المهرية المعنبرة(١٧). كما تُنسب إلى المهرة نوع من الحنطة تُسمى «المهرية»(١٨).

- أبْيَن: بوزن أحمر، كانت قرية مشهورة على جانب البحر بالقرب من عدن. وقيل: هو اسم مدينة عدن(١٩) وكانت من المخاليف المشهورة، (وتيه أبين وبه «إرم ذات العماد» فيما يقال، وقد يقال: إن إرم ذات العماد دمشق لكثرة ما فيها من عمد الحجارة)(٢٠). وعن ابن ماكولا فإن أبين سميت باسم: أبين بن زهير بن أيمن بن الهُميْسع بن حمير(٢١).

- شَبْوَة: مخلاف مشهور ومدينته «شبوة» قديمة جداً كانت عاصمة حضرموت وكانت لحمير. ويوجد في العربية السعيدة أربع مدن تسمى شبوة غير هذه.

يقع إقليم شبوة غربي حضرموت، يميناً، وشبوة من أسماء العقرب(٢٢).

حضْرَموت والمؤرخون والجغرافيون التقليديون

يوجد الكثير من النصوص التاريخية والجغرافية التقليدية عن حضرموت

وتاريخها وجغرافيتها وسكانها أوردها المؤرخون والجغرافيون العرب المسلمون، وكذلك أوردها اللغويون والأدباء كُلاً على فنه، ويوجد عنها نصوص يونانية ورومانية وأخرى، مما يدل بتأكيد على أن هناك أهمية قصوى وحافلة بالأخبار والسير عرفنا من خلالها شيئًا غير قليل من قرى حضرموت ومدنها وأوديتها وأقاليمها ورجالها وتاريخها خصوصاً في حقبة ما يسمى بالعصر الجاهلي ومروراً بالإسلامي وما بعده. إلاّ أن مما يثير الاهتمام أيضاً هو وجود عدد غير قليل من المدن والقرى التي لا تزال تحتفظ بأسمائها التاريخية تتناثر في أودية حضرموت المتعددة وساحلها البحري الطويل، وهنالك صنوٌ لها طمرته السوافي ولكن أبقي ذكره المؤرخون والجغرافيون. كُلُّ ذلك يدلل على أهمية الأرض وبُعد تاريخها وكثافة سكانية متتابعة ومندثرة. ولعل المسعودي كان على حق حينما قال عن اليمن ومنه حضرموت: (في أهله همم كبار، ولهم أحساب وأخطار، مفايضه خصبة وأطرافه جدبة وفي هوائه انقلاب)(٢٣). فهذه أودية حضرموت من مفايض البلاد وهذه أحقاف حضرموت جدبة.

نحيل القارئ إلى كتب الجغرافية والتاريخ والبلدانيات التي تحدثت عن العالم القديم فعرّجت على ذكر العربية السعيدة أو انطلقت منها لكونها مهد العرب العاربة والعرب البائدة وأُمّاً غير نكرة بين الأمم القديمة. كما نحيله إلى كتب الأدباء اللسانيين المسلمين العرب، ففيها شواهد وذكر عامر عن لسانيات أهل حضرموت التي كانت خليطاً من اللغات العربية القديمة كالحميرية مثلاً، وبين العربية الفصيحة التي دونت بُعيد القرن الأول الهجري، وقد أشار الهمداني إلى شيء من هذا بقوله: (حضرموت: ليسوا بفصحاء، وربما كان فيهم الفصيح، وأفصحهم كندة وهمدان وبعض الصَّدف)(٢٤). فالقضية اللغوية دائماً قضية فهم ومعرفة وليست ملاحقة وتتبعاً.

كما نحيله أيضاً إلى دراستين مستفيضتين عن هذه البلاد، الأولى عامة والثانية خاصة؛ فأما العامة فهي التي قام بها «جواد علي» ضمن كتابه الفخم المهم «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» وفيها ما يغني عن ذكره هنا فقد أجاد واستقصى ونكتفي هنا بعبارته عن مملكة حضرموت (وعاصرت مملكة «معين» مملكة أخرى من ممالك العربية الجنوبية، هي مملكة «حضرموت»، وقد ظهرت قبل الميلاد أيضاً، وما زال اسمها حياً يطلق على مساحة واسعة من الأرض، فلها أن تفخر بهذا على الحكومات العربية الأخرى التي عاشت قبل الميلاد، ثم ماتت أسماؤها، أو قل


وادي دوعن (حضرموت الغربية)

ذكْرها قلة واضحة. وقد قطع اسمها مئات من الأميال قبل الميلاد، فبلغ مسامع اليونان والرومان وسجله كتّابهم في كتبهم أول مرة في القارة الأوربية، وكتب لذلك التسجيل الخلود حتى اليوم. ولكن سجلوه بشيء من التغيير والتحريف، اقتضته طبيعة اختلاف اللسان، أو سوء السماع أو طول السفر)(٢٥).

وأما الخاصة فهي التي قام بها أحمد سعيد باحاج في كتابه القيم «الرحلات والدراسات الجغرافية لحضرموت» وتناول الرحلات والدراسات التي قام بها العرب والأجانب لهذه البلاد بدءاً بأولاها التي قامت في القرن السادس عشر قبل الميلاد في عهد الفراعنة، مروراً برحلة الجغرافي والمؤرخ اليوناني «استرابو» الذي زار حضرموت في إحدى سني حياته «٦٣ق.م ـ ٢٤م». ثم توالي ذلك من الزيارات والاستكشافات والرحلات الجغرافية التي قام بها عدد غير قليل من الأوربيين وغيرهم لأغراض مختلفة ولكنهم أمدونا بمعلومات مهمة أشار إلى بعضها المؤلف، وذكر شيئًا من تاريخ البلاد وجغرافيتها وعمران مدنها وصوراً من هذا العمران الذي يبين الحال المتقدمة من العناية والتنسيق خصوصاً في أهم المدن حيث يشاهد بعض العمارات «ناطحات السحاب». كما ذكر بعض المكتشفات الأثرية، وختم كتابه بذكر رحلة «فيلبي» و«ثيسيجر» ١٩٣٩ ـ ١٩٤٦م.

على أننا نذكر أن آخر سلالة ملكية كانت بحضرموت في العهد الجاهلي هي: بنو معاوية الأكرمون وهم عدد من البطون، بنو معاوية بن كندة، منهم الملوك المتوجون، يقال كان فيهم سبعون ملكًا متوجاً، أولهم ثور ومرتع ابنا عمرو بن معاوية، وآخرهم الأشعث بن قيس وكان ابنه محمد بن الأشعث أحد أكابر أهل العراق زمن علي ومعاوية، وحفيده عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الذي ثار على عبدالملك بن مروان، ويظهر أنها ثورة لإسقاط قريش وإحياء مملكة كندة.

وقد وفد الأشعث بن قيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد أهل حضرموت فأسلم رضي الله عنه. وكان أول أمير على حضرموت في عهد الإسلام زياد بن لبيد الأنصاري من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بدريٌّ رضي الله عنه.

ـ ومن أودية حضرموت الشهيرة الخصبة: عَدْم: كانوا يزرعون عليه ففاض ماؤه قبل الإسلام(٢٦) وعبارة ابن منظور هذه تدل على أنه كان نهراً. ووادي المسيلة، ووادي حويرة، ووادي حجر، ووادي عمد، ووادي حضرموت، ووادي ميفعة، ووادي العين، ووادي دوعن، ووادي حمم، ووادي

لير، ووادي عرمة، ووادي ابن علي، ووادي يبعث. وتكاد هذه الأودية تطمر أسراراً مهمة للغاية من تاريخ البلاد لوجود قرى وآثار في باطن أرضها لم تعرف حتى الآن.

وبحضرموت قبر النبي هود عليه السلام وهو معروف قائم، وكذلك قبر صالح عليه السلام. وبها أيضاً من المعالم التاريخية العجيبة كما وُصفت:

- **بئر بَرَهُوت**، وهي من العجائب، وهي كما قال عنها ابن منظور: (بئر عميقة بحضرموت لا يستطاع النزول إلى قعرها ويقال: بُرْهُوت بضم الباء وسكون الراء فتكون تاؤها على الأول زائدة وعلى الثاني أصيلة)(٢٧). وعنها قال ابن حوقل: (وهو البئر التي لا يُعلم أن إنساناً نزلها)(٢٨) وقالت العرب: (أسحقه الله وأبعده والحق روحه بأرواح الكفار ببرهوت)(٢٩) وتقع برهوت بالقرب من قبر هود عليه السلام. وكانت برهوت من المناهل القديمة بجزيرة العرب.

- **والبئر المُعَطَّلة بـ «رَيْدة»** وصفها الهمداني بأنها من الآبار العجيبة(٣٠) ووصفها المسعودي بأنها من عجائب الدنيا وأنها البئر المعطلة وما فيها من الخَرق واتصالها بالقرى والفضاء من أعلاها وأسفلها وما قاله الناس فيها(٣١).

أما قصور ومحافد حضرموت المشهورة فذكر منها الهمداني: ظفار، هكر، ضهر، شبام، غيمان، بينون، ريام، براقش، معين، روثان، أرياب، هند، هنيدة، عمران، والنجير. وقد ذكرتها العرب في الشعر والمثل كما ذكرت غمدان، وتلفم، وناعط، وصرواح، وسلْحين باليمن(٣٢).

وأما مدن حضرموت التاريخية فنذكر منها:

- **المُكَلا**: بالتشديد. وتعني: شاطىء النهر ومرفأ السُفن، وهو ساحل كل نهر(٣٣).

- **مِرْباط**: بليدة على ساحل خَور ظفار وبجبالها ينبت شجر اللُّبان ومنها يُجهز إلى البلاد وهي قريبة من قبر هود(٣٤).

- **تَرِيم**: بفتح أوله ثم سكون. ذكرها الهمداني بأنها مدينة عظيمة. وبالكسر: موضع ببلاد تميم.

- **شِبام**: تقع بالقرب من سيئون كانت قصبة حضرموت. وكانت قلعة فوق جبل منيع فيه قُرى ومزارع كثيرة وفيه سُكان كثيرة وفيه معدن العقيق والجزع(٣٥).

ووصفها الهمداني بأنها مدينة كبيرة وأن بها ثلاثين مسجداً ونصفها خراب وهي لحمير(٣٦).

قلت: وشِبام أكثر من مدينة وموضع في



مدينة المكلا: أول محطة للرحالة في طريقهم إلى داخل حضر موت

اليمن أيضاً، وأما هذه فسميت باسم شبام بن السكون بن الأشرس(٣٧).

ونذكر من مدن حضرموت التي عدّها الهمداني:

هِيْنَن، صُوران، خَوْدُون، هَدُون، دَمُّون «مدن للصَّدَف» والهجران، وهما مدينتان متقابلتان في رأس جبل حصين يُطلع إليه في منعة من كل جانب يقال لواحدة: خيدون وخِوذُون كُلُّه يقال، ودمُّون وهي تثنية الهجر.

والهَجَر: القرية بلغة حمير والعرب العاربة(٣٨).

وأضاف الهمداني أيضاً قرى ومدن: سدْبة، حَوْرة «وهي مدينة عظيمة لبني حارثة من كندة» وقارة الأشبا، والمزين «قرية لحمير» ومدودة وتريس «مدينتان عظيمتان»، ومشْطة «قرية»، ومحا «قرية عظيمة» والعُجُز «قرية» وثوْبة «قرية بسفلي حضرموت تقع بوادي ثوْبة» ويَتْرِب «مدينة نزلتها كندة» وريدة العباد، وريدة الحَرميَّة للأحروم من الصدف، وشزن، وذو صبح «مدينتان بدوعن» وقبضين «لبني معاوية الأكرمين» والحيق، وتفيش «وهما للصدف». وعنْدل: وهي مدينة عظيمة للصدف، قال امرؤ القيس:

كأني لمْ ألهُو بدَمُّونَ مَرَّةً
ولم أشهدْ الغارات يوماً بعندلِ

ومن مدنٍ وقرى أبين القديمة ذكر: شوكان، وخنْفر «مدينة كبيرة» وخنفر «أخرى بحضرموت» أما خنفر أبين فهي زنجبار. والمضري، والرُّواع، والملحة، والمصنعة، والبادرة، والجثوة، والحجبور، والفَقّ، وبوزان، والشَّريرة، ونخع، والروضة، وحلمة، وإقليم لحج ومدينتها الحوطة.

ونحن أيضاً نعرف أسماء مدن كثيرة تاريخية متناثرة في مخاليف حضرموت، مثل: عتق بشبوة، وسيئون، وعدن وهي عدن أبين مشهورة وهنالك عدن لاعة بقضاء حجة ولودر بـ«أبين» وشقراء، وميفعة، والقطن، وسيحوت، وغيرها كثير.

وقد مر بنا أسماء مدن أخرى وستلحق أخريات. وكانت تقام بمدينة «إرم» وقرى حضرموت الأخرى أسواق العرب قبل الإسلام(٣٩) ولا تقام الأسواق إلاّ في المدن المزدهرة كالحال اليوم إذ تقام المعارض التجارية والثقافية.

واشتهرت حضرموت بالإبل الأصيلة التي عُني بها العرب وذكروها مثل المهرية والصَّدفية والصيعرية.

الجديد عن حضارة حضرموت القديمة

ولأن هذه الأرض واحدة من أهم أراضي الاستيطان البشري في العالم القديم بعامة، ومنطقة العرق العروبي بخاصة: فلا بدَّ أنها

استهوت علماء الحفريات والآثار للتنقيب عن عادياتها وكنوزها الدالة على أبعادها التاريخية السحيقة.

وهذا ما تم إذ نقبت بعثة آثارية فرنسية في منطقة «شبوة» حيث اكتشفت كثيراً من الآثار الدالة على استيطان حضاري مهم يحاكي حقباً تاريخية متتابعة ومنفصلة أيضاً، ولكنها بعيدة الجذور وغاية في الأهمية والتطور.

ولكن الأهم من ذلك هو ما قامت به البعثة الآثارية السوفيتية - اليمنية المشتركة من تنقيب وحفريات آثارية في حضرموت وسقطرة خلال الأعوام ١٩٨٣ - ١٩٨٥م، ويمكن تلخيص اكتشافاتها من خلال أبحاثها الميدانية بما يلي:

- (في جنوب غرب حضرموت «وادي دوعن وروافده» وكذلك في منطقة «لحج» اكتشف واحد وأربعون موقعاً من مواقع العصر الحجري، وجمعت نحو أربعة آلاف عينة من الأدوات الحجرية. وللمرة الأولى في شبه الجزيرة العربية يجري العثور على موقعين للأدوات التي ترجع إلى أقدم مرحلة من مراحل العصر الحجري، وهي المرحلة التي تسمى بالعصر الأولدوي الذي يبلغ عمر الطبقة العليا منه أكثر من مليون عام. وقد اكتشف بالقرب من هذه المواقع في وادي «الجبر» - الرافد الأيسر لوادي دوعن - ثلاث مغارات من العصر الحجري القديم التي تقع بعضها قرب بعض على كلتا ضفتي النهر القديم. وخلال دراسة المغارات المذكورة تم العثور على نحو «ألف» أداة حجرية وبقايا لموقدين للنار وكمية كبيرة من عظام الحيوانات الصغيرة والضخمة التي كان يصطادها سكان المغارات القدماء)(٤٠).

- (ومن خلال الدراسة الشاملة للمغارات في وادي «الغوزة» الجبلي اكتشفت أول آثار لكهوف عن العصر الحجري القديم يتم العثور عليها في شبه الجزيرة العربية)(٤٠).

- وأما (في غرب حضرموت «أودية دوعن، وضهر، وعمد، ورخية»، فقد اكتشف نموذج من الآثار التاريخية للمرحلة القديمة لم يكن معروفاً سابقاً في شبه الجزيرة العربية، وهو مدافن تتألف من عشرات المنشآت الواقعة على سطح الأرض والمبنية من الحجر الخام ولا يعرف حتى الآن تاريخ هذه المدافن والحضارة التي تخصها. ولكن من المؤكد أنها لا ترتبط بالحضارة الزراعية لجنوب الجزيرة العربية في الألف الأول قبل الميلاد، وإنما تعود على الأرجح إلى البدو الرعاة القدامى من سكان حضرموت)(٤١).

- كذلك (جرت للمرة الأولى - على يدي البعثة - دراسة أربعة أودية نهرية واسعة كانت مجهولة تقريباً حتى للخبراء المحليين



أطلال مدينة ريبون حفريات قصر لأحد وجهاء المدينة

وهي «وادي ضهر، ووادي رخية، ووادي القصر، ووادي العين» التي تشكل الروافد اليمنى لوادي حضرموت وقد أدخلت - بسبب ذلك - على الخريطة نحو «١٦٠» قرية وعشر مدن قديمة وعشرات القلاع التي يعود تاريخ معظمها إلى القرون الوسطى)(٤٢).

- و(عثرت البعثة عند منفذ وادي رخية إلى صحراء رملة السبعتين على أضخم مدينة قديمة في المشارف الغربية لوادي «حضرموت» والمعروفة باسم «بيرحمد» ووجدت فيها مواد كثيرة من النقوش والأواني ولوازم العبادة. وتبلغ أبعاد المركز الرئيس للمدينة ٢٠٠×٣٠٠متر، ويوجد فيه العديد من بقايا المباني التي شيدت من الطوب الطري. كما درست شبكة الري في الحقول المحيطة بالمدينة والتي تبلغ مساحتها نحو ٦٠٠ هكتار، كما أظهرت الحفريات التمهيدية للبعثة ركام معبد آلهة القمر «سن» على مساحة ٨ × ١٠ أمتار - وهو كبير معابد آلهة حضرموت في عصور سحيقة - ومعبد إله الشمس «ذات حميم»)(٤٣).

وفي أودية حضرموت الغربية، وادي «القصر» وغيره(عثرت البعثة على عشرين مدينة يعود عهدها إلى القرون الوسطى بما في ذلك القرون الوسطى المبكرة ٥ - ٧ وعلى منشآت للري والقبور، وبين الآثار المكتشفة التي يبلغ عددها أكثر من «مئة» ثمة شاهد قبري يرجع إلى عام ٣٦٦هـ «٩٧٦ - ٩٧٧م» وهذا الشاهد لا يزال حتى الآن أقدم عينة معروفة من النقوش الإسلامية في حضرموت)(٤٤).

- أما في (مدينة المدورة الواقعة غربي حضرموت في الطرف الغربي من وادي «القصر» وقد نشأت في فترة لا تتجاوز القرن الثامن الميلادي وفي أثناء التنقيبات والحفريات فيها؛ فقد عثر على العديد من المكتشفات العمرانية والآثار والمصنوعات(٤٥). والأمر كذلك في مدينة «صوعران» التي كانت تحمي مدخل وادي حضرموت والتي استولى عليها ودمرها على ما يبدو السبئيون نحو سنة ٣١٥م)(٤٦).

- وفي (مدينة «قنا» التي كانت الميناء الرئيس لجنوب الجزيرة العربية، الواقع على ساحل المحيط الهندي - بحر العرب - في حضرموت ويرجع تاريخ بناء مينائها إلى أواخر القرن الأول قبل الميلاد وتجديد تشييد المباني المتأخرة بالفترة الواقعة بين القرون ٣ - ٥م، اكتشف في آثارها على نقود برونزية سك أحدها أيام الدولة «المعينية» التي سقطت نحو عام ١٢٠ق.م، وعدد كبير من حطام الأواني الزجاجية المستوردة والأباريق المضلعة ومجموعات فخارية، ويرجح الباحثون أن ميناء «قنا» كان

يستخدم قبل وقت طويل من ظهور البحارة والتجار اليونانيين كميناء للسفن المحلية التي كانت تقوم بالملاحة الساحلية وتنقل بصورة خاصة العطور من المناطق الشمالية الشرقية لملكة حضرموت «المهرة وظفار» وكمحطة أخيرة لطريق العطور الذي يمر عبر الجزيرة العربية كلها. ولكن ميناء «قنا» لم يحصل على الشهرة العالمية إلا على تخوم القرنين الثاني والأول ق.م. وذلك مع بداية الرحلات التجارية البحرية المنتظمة التي كان يقوم بها التجار اليونانيون من سواحل الجزيرة العربية إلى الهند)(٤٧).

- وأما في (أنقاض مدينة «ريبون» وكانت مدينة كبيرة خلال الألف الأول قبل الميلاد والقرون الأولى للميلاد، وتقع قرب مصب وادي «دوعن» وتشغل مساحة نحو عشرة هكتارات وتضم أربع مستوطنات ضخمة تحيط بها بقايا حقول قديمة وشبكة ري متطورة ومدافن كبيرة قديمة وعدة معابد تقع قرب المستوطنات وعلى منحدرات الجبال، وكانت المدينة بمنزلة مستوطنة مركزية لمجموعة كبيرة من السكان المشتغلين بالزراعة. ويوجد في المستوطنة الرئيسة «ريبون ١» بالأبعاد «٤٥٠×١٧٠×٤٥٠» متراً أكثر من ثلاثين مجموعة بناء وبئران)(٤٨). كما (تم الكشف عن معبد «١ر١٣×٥ر١٥ متراً في الضاحية الشمالية مكرس لآلهة الخصب «عثترم»، «عثترم ذات حضران» ومعبد آخر في الطرف الغربي من المدينة كان قد شيد تكريماً لإله الشمس «ذات حميم» بالإضافة إلى أربعة مبان سكنية ضخمة. وقد عُثر على أكثر من ألف شاهد من الشواهد الكاملة والحطام التي تعود إلى الفترة الواقعة بين الألف الثامن قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي، ويتضح تماماً من مضمون هذه الشواهد أن المبنى «١» كان معبداً لآلهة الأمومة والحب «عثترم». أما المباني «٢-٤» فقد كانت تشكل مجموعة المعابد التي شيدت تكريماً لواحدة من أبرز آلهة جنوب الجزيرة العربية آلهة الخصب «ذات حميم» وفي ذات الأحيان، خصوصاً في النقوش القديمة تلقب بـ «ذات سحران».

وتذكر نقوش «ريبون» عدداً كبيراً من أسماء سكان المدينة القديمة وتتيح لنا أحياناً إلقاء نظرة سريعة على تاريخ بعض الأسر خلال جيلين أو ثلاثة. كما تمكن من استمداد معلومات غير قليلة من النقوش التي تتحدث عن الحياة الثقافية لمنطقة كبيرة مزدهرة(٤٩). ويُغلب الباحثون أنه كان لدى المعبد الرئيس لمنطقة «ريبون» كلها - معبد الإله «سن» مدرسة لإعداد الكتبة والنساخ حيث كانت تُدرس على نحو دقيق اللغة والمبادئ الأساسية لكتابة الإشارات ويُحافظ بصرامة على القواعد التقليدية للنحو والصرف والكتابة.

إن النقوش المكتشفة في معبدي «ريبون» تشكل حلقة غير مألوفة من تطور الكتابة وفي المقام الأول تطور أسلوب الكتابة مما يضع في أيدي العلماء عنصراً مهماً جداً للتحقق من نظام الكتابة القائم بالنسبة إلى بناء التسلسل الزمني التقريبي لتاريخ جنوب الجزيرة العربية القديم)(٥٠).

(ومن خلال إنجاز دراسة شبكة الري في مدينة «ريبون» القديمة التي قامت بها البعثة فقد تبين أن هذه الشبكة كانت تستفيد من مياه الأمطار الموسمية التي كانت تملأ الأودية وتتدفق من منحدرات الجبال، وكانت تعتمد على التقاء القنوات الرئيسة ذات الامتداد الطويل مع شبكات أنظمة توزيع المياه التي تحول المياه إلى الحقول المزروعة وتؤمن الاستفادة الكاملة من مياه الفيضانات لأغراض الري. وقد عثر على بقايا سدٍّ ضخم. وتبين أن مجموع المساحة الإجمالية للأراضي التي كانت تزرع بفضل منظومة الري المذكورة بلغ في منطقة «ريبون» نحو ١٥٠٠هكتار)(٥١).

- (إن العديد من مصنوعات العصر الحجري التي عثر عليها في هذه المناطق من شبه الجزيرة العربية وكذلك الاكتشافات التي قامت بها البعثة السوفيتية اليمنية المشتركة خلال الأعوام ١٩٨٣ - ١٩٨٥م تدل على أن الجزيرة العربية، وقبل كل شيء القسم الجنوبي منها، كانت مأهولة بالإنسان البدائي في أبكر مراحل نزوحه من إفريقية قبل أكثر من مليون عام، وبقيت مأهولة على مدى عصور التاريخ البدائي كافة)(٥٢).

الهوامش والمراجع

١- لسان العرب(مادة حضر).
٢- صبح الأعشى، القلقشندي، طبعة دار الكتب/مصورة، ٤٢/٥.
٣- صفة جزيرة العرب، الهمداني (ت نحو ٣٤٤هـ) بتحقيق الأكوع، دار اليمامة بالرياض ١٣٩٤هـ،ص١٦٧.
٤- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ط١، سنة ١٩٦٩م، ٢ /١٣٠.
- هو أبو العرب. لسان (سوم).
٥- الرحلات والدراسات الجغرافية لحضرموت، أحمد سعيد باحاج، جدة سنة ١٩٨٨م، المقدمة.
٦- صبح الأعشى، ٣١٣/١.
٧- نفسه، ١٨/٥.
٨- لسان العرب(حقف).
٩- صفة جزيرة العرب، ص٦٤.
١٠- نفسه، ص٣٦٦.
١١- المسالك والممالك، ابن خُرداذبة (ت:٣٠٠هـ)، المثنى ببغداد مصورة.
١٢- صبح الأعشى،٣ /٢٤٣.
١٣- نفسه، ٣١٦/١.
١٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي (ت:٣٤٦هـ) مكتبة السعادة بمصر.
١٥- صفة جزيرة العرب، ص٣٧٤.
١٦- صورة الأرض (وكان اسمه: المسالك والممالك والمفاوز والمهالك)لابن حوقل، مكتبة الحياة ببيروت.
١٧- صفة جزيرة العرب، ص٣٦٢.
١٨- لسان العرب (مهر).
١٩- نفسه.
٢٠- صفة جزيرة العرب، ص١٤٦.
٢١- مجموع بلدان اليمن، ص٥٥.
٢٢- نفسه، ص٤٤٥.
٢٣- مروج الذهب.
٢٤- صفة جزيرة العرب، ص٢٧٧.
٢٥- المفصل في تاريخ العرب، ١٢٩/٢.
٢٦- لسان العرب.
٢٧ لسان العرب.
٢٨- صورة الأرض.
٢٩- صفة جزيرة العرب، ص٣٦٦.
٣٠- نفسه، ص٣٦١.
٣١- مروج الذهب، جـ ٢ ص٢٦١.
٣٢- صفة جزيرة العرب، ص٣٦٥، بتصرف.
٣٣- لسان العرب.
٣٤- صبح الأعشى، ١٥/٥.
٣٥- نفسه، ص٤٣.
٣٦- صفة جزيرة العرب.
٣٧- مجموع بلدان اليمن وقبائلها، القاضي الحجري، تحقيق: إسماعيل الأكوع، دار الحكمة اليمنية، ص٤٤٢.
٣٨- صفة جزيرة العرب، ص١٦٩.
٣٩- صبح الأعشى،١ /٤١١.
٤٠- الجديد حول الشرق القديم، مجموعة باحثين، دار التقدم بموسكو سنة ١٩٨٨م، ص٢٢٤.
٤١- نفسه، ص٢٢٦.
٤٢- نفسه، ص٢٣٤.
٤٣- نفسه، ص٢٣٥.
٤٤- نفسه، ص٢٣٩.
٤٥- نفسه، ص٢٣٨.
٤٦- نفسه.
٤٧- نفسه، ص٢٣٨.
٤٨- نفسه، ص٢٢٧، بتصرف.
٤٩- نفسه، ص٢٢٩.
٥٠- نفسه، ص٢٣٠.
٥١- نفسه، ص٢٣٢.
٥٢- نفسه، ص٢١٩.

اهتمامات الأديب الإسباني غارثيا لوركا بالموريسكيين

صبيح صادق

في عام ١٩٢٩م كتب لوركا من نيويورك إلى أهله رسالة يقول فيها: إنه يقول للعائلة التي يسكن معها: «إنني أنحدر من عائلة عربية عريقة»(١).

هذا الادّعاء يدعونا إلى السؤال: لماذا كان لوركا يفخر بكونه موريسكيًا؟

وقبل ذلك في عام ١٩٢٥م يرسل صورته وهو بلباس عربي إلى صديق له ويعلق عليها: «لو أنك ترى كيف هي الأندلس»(٢). كل هذا يدعونا إلى السؤال لماذا كان يشعر لوركا بأنه عربي؟

احتفلت الأوساط الثقافية في العام الماضي بالذكرى المئوية الأولى لميلاد الكاتب الإسباني فدريكو غارثيا لوركا المولود عام ١٨٩٨م في بلدة فوينتة باكيرو بمدينة غرناطة، وهو أحد أبرز الأدباء الإسبان في القرن العشرين، والمحكوم عليه بالإعدام في عام ١٩٣٦م في الحرب الأهلية الإسبانية.

قد يكون طبيعيًا التغني بالعرب وبغرناطة، فهناك العديد من الشعراء الذين تغنوا بهذه الرموز، ولكن قد يبدو غريبًا الاهتمام بالموريسكيين والافتخار بهم وبالانتماء إليهم في وقت كان العديد من المفكرين الإسبان ينعتون الموريسكيين بالخيانة وبكل صفات الدونية، فها هو ذا المفكر الإسباني مننَدث بلايو مثلا يصف الموريسكيين بقوله: «على الرغم من أن ثقافة أتباع الدين المحمدي العلنيين كانت عائقًا لكل حضارة فإن أسوأ منهم مئة مرة المسيحيون المزيفون المرتدون الخائنون، وفضلاً عن ذلك فإنهم من الرعية السيئة ومن الإسبان الأشرار»(٣).

إن أول مرة سمع فيها لوركا عن المناطق التي سكنها الموريسكيون كانت عندما كان طفلاً صغيرًا، وقد كتب لوركا بأن عرّابه وهو شيخ كبير في السن كان يقص عليه قصصًا عجيبة ملأى بالمغامرات في وادي البشرات LAS ALPUJARRAS.

في عام ١٩١٧م كتب لوركا عن ذكرياته مع هذا الشيخ عندما كان يزور عائلة لوركا في كل ليلة وهو طفل صغير قائلاً:

«كان يجلسني على ركبتيه، وبينما كان الآخرون يتحدثون بحماسة، كان هو بصوته الجميل الهادئ يقص عليّ قصصًا بديعة، ولكن أكثر ما كان يعجبني هو الحديث حول صراعه مع الذئاب عندما كان شابًا في وادي البشرات ALPUJARRAS LASA(٤)».

ولم يكن اهتمام لوركا اهتمامًا أدبيًا فقط، بل تعداه إلى الاهتمام الفعلي في البحث عن أماكن الموريسكيين وتسجيل ملاحظات حولهم، وهذا يتضح من خلال كتاباته، ومن خلال رسائله المتبادلة مع أصدقائه.

إن أقدم إشارة وصلتنا من لوركا حول وادي البشرات(٥) تعود إلى عام ١٩٢٢م من خلال رسالة كتبها لوركا من قرية الشكروجة ASQUEROSA إلى أستاذه مانويل دي فايا التي يدعوه فيها إلى القيام برحلة إلى هذه المناطق: «أنا متحمس لبرنامج السفر إلى وادي البشرات، وإن حضرتك على علم بالأمل الكبير الذي أعول عليه.. إن العاطفة الأندلسية تملؤني فأنا متشبع بعاطفة شعبية ممتازة، أظن أن علينا أن نحقق هذا المشروع بجدية»(٦).

ثم يضيف لوركا بأنه سيحمل معه بعض مشاريعه إلى هناك ولكنه لا ينسى مشروعاً موريسكياً أيضاً، يقول: «إذا ذهبنا إلى وادي البشرات يجب حمل موضوع موريسكي أيضـاً، ومن الممكن أن يكون موضوع ابن أمية، وبإمكاننا نحن أن نضيف لمسة من الحب لهذه المسألة ويمكننا أن نعمل فناً نظيفاً بلا خطايا»(٧).

ولا نملك حتى الآن أية وثائق أو إشارات تدل على عودة لوركا إلى هذه الفكرة، ما بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٦م، ويبدو أن مشروعه قد تعثّر حتى عام ١٩٢٦م، ففي هذه السنة يكتب إلى صديق آخر له وهو رخينو ساينث دي لاماثا REGINO SAINZ DE LAMAZA يعرض عليه فكرة السفر معه إلى وادي البشرات بمصاحبة مانويل دي فايا، يقول لوركا: «كم هو رائع أن نخطط نحن الثلاثة السفر إلى وادي البشرات»(٨).

وقد تحققت فعلاً هذه الرحلة إذ إننا نجد في الرسالة التي كتبها لوركا إلى أخيه فرانثيسكو في شهر فبراير/ شباط من عام ١٩٢٦م يطلعه فيها على نشاطاته التي قام بها خلال رحلته، كتب لوركا «قمنا برحلة رائعة إلى وادي البشرات، وقد وصلنا إلى أعماقه، بقينا يومين، كانت الرحلة سريعة بدعوة من بيبه سكورا PEPE SEGURA، لم أجد شيئاً أكثر غموضاً وغرابة، يبدو لي كذباً القول إن هذه المنطقة موجودة في أوربا»(٩).


غارثيا لوركا

يحدد لوركا العناصر البشرية التي رآها فيقول: «العناصر البشرية الموجودة هناك هي من الجمال بشكل يفوق التصور. سوف لا أنسى أبداً أهل مدينة كانيار CA-NAR (أعلى قمة في إسبانيا) وغسالات الملابس وهن يغنين، ورعاة كئيبين. وبالمعنى الحرفي فليس هناك أكثر جدة. هناك طبعاً عنصران متميزان بشكل واضح، العنصر الشمالي: عنصر جليقي واستورياني إلخ.. والعنصر الموريسكي الباقي بشكل نقي. رأيت بنتاً هي من الجمال كجمال ملكة سبأ، تنثر الذُرة على حائط بلون بني وبنفسجي.

هنا لا توجد وسائل للاتصال، الناس رقيقون، كرماء، باستثناء موظفي البلدية، الناس عندهم اطلاع على جمال البلد، (الموريسكيون هنا في كلامهم) يضعون نبرة عميقة لكل مقطع، فهم يقولون في كلمة صباح الخير DIAS BUENOS(١٠).

ويُبدي لوركا سروره لأن هذه المناطق لا تزال على هيئتها من دون مسخ أو تغيير، وبعيدة عن الزوار والرحالة الأجانب، كتب لوركا: «الحمد لله لقد مرّ الزمن على عصر الرومانسية، ولا نجد اليوم لا رحالة فرنسيين ولا إنجليز يتطلعون للقيام برحلات على الأسلوب الغنائي، من هنا يمكن المحافظة على وادي البشرات بشكل جيد».

«أمس كُنا في مدينة كالاورا CALAHORRA مع سيارتنا فيات، جاء معنا فايا FALLA وبالديكاساس VAL-DECASAS ولونا LUNA وتورس لوبث TORRES LOPEZ وسكورا SEGURA، كان يوماً مشهوداً»(١١).

يشير لوركا أيضاً في الرسالة إلى الاهتمام الذي أبداه مانويل دي فايا بأحدث البيوت الموريسكية في مدينة وادي آش GUA-DIX، يقول: «عند عودتنا مررنا بالأسقفية ومدينة وادي آش GUADIX الكئيبة، لقد كان فايا متأثراً، وعند مرورنا بشارع سانتا ماريا دي لا كابيثا SANTA MARIA DE LA CABEZA ذي الطابع الإسباني البحت رأينا بيتاً لا يزال على هيئته، إنه بيت الزغل ZA-GAL ذو التصميم الموريسكي، إن إسبانيا لا تُستنفد على الرغم من أن الأمريكان يستولون عليها شيئاً فشيئاً»(١٢).

وقد تكررت رحلات لوركا إلى هذه المناطق عدة مرات بعد ذلك ففي أغسطس/آب عام ١٩٢٦م كتب بطاقة بريدية تحمل صورة مدينة LANJARON - إلى صديقه خورخة كيين JORGE GILLEN يقول فيها بأسلوب شاعري: «أنا في سيرا نيفادا SIERRA NEVADA وأذهب في كثير من الأحيان مساء إلى البحر، كم هو غريب الجزء الجنوبي من البحر الأبيض المتوسط. الجنوب، الجنوب (إنها كلمة رائعة، الجنوب) إنه من أكثر الخيالات التي لا تُصدق، والتي تتطور بشكل معقول ورصين. إن ملامح الأندلس تختلط مع ملامح شمال ثابت وصاف»(١٣).

ثم يكتب بطاقة بريدية أخرى، في السنة نفسها، من مدينة لانخرون LANJARON أيضاً إلى أخت الرسام سلفادور دالي آنا ماريا يصف فيها المنطقة بقوله: «البحر الأبيض المتوسط منطقة واحدة لا تتجزأ»(١٤).

بعد ذلك بعام، أي في سنة ١٩٢٧م أرسل لوركا بطاقة

بريدية من مدينة لانخرون LANJARON إلى صديق له في برشلونة يقول له: «جبال الثلج سيرا نيفادا التي تقع في قلب روح إفريقية. كل العيون ها هي إفريقية تماماً، مع خشونة وروح شعرية تجعلان من البحر الأبيض المتوسط صامداً.

الأندلس غريبة بربرية(١٥)

في أغسطس/آب من عام ١٩٢٧م كتب لوركا من مدينة لانخرون إلى صديقه سيباستيان كاش SEBAS-TIAN GACSH بطاقة بريدية يقول فيها: «أنا في لانخرون في جبال الثلج SIERRA NEVADA على باب وادي البشرات LAS ALPUJARRAS، وكما يلاحظ في صورة البطاقة البريدية فإن ملامح أهل البلدة الغريبة شبيهة تقريباً بالصينية. أظن أنني سأستطيع العمل»(١٦).

ثم في رسالة إلى الصديق نفسه من لانخرون يقول له فيها: «أنا الآن أعمل في مدينة لانخرون، إن اللفظ الموريسكي واضح في لهجات كل الناس، هنا تأتي رياح، رياح من إفريقية التي ترى ضبابها بمجرد النظرة البسيطة إليها. ليس هناك من شك في وجود مسحة حنين هنا، إنها ضد الأوربية، ولكن ليست شرقية، إنها الأندلس»(١٧).

في ٢٤ مارس/آذار من عام ١٩٢٨م يكتب لوركا إلى صديقه خورخه كيين JORGE GUILLEN: «أنا الآن في قمة وادي البشرات LAS ALPUJARRAS حيث ذهبت مع صديقين لي، إلى جانبي الدليل، إن المنطقة عجيبة. من هنا لا يمكن رؤية جبال الثلج SIERRA NEVADA أبداً. متى سنذهب معاً إلى هذه المناطق؟ هنا حيث تنعدم الملامح الأوربية، ما هذا؟.

أظهر في الصورة جدياً لأنني أعبر عن دهشتي»، وفي ظهر الصورة الأخرى يكتب لوركا: «أنا هنا في بلدة بيترس PITRES بلدة بلا صوت ولا حمامات جبلية»(١٨).

بعد عام ١٩٢٨م لم نعثر على إشارات من لوركا حول زياراته لهذه المناطق، ولكن هذا لا يعني أنه أهمل القضية الموريسكية فها هو ذا عام ١٩٣١م في مقابلة صحفية معه يقول: «لكوني من غرناطة فإنني أشعر بالميل المتفهم والمتعاطف مع الملاحقين: الغجر، السود، اليهود.. الموريسكي، فكل هؤلاء نحملهم في داخلنا»(١٩).

مؤثرات في لوركا

هناك عدة عوامل ساعدت على أن يزداد اهتمام لوركا بالموريسكيين وبمناطقهم التي عاشوا فيها وبانحيازه إليهم، أولها في رأينا، العامل العائلي، وبالذات أمه التي كانت معلمة، وفضلاً عن هذا كان لها نشاط اجتماعي يتمثل في تعليم أهل القرية ومساعدة فقرائها، ويروي لوركا أنه كان في بعض الأحيان يحمل بعض المساعدات إلى فقراء القرية، يقول في إحدى كتاباته عام ١٩١٧م: «لماذا يتحسس قلبي أكثر كل ما هو إنساني»(٢٠).

كانت أم لوركا هذه مريضة، وكان عليها أن تذهب باستمرار إلى مدينة لانخرون للمعالجة، ومن جهته كان لوركا متعلقاً بها جداً، فكان يذهب معها لزيارة تلك المناطق ويطلع عليها عن كثب، بالإضافة إلى ذلك فإنها عندما كانت صغيرة كانت تعيش في شارع كامباناس (رقم ١١) خلف بيت عائشة أم الملك عبدالله ملك غرناطة، الذي هدم كي يبنى مكانه دير كومندادورس دي سانتياغو(٢١)، ولا شك أن أم لوركا قد تحدثت مع ابنها حول هذه المسألة.

عامل آخر أثر في نظرة لوركا هو أن عرّابه وهو شيخ كبير في السن كان يعيش في وادي البشرات، وكان يقص على لوركا وهو طفل قصصاً حول مغامراته في تلك المناطق، فنمّى في لوركا حب الطبيعة وخصوصاً طبيعة تلك المناطق، يعلق لوركا حول أثر الشيخ فيه بقوله: «لن أنساك أبداً.. أنت الذي غرس في حب الطبيعة»(٢٢).

وليس أقل من هذا أهمية روحه الغرناطية الأندلسية، واهتمامه بتاريخ غرناطة والأندلس الذي يشكل الموريسكيون جزءاً مهماً منه. ولهذا ليس غريباً تفكيره في أن يدرس في الجامعة العربية والعبرية، يضاف إلى ذلك اهتمامه بقراءة الشعر العربي المترجم إلى الإسبانية مثل كتاب قصائد آسيوية للكونده دي نورونيا DE NORONA CONDE، وقد أشار لوركا إلى مقاطع من الكتاب في موضوع له حول غناء الكانته خوندو(٢٣).

كان اعتزاز لوركا بتاريخ غرناطة شديداً للغاية، ونقتصر على ذكر حادثة رواها صديقه سباستيان كاش SEBASTIAN GASCH عندما كان لوركا في برشلونة عام ١٩٢٧م، وفي عصر أحد الأيام صاحبه إلى مجمع برشلونة، وهناك قام كاش بتقديم لوركا إلى الأعضاء المتحدثين وهم حسب تعبير كاش «الأكثر شهرة ورعباً»، يقول كاش: «بعد التقديم المتقن وكلمات المجاملة الموجزة، سأل أحد المتحدثين لوركا باللهجة نفسها التي كما لو كان قد تقدم للحديث مع شخص أجنبي:

ـ من أين أنت، أيها الشاب؟

وفي تلك اللحظات، في وقت دكتاتورية الجنرال بريمو دي ريبيرا PRIMO DE RIVERA كان الشعور القومي

الكتلاني من التعصب الشديد بمكان، لوركا الذي لم يكن بتلك البلادة، التقط في الحال النية القومية المعصبة للسؤال، فرفع ذراعه فقط كما كان يفعل كعادته عندما يتعلق الأمر بأمرٍ مهم وأجاب محاوره بلهجة بين التحدي والافتخار:

- أنا من مملكة غرناطة»(٢٤).

ولم يكن قوله هذا اعتباطاً ففي عام ١٩٢٨م عندما كان يسأله أحد الصحفيين عن الأجيال الأدبية التي مرت بها غرناطة، يبدأ لوركا بتعدادها تاريخياً حتى يصل إلى الأديب بدرو دي روخاس PEDRO DE ROJAS، عندما يسأله الصحفي والأمير عبدالله (آخر ملوك غرناطة) يرد لوركا: نعم: الأمير عبدالله(٢٥).

وكان لوركا من السباقين إلى الدعوة إلى إنشاء نصب تذكاري للعالم الغرناطي ابن طفيل، ففي إحدى رسائله تحدث حول الموضوع ولكن للأسف لم يتحقق له ما أراد(٢٦).

وكان الموسيقار مانويل دي فايا قد دفع لوركا إلى أن يدرس غناء (الكانته خوندو) الغناء العميق للتدليل على وجود علاقة بينه وبين الموسيقى العربية، وهو ما دفع لوركا إلى أن يطلع أكثر على الشعر والتاريخ العربيين. فضلاً عن هذا، فإن مانويل دي فايا نفسه كان مهتماً بالتراث الأندلسي ومنه التراث الموريسكي، وكمثال عليه اهتمام مانويل دي فايا ببيت الزغل في مدينة وادي آش حسب رواية لوركا.

المراجع والهوامش

1 - GARCIA LORCA, FEDERICO: EPISTOLARIO, A SU FAMILIA, 22 DE AGOSTO (OBRAS COMPLETAS), EDICION DE MIGUEL GARCIA - POSADA, AKAL, MADRID, 1994, VOL. VI, 2, P. 1078.

2- LUIS CANO, JOSE: GARCIA LORCA, EDICIONES DESTINO, BARCELLONA, 2o ed. 1974, P. 52.

من المؤسف أن رسائل لوركا إلى صديقه بيبين بيّو PEPIN BELLO لم يصل أغلبها إلينا، وكان بيبين هو الذي التقط للوركا الصورة وهو يرتدي اللباس العربي، وعلى الصورة تظهر كتابة للوركا يقول فيها لصديقه: تتذكر غرفتنا في دار إقامة الطلاب (١٩٢٤ - ١٩٢٥) (يقصد ١٩٢٣ - ١٩٢٤).. أية ذكرى، إنها مثل الحمامة التي يعيش نصفها ونصفها الآخر حالم، بماذا تذكرك صورتي المشرقة هذه» راجع:

GIBSON, IAN: FEDERICO GARCIA LORCA, GRIJALBO, COLECCION 80,3O ed. BARCELONA, 1985. VOL. I, PL 359.

علق الباحث إيان جيبسون على رسالة لوركا بقوله: «من الطريف التدليل كيف أن نضج الرغبة أو الحاجة بمرور الزمن عند الشاعر (لوركا) يتزين من حين لآخر بزي مسلم غرناطي، كما لو أنه بهذا يؤكد مصاهرته الروحية مع أولئك الذين سكنوا في السابق قصر الحمراء وحي البيازين».

راجع:

GIBSON: FEDERICO GARCIA LORCA, VOL. I, Pl 359.

3- MENENDEZ PELAYO: HISTORIA DE LOS HETERODOXOS ESPNOLES, IV, NUEVA EDICION, C S I C. MADRID, 1947, P. 339 (1o ed MADRID, 1880 - 1882).

نقلاً عن كتاب:

GALMES DE FUENTES, ALVARO: LOS MORISCOS (DESDE SU MISMA ORILLA), INSTITUTO EGIPCIO DE ESTUDIOS ISLAMICOS, MADRID, 1993, P. 33.

4- GARCIA LORCA, FEDERICO: MI PUEBLO, OBRAS COMPLETAS, VI, PROSA 1, P. 43.

٥- حول وادي البشرات في العصر الحديث يمكن مراجعة:

CARRSCOSA SALAS, MIGUEL: LA ALPUJARRA, UNIVERSISDAD DE GRNADA, 2 VOL., 1992.

وحول العديد من مناطق الموريسكيين يمكن ملاحظة كتاب:

ASENJO SEDANO: CARLOS: PUEBLOS E IGLESIAS DE GRNANADA, SIGLO XVI, LA TIERRA DE GUADIX, UNIVERSIDAD, 1992.

6- GARCIA LORCA, FEDERICO: EBISTOLARIOS, A MANUEL DE FALLA, OBRAS COMPLETAS, VI, PROSA 2, P. 790.

7- GARCIA LORCA: OB. CIT, P. 790.

8- GARCIA LORCA: EPISTOLARIO, A GERARDO DIEGO, OBRAS COMPLETAS. VI, P. 887.

9- GARCIA LORCA: EPISTOLARIO, A FRANCISCO GARCIA LORCA, OBRAS COMPLETAS, VI, PP. 889.

١٠- المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

١١- المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

١٢- المصدر نفسه ص ٨٩٠.

13 - GARCIA LORCA: EPISTOLARIO, A JORGE GUILLEN OBRAS COMPLETAS PROSA 2, P. 901.

14- GARCIA LORCA: EPISTOLARIO, A ANA MARIA DALI, OBRAS COMPLETAS, VI, PROSA 2, 901.

15- GARCIA LORCA: EPISTOLARIO, A UN AMIGO DE BARCELONA, OBRAS COMPLETAS. VI, PROSA 2, P. 985.

16- GARCIA LORCA: EPISTOLARIO, A SEBASTIAN GASCH, OBRAS COMPLETAS. VI, PROSA 2, P. 986.

17- GARCIA LORCA: EPISTOLARIO, A SEBASTIAN GASCH OBRAS COMPLETAS. VI, PROSA 2, P. 988.

18- GARCIA LORCA: EPISTOLARIO, A JORGE GUILLEN, OBRAS COMPLETAS. VI, PROSA 2, P. 1013.

19- ESTAMPA DE GARCIA LORCA, ENTREVISTA DE GIL BENUMEYA PUBLICADA EN LA GACETA LITERARIA, MADRID, 15. I. 1931. OBRAS COMPLETAS, VI, PROSA 1, P. 506.

20- GARCIA LORCA: ESTADO SENTIMENTAL, (OBRAS COMPLETAS), PROSA 1, P. 50.

21- GIBSON; OB. CIT., I, P. 42.

22- GARCIA LORCA: FEDERICO: OP. CIT, P. 46.

٢٣- حدثني أستاذي الدكتور خوسيه ماريا فورنياس أستاذ كرسي في جامعة غرناطة وهو بدوره تلميذ المستشرق غارثيا غومث، قال لي إنه في أحد أحاديثه مع أستاذه غارثيا غومث قال الأخير له بأنه عندما كان في غرناطة قال للشاعر لوركا: إنه متأثر بالترجمات التي يقوم هو بها (أي ترجمات غارثيا غومث) لنصوص الشعر العربي، ولكن لوركا أنكر أن تكون ترجمات غارثيا غومث قد أثرت فيه.

24 - FEDERICO GARCIA LORCA, CARTAS A SUS AMIGOS, ED. DE SEBASTIAN GASCH, 10-11, EDICIONES COBALTO, BARCELONA, 1950. COPIAMOS ESTE TEXTO DEL LIBRO DE GUIBSON, I, P. 477.

25- GARCIA LORCA: OBRAS COMPLETAS, VI, PROSA, 1. P. 493.

راجع ترجمة عربية كاملة للمقابلة مع لوركا في:

«لوركا في مقابلة أجريت معه قبل سبعين عاماً» صبيح صادق: صحيفة الشرق الأوسط عدد (٧٠٨٥) يوم ٢٢ من شهر شباط/فبراير سنة ١٩٩٨م، ص٢٠.

٢٦- في عام ١٩٢٢م كتب لوركا إلى صديقه ملجور يتحدث معه حول الموضوع قائلاً:

يا عزيزي ملجور، الموضوع يتعلق بعمل رباط لابن طفيل واثنين أو ثلاثة من علماء الثقافة العربية الغرناطية في مكان يعرضه علينا السيد «سرانو» في ضيعته في منطقة «زوبيا»، وفي داخل رباط ابن طفيل هذا يمكن إنشاء مكتبة تتعلق بالثقافة العربية الغرناطية، وفي الخارج يمكن شتل أشجار الصفصاف والسرو والنخيل. يا لها من فرحة يا «ملجور» أن أرى وأنا عند الباب الملكي في غرناطة القبة البيضاء للنصب، والمنارة الصغيرة المرافقة لها! بالإضافة إلى ذلك فمن الممكن أن يكون التخليد الإسباني الأول لهؤلاء الرجال العظام الغرناطيين ذوي الأرومة الأصيلة الذين يملؤون اليوم عالم الإسلام».

راجع ترجمة كاملة لرسالة لوركا في: «مركز ثقافي لابن طفيل حلم به لوركا»: صبيح صادق صحيفة الشرق الأوسط، لندن، عدد ٧١٢٩، يوم ٥ من شهر حزيران يونيو من عام ١٩٩٨م، صفحة ٢٠.

إدارة الأزمات في التشريع الإسلامي

رضا عبدالحكيم رضوان

قال رب العالمين: كلا *إذا دُكّت الأرضُ دكّا دكّا*. **الفجر:٢١**، وقال عظم وتكبر: *وتنشقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هدّا*. **مريم:٩٠**، وقال تبارك: *وإذا البحار فُجِّرَتْ*. **الانفطار:٣**. وقال سبحانه: *فأرسلْنا عليهم ريحًا صَرْصَرًا*. **فصلت: ١٦**، وقال جل شأنه: *فأرسلْنا عليهم سيلَ العَرِم*. **سبأ: ١٦**. وقال: *إذا السماءُ انفطرتْ. وإذا الكواكبُ انتثرتْ*. **الانفطار: ١و٢**، وقوله: *أوْ نُسْقِطْ عليهم كِسَفًا من السماءِ*. **سبأ:٩**.

هو الواحد الأحد القهار، خالق الطبيعة التي تخضع لسلطانه، قال العليم: *والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخَّرات بأمره ألا له الخَلْقُ والأمْرُ تبارك اللهُ ربُّ العالمين*. **الأعراف:٥٤**. إنه الإنسان ساكن الأرض كتب عليه ما قدره القادر قال: *لقد خلقْنا الإنسانَ في كَبد*. **البلد:٤**، مُبتلى بكوارث هي من صنع خالقه سبحانه ليبتليه بها، ألم يقل رب العرش: *هنالك ابْتُلِيَ المؤمنونَ وزُلْزِلوا زِلزالاً شديدًا*. **الأحزاب:١١**.

هذا عن كوارث الطبيعة، إمّا أن تأتي من السماء، وإمّا من سطح الأرض وباطنها، ولله الحكمة، بيده ملكوت كل شيء، يختبر خلقه ويريهم من بعض قوته في دنياهم القصيرة الفانية، ليسأل الإنسان نفسه ما الذي ينتظره من أهوال وكوارث في يوم عظيم تذوب خلفه الأرض بمن عليها؟

وقد تقع الكوارث بنوازلها وشدتها بفعل الإنسان ذاته، حينما يعتدي على موازين الطبيعة بحسب فطرتها، أو ينتهك نواميس البيئة المقدرة بالترتيب الهادي الدقيق نظماً وتنظيماً، وإثبات هذا قوله الفصل: *ظَهَرَ الفسادُ في البرِ والبحرِ بما كَسَبَتْ أيدي الناسِ ليذيقَهم بعضَ الذي عملوا لعلّهم يرجعون*. **الروم: ٤١**.

والمدنية المعاصرة منذ بضعة عقود منصرمة اهتمت اهتماماً بالغًا بالبحوث البيئية لأجل تقويض آثار الدمار الذي قد تحركه الطبيعة تلقائيّا، وكذا وضع برامج علمية ترمي إلى حماية الإنسانية سواء من كوارث هذه الطبيعة، أم من أفعال الإنسان التدميرية، وتنوعت الدراسات البيئية، وتعددت مناظيرها من مداخل علمية مختلفة، ويُشهد للاجتهاد الإسلامي المعاصر إحياؤه للنظرية الإسلامية البيئية، وبحوثها التي لم تغب عن المنشورات الموثقة الحديثة، خصوصاً في إسلامية المعرفة.

والثابت المحقق ـ في ضوء ما سلف ـ سبق الشريعة الغراء علماء البيئة المحدثين بأربعة عشر قرناً من الزمان. إن التفوق الشرعي ومعارفه العلمية واضح لا تُنكر في مواجهة مفرزات المفكرين والعلماء والفلاسفة المحدثين. وما على جيل الاجتهاد الإسلامي الحديث سوى التنقيب عن المبادئ الكلية في الشريعة، وصياغة نظرية الإسلام بالمواكبة مع كل مستجد، وهذا ما نجح فيه علماؤنا في مواد البيئة علماً تجريدياً تخصيصياً وتشريعيًا مقننًا.

والآن يحضرني موضوع جديد جداً، ذلك أن مادته تصيب علم الإدارة ونظرياته، وقد لاحظت ندرة الدراسات الإسلامية التي تختص بإبراز التفوق الشرعي وسبقه في هذا المجال.

إن التخطيط الإداري آلية لا غنى عنها في مجتمعاتنا، يرافق أنشطة الدولة سواء أكانت اقتصادية أم خدمية. ولئن حظِي التخطيط الإداري بأهمية قصوى عند علماء البيئة

لأجل تقويض الكوارث سواء أكان مصدرها فعل الطبيعة أم فعل الإنسان المتفاعل مع هذه الطبيعة، فإنني أعتقد أهمية التخطيط الإداري بشكل أدق وأنفع لمواجهة الأزمات والكوارث من منظور إدارتها إدارة علمية. إن الإدارة العلمية الحديثة اهتمت ـ بصفة خاصة ـ خلال هذا العقد ـ بعلم إدارة الأزمات. ومع الاتصال الوثيق بين هذا العلم في مفهومه العام وعلم البيئة، إلا أن معظم بحوث إدارة الأزمات تحتفظ بذاتيتها المتخصصة في مواجهة الدراسات البيئية المتخصصة أيضًا، وهذا ما حاولت إظهاره بشكل فريد، وبادئ ذي بدء أقف على آخر البحوث التخصصية الحديثة، قبل التعليق عليها بالإسلامية، مُبرزًا ـ بحسب الأحوال ـ التحقيق الشرعي أو السبق المعرفي أو الإعجاز العلمي، وإذا صح هذا التعبير، فإن الدراسة التي نحن بصددها هي من النوع الموضّح لتفوق الشريعة الغراء في السبق المعرفي، فكما أن علم البيئة قد سبقت فيه الشريعة شرائع أهل الأرض، فإن علم إدارة الأزمات ـ وهو ما أحاول إثباته الآن ـ كان للإسلام السبق فيه كذلك. يقول ربنا عظم ذكره: *ذلك الدِّينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلَمون*. **يوسف**: ٤٠.

إدارة الأزمات: Crisis Management

اصطلاح الأزمة

في الفرنسية، وتعني أزْمة، بُحران، ونوبْة. Crise. والضائقة المالية: Crise financiere، أما النوبة العصبية فهي: Crise de nerfs والأزمة الوزارية: Crise ministerielle.

البُحْران: تغير مفاجئ نحو Crisis وفي الإنجليزية الأفضل أو نحو الأسوأ في الأمراض الحمية الحادة. الأزمة، كأزمة سياسية أو اقتصادية.

إن مصطلح الأزمة Crisis مشتق أصلاً من الكلمة اليونانية Kipvew أي بمعنى لتقرر To decide، وتستخدم في الغالب بمعنى سلبي لتبين نقطة تحول في الأمراض الخطيرة والقاتلةالتي تفضي عادة إلى الموت المحقق أو الشفاء التام. ويفهم ضمنًا من هذا المعنى أن الأزمة حدث مرضي (باثولوجي) يجب أن ينهى أو يهدأ بالسرعة الممكنة. وعليه فإنها تشبّه في الغالب بالأمراض الحادة الخطيرة التي تحتاج إلى معايير جراحية صارمة لتصحيح الحالة.

كما ورد استخدام هذا المصطلح باللغة الصينية في شكل كلمتين Wet - Ji أولاهما تعبر عن الخطر، والثانية عن الفرصة التي يمكن استثمارها لدرء الخطر.

والأزمة في قاموس وندسر هي: «فترة حرجة أو حالة غير مستقرة تنتظر حدوث تغيير حاسم».

الأزمة من منظور الأدب الإداري

ويختلف المفهوم من شارح إلى آخر طبقًا لمدخل دراسته ومادته العلمية التخصصية، فهي تعني عملية تفاعل تحدث في مستويات من التوتر، وتتميز بانكسار حاد في المسيرة الاعتيادية للسياسة، وتبقى فترة قصيرة، وتؤدي إلى ارتفاع مستوى التوقعات بإمكان اندلاع عنف في النظام القائم. كما تُعرَّف الأزمة أنها مرحلة من مراحل الصراع. وأبرز وجوهها المتميزة هي إحداث مفاجأة غير متوقعة سببها صراع مسبق. وقد تعني الأزمة ببساطة أنها خروج الأمور عن نطاق التحكم والسيطرة، أو أن الأزمة إنما هي نقطة تحول في أوضاع غير مستقرة يمكن أن تقود إلى نتائج غير مرغوب فيها، إذا كانت الأطراف المعنية غير مستعدة أو غير قادرة على احتوائها أو درء خطرها. كذلك الأزمة هي فرض الإرادة أو انفلات الأحداث إلى حد إيقاف التنمية، ودلالتها إسقاط قيم الأمن والأمان والاستقرار، وتتصف بندرة الحدوث، وضخامة حجم الخسائر. كما تمثل الأزمة تعبيراً عن إخفاق إداري لمتخذ القرار نتيجة لحدوث خلل إداري معين أو عدم خبرة أو حداثة معرفة.

إن من الشراح، من يعطي الأزمة بعدًا دوليًا، إذ تمثل نقطة حرجة نحو الحرب أو السلم في العلاقات الدولية، ومنهم من يعطيها طابعًا تنظيميًا فهي تعبير عن إخفاق إداري في تحقيق الأهداف التنظيمية.

تعريف إدارة الأزمة

إن التعريف المبسط للإدارة هو أنها فن إدارة السيطرة، ويمكن القول إنها محاولة تحقيق السيطرة على الأحداث، وعدم السماح لها بالخروج من اليد أو بتطوير منطق وزخم خاصين بها. وهذه تعدّ واحدة من المهام الأساسية لـ«مدير الأزمة». بمعنى آخر إبقاء الأحداث تحت السيطرة. ويمكن فهم إدارة الأزمة من كونها علماً وفنًا يحكم آليات التعامل مع أية حالة غير اعتيادية تهدد أهداف المنظمة وأنشطتها.

عناصر إدارة الأزمة

لا وجود ألبتة لأزمتين متشابهتين، ولكل أزمة حل يختلف عن غيره. وسواءٌ أكانت الأزمة بسبب زلزال، أم كارثة معدية كبيرة، أم حريق فندق أم الدمار التام لمحفوظات الحاسوب، أو أزمة في شأن السفر إلى جهة ما أو سلعة، أو سقوط طائرة ركاب. أو التهديد الوشيك المنذر بخلل في

الإنتاجية الاقتصادية أو الإدارة المالية أو ... أو... أو... فإن الأزمة تمر بالمراحل التالية:

ـ المفاجأة وتكون مصحوبة بالدهشة، ويدق التساؤل عن الاستعداد المُسبق، وكيفية التحرك للخروج من الورطة.

ـ نقص المعلومات. الوقت ضيق ولا يتيح جمع المعلومات اللازمة من أجل العمل بطريقة منهجية.

ـ التدفق المتصاعد للأحداث.

ـ فقد السيطرة.

ـ التدقيق الشديد من الخارج.

ـ عقلية الحصار.

ـ الذعر.

ـ التركيز القصير الأمد.

الكاتب: سي. تي هيو، في بحثه القيم المنشور بمجلة الثقافة العالمية يُجمل العناصر الأساسية في إدارة الأزمة، وتضم التفصيل التالي:

الوضع إزاء الاتصال:

إن في بداية كل أزمة شيئًا واحدًا مؤكدًا: لا أحد يعرف على وجه التأكيد كيف يمكن حلها. ولذلك فإن الاستجابة الأولى من جانب الإدارة هي ـ في الغالب ـ عدم الاتصال بأي شخص، فالمديرون ـ قبل الإفضاء بأي تصريح علني ـ يريدون تجميع جميع الحقائق. في هذه الأثناء تتشكل ملاحظات الذين يقفون خارج المشكلة ويبدؤون في التعبير عن آرائهم، واقتراح الإجراءات للتعامل مع الأزمة.

والتجربة دلت على أنه ـ مهما كانت الأزمة شديدة الوطأة، ومهما كانت مؤلمة ـ من الأفضل للمؤسسة أن تفصح عما تعرفه وعما لا تعرفه بسرعة، ووعي بالمسؤولية، ومن الطبيعي ارتياب وسائل الإعلام والجمهور إزاء ما يصدر من تصريحات.

تخطيط الاستعداد:

إن الطريقة المثلى للتعامل مع الأزمة هي ـ بطبيعة الحال ـ إعداد العدة لها، فالاستعداد الأساس للأزمة يتيح هجر عالم النظريات، إذ يسمح تخطيط الاستعداد بدراسة الموقف ذاته بموضوعية سلفًا. وبصورة نموذجية، يتضمن تخطيط كهذا عملية من ثلاث خطوات: الأولى: هي عمل تقويم كامل لقابليات التعرض للخطر من منظور الاتصالات.

ويتم في الثانية إعداد كتيب موجز لمواجهة الأزمة، هذا الكتيب هو الوثيقة الأصلية لجميع المديرين والموظفين في أثناء الأزمة، ويقترح الكتيب سياسات الاتصال وإجراءاته خطوة خطوة، كما يوفر مواد الاتصالات المتفق عليها، بما في ذلك صحائف الحقائق، والبيانات الجاهزة.

وتخضع الخطوة الثالثة المديرين الرئيسيين في الأزمة إلى أزمة مفتعلة أو تمرين على مكافحة الحرائق، حسبما تشاء. ويتيح لهم ذلك ممارسة حياة حقيقية في التعامل مع جمهور عدائي ـ بما في ذلك وسائل الإعلام، وجماعات المواطنين، وأسر الضحايا.

توجيهات الأزمة:

وذلك من خلال التعرف وفهم ملاحظات جماعات النظارة والجمهور وآرائهم قبل تقديم الإجابة وفقًا لذلك. إن هذه الملاحظات والآراء واقعية، وهي التي تقود السلوكيات، ولا بد من الاعتراف بالمشكلات وتقبل اللوم، والتعبير عن القلق بنوع التعاطف، والعمل على أفضل وجه مع وسائل الإعلام، واختيار الناطق باسم المؤسسة، وعدم المغالاة في رد الفعل، ولكن مع عدم التقليل من خطورة المشكلة.

> لا وجود ألبتة لأزمتين متشابهتين، ولكل أزمة حل يختلف عن غيره

النظرية الإسلامية في إدارة الأزمات

في المعجم الوسيط، تعني الأزْمة: الشدة أو القحط. أما في المنجد، فإن أصل الكلمة مشتق من «زأم ـ زؤومًا» أي بمعنى مات سريعًا. والموت الزؤوم أي الموت السريع. وفي مختار الصحاح (الأزمة)، في الحديث «أن عمر رضي الله عنه سأل الحارث بن كلدة وكان ـ طبيب العرب ـ ما الدواء فقال الأزْمُ»، يعني الحمْية، و(المأزِم) المضيق وكل طريق ضيق بين جبلين مأزِم وموضع الحرب أيضًا مأزم ومنه سُمي الموضع الذي بين المشعرِ وعرفة مأزمين. الأصمعي: المأزِم في سند مضيق بين جمْع وعرفة وفي الحديث: «بين المأزمين». وفي المعجم الوجيز (أزمت) السنة ـ أزَمًا: اشتد قحطها. (تأزم) : أصابته أزمة. (الأزمة) الضيق والشدة، ويقال: أزمة سياسية، وأزمة مالية. والأزمة: الحمْية وفي علم الطب: تغير فجائي يحدث في مرض حاد كالتهاب الرئة أو الحميات كالتيفوس والراجعة.

إن الأزمة في أشكالها كافة غير مرغوب فيها، مكروهة لا تحظى بالقبول، فكان من الطبيعي أن تنطلق الأزمة

الأولى من أفسد مخلوقات الله، هو إبليس اللعين، قال ربنا: *وإذْ قلنا للملائكة اسجُدُوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليسَ أبى واستكبرَ وكانَ منَ الكافرين*. **البقرة: ٣٤**. لتُجرى من بعد معايير ارتياد طرق الشر بالانصياع خلفه، وتلك كبرى أزمات بني البشر، فما عليهم في دنياهم سوى إدارة أزماتهم، ومنظوماتها يمتلكون زمام قيادها بالتخطيط للوقاية من جزاء يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

أوقع اللعين آدم عليه السلام في أزمة مع ربه سبحانه الذي كرمه بالعيش في الجنة، قال ربنا: *وقلنا يا آدمُ اسكنْ أنت وزوجك الجنةَ وكلا منها رَغَدًا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين فأزلَّهما الشيطانُ عنها فأخرجهما مما كانا فيه*. **البقرة: ٣٥ و ٣٦**.

تحدث الأزمة فجأة ومن دون سابق إنذار، وهذا عين ما تعرض له آدم في أولى أزماته الناشئة عن عصيان أوامر ربه، عرّاه رب العالمين هو وزوجه، فلم يجد سوى أن يتوارى خلف الشجر وأوراقه، وفي القرآن قال ربنا: *فلمّا ذاقَا الشجرةَ بدتْ لهما سَوْءاتُهما وطَفِقَا يخصفانِ عليهما من وَرَقِ الجنة وناداهما ربُّهما ألَمْ أنهكُما عن تلكُما الشجرة وأقُلْ لكما إن الشيطانَ لَكُما عَدوٌّ مبينٌ*. **الأعراف: ٢٢**. وقوله تكبر: *فأكَلا منها فبدَت لهما سَوْءاتُهما وطَفِقَا يخصفانِ عليهما من وَرَقِ الجنّة وعصى آدمُ ربَّه فغوى. ثم اجتباه ربُّه فتابَ عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعًا بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ فإمّا يأتينَّكم منّي هدى فمن اتبع هُدايَ فلا يضلُّ ولا يشقى*. **طه: ١٢١ - ١٢٣**. هكذا الأزمة الأولى لقيها أبو البشر، ومن رحمة الله أن تاب عليه على عصيانه، واكتفى عظم ذكره بإنزاله الأرض، ليتعلم بنوه من بعده الدرس فيحتاطوا إلى يوم تتعاظم فيه أزمات الكافرين، ومالها من خروج.

إن الإنسان ضعيف يوقع نفسه في أزمات ما دام صانع الأزمات الخبيث إبليس يغويه، والإنسان من ضعفه يستجيب، انظر عجز قابيل عن دفن ميته الشقيق الذي قتله ظلمًا، لقد وجد نفسه مأزومًا إثر فعلته الشنيعة، ماذا يفعل في الجثمان؟ ومن رحمة ربه علمه كيف يجتاز هذه الأزمة، ليس تكريمًا له بل تكريمًا لأخيه المظلوم في مثواه الأخير، يقول القهار: *فطوَّعتْ له نفسُهُ قتلَ أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. فبعثَ اللهُ غرابًا يبحثُ في الأرض ليُريَهُ كيف يُواري سوءةَ أخيه قال يا ويلتا أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغراب فأواريَ سوءة أخي فأصبحَ من النادمين*. **المائدة: ٣٠ و ٣١**.

إن القصص القرآني المحيط بما لا يقع تحت حصر من نماذج الأزمات سواء من صنع الصانع عز وجل لأجل الابتلاء، كما قلت سابقًا، أو أزمات يصطنعها بنو الإنسان اصطناعًا، والله بيده الخروج من الأزمات، أذكر لك مثلا أزمة الطاهرة مريم، وما كانت فيه لولا أن قضى الله بإنطاق وليدها، والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا، لتنفرج أزمتها على ما هو معلوم في القصص الشريف. وأزمة أم موسى عليه السلام وقد أوشك جنود فرعون على قتله، فأوحى لها بإلقائه في اليم فنجا. وأزمة موسى وأخيه هارون في لقاء فرعون، وقد أدار رب العالمين الأزمة بجلاله وسلطانه قال سبحانه: *اذهبْ أنتَ وأخوكَ بآياتي ولا تَنيا في ذكري. اذهبا إلى فرعونَ إنه طغَى. فقولا له قولا ليّنًا لعله يتذكّرُ أو يَخْشى قالا ربَّنا إننا نخاف أن يَفْرُطَ علينا أو أن يطْغَى. قال لا تخافا إنني معكما أسْمعُ وأرَى*. **طه: ٤٢ - ٤٦**.

> إن الإنسان ضعيف يوقع نفسه في أزمات ما دام صانع الأزمات الخبيث إبليس يغويه

وأزمة سيدنا أيوب مع المرض وكيف أثابه الله على صبره، وأزمة ذي النون في باطن الحوت العظيم وما لقيه من غفران من الله. وأزمة بيت الله الحرام الكعبة المشرفة، والخطر الداهم على أبوابها ليهدمها أبرهة بجنوده وأفياله، فقهرهم الله مخرجًا قريش من كبرى أزماتها التي تعرضت لها على مدى التاريخ، في العام المبارك لميلاد سيد البشر صلى الله عليه وسلم، قال العظيم: *ألم ترَ كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل. ألم يجعلْ كيدَهم في تضليل. وأرسلَ عليهم طيرًا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجّيل. فجعلهم كعصفٍ مأكول*. **الفيل: ١:٥**.

إن نظام إدارة الأزمات على الجوهر والأساس العلمي في المفاهيم الحديثة - كما أظهرته الدراسة - واقع سبق أن عرفته الدولة الإسلامية العظمى منذ بداية تأسيسها على يد رسولنا - عليه الصلاة والسلام - وبالبحث العلمي الدقيق في سيرته العطرة، سواء في حياته الاجتماعية الأولى أو حياته السياسية والإدارية والحربية. سيجد المرء ما لا يعد ولا يحصى من أصول منهجية لعلم إدارة الأزمات، تلقفها خلفه الصالح وصاغوها الصياغات المتفقة مع كل زمن من

الأزمان، والتي - باللأسف الشديد - قد أصبحت في ذمة التاريخ. وما علينا الآن سوى البحث والتنقيب عنها في كتب التاريخ والتراث.

وكمدخل لدراسة علم الأزمات في شريعتنا أكتفي الآن بذكر منهجين اثنين فقط مُستمدّين مباشرة من الكتاب.

الإدارة العلمية الحديثة للأزمات في الشريعة

لقد تعرفت هذه الإدارة العلمية التخصصية من بعض تصرفات بعض أخيار البشرية المكرمين سلام الله عليهم ولا سيما نوح ثم يوسف، وبتأصيل خصوصي أصف منهاج سيدنا نوح بإدارة الأزمات الأمنية الناشئة عن كوارث الطبيعة، في حين يمكن وصف منهج سيدنا يوسف بإدارة الأزمات الاقتصادية وإليك - أخي المُسلم - إثبات ذلك.

أولاً:إدارة الأزمات الأمنية في المنهج العلمي لسيدنا نوح عليه السلام:

يختص منهجه - عليه السلام - بإدارة الأزمات الناشئة عن الكارثة الطبيعية، أي أسس مواجهة الأزمة إذا حركتها قوى الطبيعة، ومادتها وقاية أمنية من الخطر الداهم الوشيك الوقوع، وأول من وضع تخطيطاً علمياً لإدارة الأزمات هو سيدنا نوح، والثابت المحقق ذلك الاستعداد السباق والتجهيزات الابتدائية لوقاية صفوة خلق الله، إنها أولى أزمات الأرض وكوارثها، حركها قامع العتاة من المجرمين سبحانه تكبر وعظم. كيف أدار نوح عليه السلام هذه الأزمة؟

دعا نوح دعوة الحق وقد ازداد الكافرون فراراً، فأوحى الله - وقد عقد تبارك أمراً عظيماً يضمن تطهير الأرض من المجرمين - إليه الاستعداد للأزمة بصنع السفينة بمرأى منه سبحانه وبتعليمه تبارك، ذلك قوله: *واصنع الفلكَ بأعيننا ووَحْينا ولا تخاطِبْني في الذين ظلمُوا إنهم مُغْرَقُون.* **هود:٣٧.**

غرز نوح الخشب وقطعه وييبسه فكان ذلك في مئة سنة ونجرها في مئة سنة أخرى، وقيل في أربعين سنة، أمره الله أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً، وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤاً أزور يشق الماء، وقيلت أوصاف غير ذلك. وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات كل طبقة عشر أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للإنسان والعليا للطيور وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وفي أثناء قيامه عليه السلام بتدابيره بإعداد ترسانته المنجية بإذن الله من الطوفان الأعظم، سخر منه قومه مستهزئين مكذبين، وقد خوله الله الرد عليهم بالوعيد، والسخرية منهم عند قيام الأزمة، ذلك قوله: *ويصنعُ الفلكَ وكلما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخرُوا منه قال: إن تَسخَرُوا منا فإنّا نسخرُ منكمْ كما تسخَرُون.* **هود: ٣٨.**

أزفت الآزفة وانطلقت الأزمة من عقالها: *ففتحنا أبوابَ السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرضَ عيونًا فالتقى الماءُ على أمر قد قُدر. وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُر. تجري بأعيننا جزاءً لمن كانَ كُفرَ.* **القمر:١١:١٤.**

وقوله: *حتى إذا جاء أمرنا وفار التَّنُّورُ قلنا احملْ فيها من كلِ زَوْجين اثنين وأهْلَكَ إلا مَنْ سبق عليه القولُ ومَنْ آمنَ وما آمنَ معه إلا قليلٌ.* **هود: ٤٠**، لقد صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، والأزمة قائمة وحية، حينئذ أجرى نوح إجراءات التعامل معها على الرغم من هولها، مطبقاً التخطيط العلمي لانتقاء الصفوة، ولأجل حفظ النوع، أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح. قيل وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى.

نظام إدارة الأزمات في المفاهيم الحديثة واقع عرفته الحضارة الإسلامية

والناجون من البشر - عن ابن عباس - كانوا ثمانين نفساً، منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل: كانوا عشرة، وقيل: إنما كان نوح وبنوه الثلاث سام وحام ويافث، وكنائنه الأربع هؤلاء الثلاث وامرأة يام. حفظ الله هؤلاء الأخيار، ذلك قوله: *وقال اركبُوا فيها بسم الله مَجْريها ومُرْساها إن ربي لغفورٌ رحيمٌ. وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال.* **هود:٤١و ٤٢.** أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طغى على رؤوس الجبال وارتفع عليها بخمس عشرة ذراعاً وقيل بثمانية أميال، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه، وقد ابتلعت الأزمة كل غير معصوم، ذلك قوله: *لا عاصم اليومَ من أمر الله إلا مَنْ رحِم وحالَ بينهُما الموجُ فكان من المغرَقين.* **هود:٤٣.**

ثانيًا:إدارة الأزمات الاقتصادية في المنهج العلمي لسيدنا يوسف عليه السلام:

قرن المتعالي حل أزمة سيدنا يوسف في السجن ظلمًا، بالتخطيط العلمي المنهجي التجريبي لإدارة الأزمة الاقتصادية في مصر كلها، من خلال ذلك الصديق المكرم بعلم تفسير الأحلام، يقول المنجي الرحيم: *وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ. قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ. وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ. يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ. قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ.* **يوسف: ٤٣:٤٩.**

لم يمنح القادر عبده الصديق علم تفسير الأحلام، بل وهبه فضلاً عن ذلك علم إدارة مثل هذا النوع من الأزمات والمفهوم تفسيراً من حلم ملك مصر أن ثمة أزمة اقتصادية سترتاد البلاد، وسيدنا يوسف في هذا المقام استخدم أصول علمي الاقتصاد والإدارة المالية، مؤسسا بذلك علم إدارة الأزمات الاقتصادية. يتبدى منهجه العلمي التخصصي في الآتي: الاعتراف بالأزمة، والاستعداد لها، وتوجهاتها وطرقة إدارتها، وذلك على أحدث ما يتحدث به المحدثون، بل إن التفوق العلمي ظاهر لارتكازه على الوحي الإلهي الذي لا يخطئ النتيجة المترتبة على المعطيات الابتدائية الموثقة.

رأى الملك هذه الرؤيا فهالته، وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها؟ فجمع الكهنة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها اخلاط أحلام. عرض رأي استفتاء يوسف السجين، قال عليه السلام: «تزرعون سبع سنين دأبًا» أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع وهنّ السنبلات الخضر، ثم أرشد إلى ما يعتدونه في تلك السنين فقال: «فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون» أي مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد وهن سنو المحل السبع التي تعقب هذه السبع المتواليات وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب وهن السنبلات اليابسات، واخبرهم أنهن لا ينبتن شيئًا وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال «يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تُحصنون» ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس، أي يأتيهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم من زيت وسكر ونحوهما.

وبعد أخي المسلم أليس معي الحق أن أقول سبق الإسلام أصحاب العلوم الإدارية أيضاً في مادة إدارة الأزمات؟!

إنها إضافة علمية أرى إدراجها ضمن رصيد إسلامية المعارف الاقتصادية والعلوم الإدارية وصدق رب العالمين إذ يقول عظم ذكره: *ونجيناه وأهله من الكرب العظيم.* **الصافات: ٧٦.**

المراجع

١. تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٢. الخضري، محسن، إدارة الأزمات: منهج اقتصادي وإداري متكامل، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠م.

٣. عبدالعزيز مصطفى. نظام الإدارة بالأهداف وإدارة الأزمات «مجلة الإدارة»، مج ٩ عدد ٣، ١٩٧٧.

٤. محمد صدام جبر. المعلومات وأهميتها في إدارة الأزمات. المجلة العربية للمعلومات، مج١٩ العدد الأول. تونس ١٩٩٨.

٥. سي. تي هيو. إدارة الأزمات (ترجمة: عبدالفتاح الصبحي). مجلة الثقافة العالمية، العدد ٧٩ السنة ١٣نوفمبر/ تشرين الثاني١٩٩٦م/جمادى الآخرة ١٤١٧هـ.

٦. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، مصر، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م. الهيئة العامة لشوون المطابع الأميرية.

٧. مختار الصحاح لعبد القادر الرازي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٦٢ الطبعة التاسعة. القاهرة.

٨. المورد (انجليزي ـ عربي) منير البعلبكي، دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة ٢٤، ١٩٩٠م.

٩. المنهل (فرنسي ـ عربي) د. جبور عبدالنور ود. سهيل إدريس، دار العلم للملايين، بيروت. الطبعة ٩، ١٩٨٦م.

10 - Fink, s. (1986). Crisis Management: Planning for the inevitable, New Youk : AMACOM.

11-Gerlin, A. (1994, September,1). A Matter of Degree: How A Jury decided that a Coffes spill is worth S2. 9 million. the wall street journal, PP Al, A4

12- Moward, T. (1994, September 76).Judge slashes Mc D Settlement to S480,000 Nation's Restaurant News. PP. 1,41.

13- Institute for Crisis Management. (February 1994). Icm Crisis Report: Significant trends in the news coverage of business crisis events during 1993. 3, 1. Louisville, Ky: Author.

توظيف غير علمي لمصطلح علمي: «التاريخ»

محاولة في نقد مفهوم ف. فوكوياما للتاريخ

عبد السلام محمد طويل

كان المؤرخ المشهور مشله MISHELET يسأل ما هو التاريخ؟ويجيب: «التعيين، وكلما عين التاريخ وخصَّص وميَّز كان تاريخًا خاصًا»(١).

فالتاريخ بهذا المعنى تخصيص وتحديد وتعيين، ويعرفه ابن خلدون قائلاً: «اعلم أن فن التاريخ، فن عزيز، جم الفوائد، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدنيا والدين.. إن فن التاريخ محتاج إلى حسن نظر وتثبت يفضيان إلى الحق، لأن الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل «وبالأحرى الاختلاق والانتقاء»، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة وتحكيم النظر في الأخبار ضلوا عن الحق».. «إذ هو (أي التاريخ) في الظاهر لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأُول.. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعَدُّ في علومها خليق»(٢).

بهذا التحديد الدقيق الواضح يبدو لنا مدى الاستعمال المغرض والتوظيف الفكري «الأيديولوجي» الفج لمصطلح ومفهوم له دلالته العلمية،ووظيفته المعرفية، وإطاره المحدد، محاولة من مستعمله إضفاء طابع العلمية والموضوعية على نظريته المفتقدة للكثير من المعضدات الواقعية والمعرفية، ليس في أبعادها وخلفياتها ومضامينها فقط، بل في صياغة أكبر قضاياها كذلك ومحاورها*، فبدلاً من الكشف عن مطلقية النموذج الحر «الليبرالي» وسرمديته وكماله صراحة ودونما مواربة، يحتال المؤلف على تداعيات مصطلح يجد القبول في النفس والاستحسان في العقل، ويوحي بالكثير من المعقولية والصدق والتحديد، فلا يجعلنا نرتاب معه أو نشك لحظة في يقين ما جاء ليخبرنا به ويعلمنا إياه.

إننا إذ ننتقد المفهوم المموَّه لمفهوم التاريخ، نستحضر تحفظ فوكوياما القائل بأن أغلب الانتقادات والتعليقات المنصبة حول نظريته قامت على فهم خاطئ لاستعمال لفظ «التاريخ»، وفهم التاريخ بالشكل التقليدي على أنه حدث يحدث، مما جعل كثيرين يحاولون إثبات خطأ الفكرة التي طرحتها بسب تتالي الأحداث التي عدّوها أحداثًا تاريخية، إلا أن ما طرحته - يقول فوكوياما - لم يكن المقصود به توقف استمرارية تواتر الأحداث حتى الضخم والمروِّع منها.. وإنما توقف التاريخ، التاريخ كما هو مفهوم لديّ ولدى الكثيرين غيري من أنه تجربة بشرية تتطور بشكل متصل ومتماسك. وأعتقد أن هذا المفهوم يتطابق إلى حد كبير مع منظور الفيلسوف الألماني العظيم هيجل للتاريخ، الذي تحول إلى جزء من حياتنا حينما استعاره كارل ماركس من هيجل(٣).

ولست أعد مبالغًا إذا أقررت - والوقائع في صفي - أن مصطلح التاريخ يقف في صدارة المفاهيم العديدة التي تاجرت بها الاتجاهات الفكرية «الأيديولوجيات» في عالم انتهك فيه كل شيء؛ إذ غالبًا ما يجري الاستشهاد به ذريعةً لعمليات الخداع الثقافية الكبرى في زماننا، فاستُدعي التاريخ إلى هذا القرن ليسوِّغ أعمال القتل وأخس الجرائم التي عرفها

التــاريخ المكتـوب، تــارة باسم التـحــديث وإخـراج الشـعـوب المسـتـعـمـرة من وهدة الهـمـجـيـة والجـهـل إلى فـضـاء التـقـدم التـــاريخـي الواعي، وتـارة باسم المادية التـاريخـية والوعي التـاريخي والحـتـمـيـة التـاريخـية التي تهـون في سـبيلهـا الإبادة الجـمـاعـيـةلشعـوب الجنوب المتـخلف في مـواجـهـة الشـمـال المتـغطرس، بدعـوى التـعـجـيل ببروز تـنـاقـضـات الشــمـال الرأسمـالي المستعـمر كـشرط لازم لكسب الطبقـة البروليـتارية لرهان الانتـصار في صـراعــهـا التــاريخـي المشــهـود مع الرأسماليين.

فالـتاريخ وفقًا للسيـاق والتحـديد الذي أوردناه مـع كل من مــشـلـه وابن خـلدون يعبـر عن تجربة معرفـية مسـتـخلصة من تجـربة حيـاتية ممتـدة، ولا يمكن أن يكون شيئًـا آخر غير ذلك، فـتاريخ الكون هو في الحـقيـقة تاريخ تـصورات البـشـر حـول الكون، بهـذا المعنى يمـكننا الحـديث عن نهـاية الإنسـان الغـربي - وفـقًـا للتنبـؤ النتـشـوي - وليس نهـايـة التـاريخ، فـعلى قدرإفلاس تصوراتنا ومدركاتنا للحياة تأتي أحكامنا صارمـة بموت التاريخ واكـتـماله، وهو الأمـر الذي يؤكده المؤرخ كـولينكوس بقولـه: «كلما خضـع الإنسان في تصـرفه لطبيعته الحيوانية، لغرائزه وشهواته، حاد عن شـرعـة التاريـخ، ومن ثمة فـإذا كـان التـاريخ يعني أساسًـا الوعي به فـلا تاريخ للطبيعة قبل الإنسان... فالتاريخ ما هو إلا وعي بالتغيير».

فـمـعـيـار الفـعل التـاريخـي واللحظة التـاريخـيـة يتـحـدد إذن بانغـراس الفـعل والوعي الإنسـانيين فـي «رحم الحـيــاة» فـالتـاريخ يتـجـدد بتـجـدد وعي الإنسـان بماضيه، وحـاضره، وتفكيره في مسـتقبله من خـلال وعـيـه بذاتـه وخـصـوصـيـتـه، والوعي مـرتب أسـاسـًا بمـعـرفـة عـمـيـقـة بالمعـتقد والتـصور الفلسـفي بعيـدًا عن أية معرفة تقنية حـصرية جوفاء من كل معنى ودلالة.. المعـرفـة بعـالـم الغـيـب بعـد استنزاف كل الطاقات وتسخيرها في عالم الشـهـادة والأشـيـاء والأشـلاء.. المعـرفـة بالبواطن والجـواهر بدل المظاهر، ذلك أن فكرة التـاريخ عـند أية جـمـاعـة إنسـانيـة ليـست في حـقيـقـة أمرها سـوى شكل من أشكال فهم هذه الجـماعة لهويتـها الذاتية.

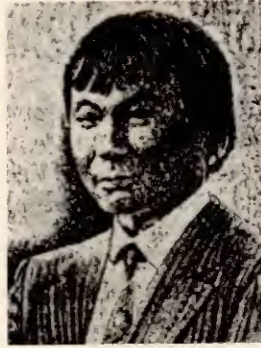
ومن خـلال إدراك الجمـاعة الإنسانية لذاتهـا تتحدد أبعاد فكرة التاريخ.

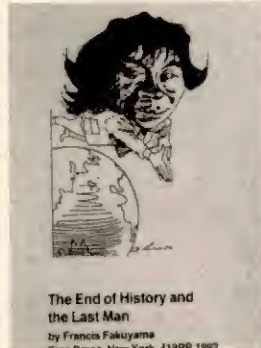
المفهوم القرآني للتاريخ

التـاريخ في الـقرآن على نحـو مـا تـوضـحــه الآيات المحكمـات ذات المضـمــون التاريخي - مثلاً - يعـد تجسيدًا لتاريخ الإنسان، وقـد يتحمل أمـانة إعـمـار الأرض وبناء الحـضـارة ونشـر قـيم الحق والخيـر والعدل والجـمال في ربوعــهـا، ولـكي يسـتطيع الإنسان أن يقـوم بدوره هذا، ينبـغي أن يتعرف ذاتـه حتى ينجح في أداء رسـالتـه، وقـد دعـا القـرآن الكريم المسلمين إلى تعرف ذاتهم الحـضارية في قوله تـعالى: *أفلم يسـيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بهـا أو آذان يسـمعـون بها فـإنها لا تعـمى الأبصـار ولكن تعـمى القلوب التي في الصدور*. **الحج**: ٤٦.

هذه الدعوة إلى معـرفة الذات لا يمكن للإنسـان أن يحـقـقهـا إلا من خلال رصـد الماضي الحضاري للبشرية انطلاقًا من أن «القـوة الروحيـــة من دون القـــوة المادية وحـــدهـا هي التي تحـكم التـــاريخ، وأن الحرب والطبقية هما آفة العالم ومشكلته» على حد تعبير أرنولد توينبي.

ويطرح الخطـاب القرآني مـن خـلال المادة التـاريخيـة التـي تتـضـمنهـا الآيات الكريمة النتائج التي يمكن الخروج بها من دراسة التاريخ الإنساني وإمعان النظر في وقائعـه والتأمل في أحداثه، والهـدف منها علمي وتربوي أيضـًا، فـالقرآن يصـور في وضـوح شديد أن ثمـة قـوة في الحق، وأن الإخـفاق يحـيق بالباطل في النهـاية، فما بدّله الإنسان فـردًا وجماعـة يكون نتيـجة


فرانسيس فوكوياما



غلاف «نهاية التاريخ» لـ فوكوياما

طبيعية للدور التاريخي الذي مـارسه، ومن ناحـية أخـرى يوضح الخطاب القـرآني أن التـغـيـير لا يحـدث فجـأة، إذ يحــدث تراكم بطيء عــبــر الزمـان للأسـبـاب التي ينتج عنهـا تغيـير تاريخي كـبيـر بعد فتـرة زمنية طويلة. وهنا نلاحظ أن التـاريخ لا يجري اعـتـبـاطًا، كـمـا أن حـركـة تطـوره ليــست حـــركـــة عـشـوائية وإنما هي حـركـة محكومـة بسنن وقـوانين منذ بـداية الخـلق حــــتى يـوم القيامة.

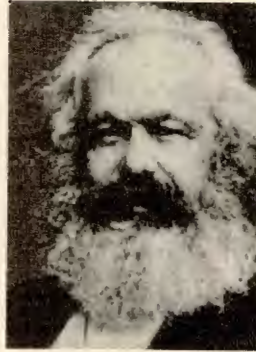
فالمادة التاريـخية الواردة في القـرآن تقوم على أسـاس أن للتـاريخ مـعنى أخـلاقـيًـا وروحيًا محوره دور الإنسان بكونه المخلوق الذي استخلفه الله في الأرض، وبوصـفـه مـسـؤولاً عن تعـمـيـر العـالم وإقـامـة العـدل والحق في ربوعـــه، وهو المعنـى الذي لم يسـع أبرز المؤرخين العــرب عـبــدالله العــروي إلا الإقـرار به والتسليم بحـقيقته: «فـالوعي بالتـاريخ هو الاطـمـئنان إلى أن الإنسـان كـائن حـر خلاق، فـهـو وعي بالأخـلاق، بأعلى مراتب الأخلاق»(٤).

فإذا كانت فكرة العناية الإلهـية بشؤون البشر موجودة في تراث الثقافة الإسلامية بشكل عـام، فـالواضح في تراث الكتـابة

التاريخية أن العناية الإلهية لا تؤازر المسلمين لمجرد أنهم مسلمون على غرار ما يؤمن به مذهب العناية المسيحي «Previ-dencialim»، ولكنها تؤازرهم إذا كان «فعلهم التاريخي» في الدين متوافقًا مع أوامر الله، وإذا تنكبوا سواء السبيل فإن السنن الكونية لا تحابي أحدًا. ويعني هذا في التحليل الأخير أن الإنسان مسؤول عن أفعاله في الدنيا، ولقد كانت هذه الفكرة ذات أثر عميق في رؤية التاريخ بوصفه تجربة إنسانية، مما أثر بدوره في مناهج البحث التاريخي التي اهتمت بالأسباب الواقعية المفسرة للظاهرة التاريخية. فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم شخصية تاريخية عاش في فترة تاريخية معلومة بحدود الزمان والمكان. قل إنما أنا بشرٌ مثلُكُم يُوحَى إليَّ أنما ألهُكُم إله واحد، فمن كان يرجو لقاءَ ربِه فَلْيعملْ عملاً صالحاً ولا يُشرِك بعبادة ربه أحداً. الكهف: ١١٠. ومَارسَ أفعالاً تاريخيــة تركت أثرها في تاريخ العالم، كما كانت أحاديثه موجهة إلى الناس، وتناقلها بالرواية عدة رواة يحتمل فيهم الصدق والكذب. ومن ثم بدأ علم الحديث يستخدم منهجه النقدي في البحث عن الحقيقة التاريخية، وكانت تلك مرحلة مهمة من مراحل تطور الوعي التاريخي، حيث نبذت فكرة الركون إلى دور القوى الغيبية في صنع تاريخ البشر، وتم تأكيد مسؤولية الإنسان عن صنع تاريخه وبناء حضارته مع التشديد القوي على أن الفعل الإنساني يلتقي لا محالة مع الفعل الإلهي وفقًا لقوله تعالى: *وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ اللهَ رمى*. **الأنفال**:١٧.

فإذا كان إجماع المؤرخين قديمهم وحديثهم منصباً على أن التاريخ «مدرسة أخلاقية وسياسة»(٥). وأن التاريخ هو مجال الحرية البشرية... فإن منطق المخالفة يفضي بنا إلى أن التاريخ ينتهي حينما يتحول إلى مدرسة انحلال وهيمنة بدل الأخلاق والسياسة، وحينما يصبح مجالاً للغربة والاغتراب الإنسانيين. ينتهي التاريخ حينما تتم أدلجته بشكل سافر، ويتم إخضاعه لتفسيرات موجهة مركزية واهية بعيدة عن أية روح عملية أو موضوعية، وفي هذا الصدد يقول أحد علماء المنهج: «العلوم التاريخية أكثر عمقاً وتعقيداً من العلوم النظرية، لأنها تجبر من يتعاطاها على أخذ الكون كما هو، وتمنعه من أن يتصوره بكيفية تلائم أغراضه».


تشارلز داروين


ماركس

إلى هنا يظل فوكوياما مفتقراً إلى الحس التاريخي الخلدوني من خلال التحقيق والنظر في بحثه عن «مدار الشمس» أو «عين الخبر» كما يؤكد منتسكيو. فمشكلة فوكوياما أنه يكتب بأفكار مسبقة لتسويغ معتقدات واتجاهات فكرية «إيديولوجية» غير مستنبطة من المادة المدروسة، لذا فهو غالبًا ما يخدع القارئ، بل يخدع نفسه عندما يقدم الفكرة القبلية كما لو كانت نتيجة استقرائية لا غبار عليها... إن هذه الانتقادات الموجهة إلى صاحب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» بخصوص تعامله مع التاريخ والأحداث نجد لها سنداً في الانتقادات الموجهة للمرجعية الهيجلية إذ يشير «بوركهارت» إلى أن هيجل «يقحم أفكاراً مسبقة من مثل: التاريخ غاية مرسومة، التاريخ عقلاني بالتعريف... التاريخ تاريخ الحرية...كان الواجب عليه إقامة الدليل عليها».

صحيح أن اكتشاف الحرية فرع من اكتشاف التاريخ، انطلاقًا من أن للتاريخ أهمية عظمى في بناء الأمم، والمحافظة على هويتها وشخصيتها(٦) بل على قوتها وقدرتها على الشموخ، والاستطالة والاستمرار، فهو جذور الأمة التي تضرب بها في الأعماق، فلا تعصف بها الأنواء، ولا تزلزلها الأعاصير، ولا يفتتها الأعداء.. وهو ذاكرة الأمة، والذاكرة للأمة كالذاكرة للفرد تماماً، بها تعي الأمة ماضيها، وتفسر حاضرها، وتستشرف مستقبلها.

فالإنسان الذي يفقد ذاكرته، يرتد - على ضخامة جسمه - طفلاً غراً لا يعي شيئًا مما حوله عاجزاً عن أن يتبصر في أمسه أو يشعر بيومه، أويتطلع إلى غده، وكذلك الأمة حين يضيع منها تاريخها، ويشوّش في عقول أبنائها، ويتضاءل في عيونهم، عندئذ يضيع منها الطريق وتسلم مقودها لمن يوجهه ويملأ ذاكرتها بما يوجه خطواتها حيث يريد هو لا حيث تريد هي(٧)، وهو المآل نفسه الذي تستهدف مقولة نهاية التاريخ «الليبرالية» فرضه على باقي الشعوب غير الغربية، ولا سيما الإسلامية منها، من خلال تجريدها من كل انتماء تاريخي أو عقدي أو حضاري.

فالتاريخ ليس علم الماضي، بل هو علم الحاضر والمستقبل في واقع الأمر وحقيقته، فالأمة التي تستطيع البقاء هي الأمة التي لها ضمير تاريخي ومعرفة بالتاريخ وعشق له(٨).

الرؤية المركزية للتاريخ

لكن ما المقصود بالتاريخ عند فوكوياما؟ أهو التاريخ الأوربي الأمريكي؟ أم تاريخ البشرية؟ هل البشرية محكومة بالتطور ضمن سياق واحد وتاريخ موحد؟ أم إن الأمر يتعلق بتواريخ تتعدد بتعدد الثقافات والحضارات؟.

يذهب كثير من الدراسات الإنسانية «الأنتروبولوجية» الحديثة، ويؤكد تاريخ الحضارات أن البشرية لم تقطع مساراً تطورياً واحداً، ولكنها تتطور وفق سياقات متعددة ومختلفة حسب الحضارة أو الثقافة التي تنتظم فيها، إننا هنا بصدد سياقات تاريخية وليس سياقًا تاريخيًا واحداً للإنسانية، ولكل حضارة أو ثقافة سياقها التاريخي المتميز. وهذا السياق الذي تتطور فيه حضارة معينة يخضع لمنطقها الداخلي أي: تتطور وفق معطيات عقدية ثقافية جغرافية خاصة بهذه الحضارة.

إن هذا الأمر ينكره الفكر الفلسفي والسياسي الغربي من خلال رؤية مهيمنة للعالم تقوم على تمركز الحضارة الغربية حول الذات، ونفي لكل ما يخرج عن السياق الغربي من الثقافة والتاريخ، وربما الوجود، والنظر إليه في ضوء تاريخ الحضارة الغربية ومعطياتها. وكأن العالم يوجد عندما يدركه الوعي الأوربي، ولا يوجد عندما يجهله(٩). فالمعرفة تساوي الوجود، فضلاً عن إنكار التاريخ الحضاري للشعوب غير الأوربية والتشويه المتعمد لثقافتها، واستعمارها وتقسيم الشعوب إلى حضارية وبدائية، أو متقدمة ومتخلفة، أو صناعية وزراعية، أو عقلية وأسطورية، أو موضوعية وذاتية، وقد وجدت هذه التقسيمات صياغاتها المتطرفة في النظريات العنصرية وتقسيم الشعوب إلى آرية وسامية في العلوم الإنسانية.

فالرؤية الغربية للتاريخ تطورية خطية LINEAINE، وما التاريخ العالمي في نهاية التحليل إلا التاريخ الغربي، يبدأ منه وينتهي عنده، أما ما عدا ذلك فهو إما خارج التاريخ، وإما هوامش التاريخ حيث ظهر مفكرون أمثال فيكو وهيوم.. يؤكدون فكرة استمرار المجتمع وتطوره تطوراً منتظمًا شأنه في ذلك شأن الطبيعة، ومعنى ذلك أن الفكرة القديمة عن التطور الاجتماعي، التي فحواها أن خير العصور ما سلف ثم شيئًا ما الذي يليه إلى أن يصيب البشرية الانحطاط المحتوم، وتتدنى من عصرها الذهبي الأول ليصيبها التدهور، ثم يحل محلها مفهوم التقدم المستمر والمتواصل من المراحل الدنيا إلى المراحل العليا(١٠) أي إن العصر الذهبي هو مستقبل البشرية وليس ماضيها، ظهر هذا المفهوم الجديد على وجه الخصوص في كتابات فونتنيل FONTE-NELLE وفيكو وفولتير وتورغو TURGOT وكوندروس CONDORCET وكانت Kant وغيرهم كثير.


بوركهارت


أرنولد توينبي

لقد سبق للفيلسوف الفرنسي باسكال B:Pascal في هذا الإطار أن أثبت في كتابه «رسالة في الفراغ» «١٦٤٧ Fragment de preface pour le traite du vide» الطابع المتراكم والمتقدم للمعرفة البشرية، بتأكيد أن المعارف يضاف المتأخر منها إلى المتقدم ليزيد غنى وثراء، بحيث لا تنحصر استفادتنا فيما أوصلنا إليه البحث والتنقيب، بل شمل ما ورثناه عن أسلافنا وما سيتوصل إليه أحفادنا بعدنا.

وفي كتابه ذي العنوان المشحون بالدلالات «لوحة فلسفية للتقدم المطرد للفكر البشري» يؤكد تورغو Turgot أن الزمان التاريخي ليس زماناً متصلاً ويخضع لمنطق التراكم وحسب، بل هو زمان مسترسل ومتواصل التقدم بشكل لا يقبل الرجعة كذلك، فالتاريخ زمان متصل اتصال حلقات الحضارة، واتصال تقدمها المتواصل من البسيط إلى المعقد، ومن الأقل نضجاً إلى الأكثر نضجاً، إنه زمان ذو بداية، وبدايته هم الأقوام البدائيون الذين تشهد حالتهم على ما كانت عليه البشرية في نشأتها، كما أن له غاية وغايته هي ما يحصل من تحولات في مركز الحضارة الغربية(١١).

لقد كان القرن الثامن عشر قرناً حاسماً في تشكيل الثقافة الغربية ورسم توجيهاتها: فهو عصر ظهور العلم التاريخي برؤاه وتصوراته وطموحاته «الأيديولوجية» والفلسفية المشبعة بالروح الوضعية التي تنظر إلى الفكر من منظور ارتقائي وتطوري النزعة يصنف «الخرافة» و«الأسطورة»، والدين، في الدرك الأسفل، ويبوئ العلم أعلى درجات التطور(١٢).

وعليه، فإن تصور الزمان التاريخي على نحو خطي ومتعاقب سيمثل الأساس أو التربة التي أنبتت المفاهيم المؤسسة لمنهجية التاريخ، وتاريخ الأفكار بالذات. فهذا النوع الأخير من التاريخ استبد به هاجس إبراز جانب التقدم المطرد للفكر الإنساني انطلاقًا من الاعتقاد أن الجديد أكثر نضجاً واكتمالاً من القديم، وأن كل أقدمية زمانية هي نقص منطقي، وكل جدة هي ارتقاء ونمو وتقدم. إن الاهتمام في

منهجية تاريخ الأفكار ينصرف إلى سرد الوقائع والأحداث والمفاهيم والمعاني والدلالات وربطها ربطاً يعيد الاتصال إلى انفصالها، ويبحث لها عن خيط رابط يظل متوارياً خلفها، يكون الضامن لاستمرارها وتطورها المتصل والمتواصل، الذي يجعل المتأخر منها أواللاحق تطويراً للمتقدم أو السابق وتنقيحاً لهما... فكأن الحقيقة اكتملت في التاريخ بصفة نهائية، وما تعرفه من تبدلات لا يصيب جوهرها، بل يمس الأعراض فقط. وهذه هي الصيغة التي اتخذها التأريخ للأفكار حتى العصر الوسيط...كما ستطفو على السطح فكرة أن التاريخ تسلسل للأحداث والوقائع والأفكار، يعكس اتصاله تقدم الوعي أو الفكر البشري من الأدنى إلى الأعلى ومن البداية إلى النهاية، ومن الخرافة إلى العلم. ولم يكن قانون الحالات الثلاث لأوغست كونت A. Conte سوى صدى لذلك التصور التطوري والارتقائي للتاريخ ولتاريخ الأفكار.

ثمة إذن مبادئ ثانوية حددت منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر طبيعة تاريخ الفكر وأغراضه ومقاصده، يشار منها على وجه الخصوص إلى ظهور مفهوم العقل أو الفكر المتقدم الموجه لسائر العقول، إنه بمنزلة روح حامل للمعرفة البشرية وملهم ذوي الأفكار الثاقبة، يدفع التاريخ دفعاً نحو غاية، وسيتكون لدى مؤرخي الفكر والفلاسفة والمثقفين وعي بأن تاريخ الفكر هو صيرورته الزمانية، وأن ثمة غائية تحكم تطور المعارف وتنظم مسارها وتجعلها تشق بإصرار طريقاً يتجه صعوداً من الأسفل إلى أعلى، لذا فتطورها أشبه ما يكون بتطور الكائنات الحية يحكمه اتصال لا تتخلله فجوات أو تقطعات انسجاماً مع التصور الهيجلي للتاريخ بوصفه اتجاهاً ينتظم من الحوادث والأحداث وتنوعها وتقلباتها وكثافتها في خيط منطقي يتيح لها الفرصة كي تتكلم وتبحث لنفسها عن مكانها المشروع والتاريخي ضمن تسلسل الأحداث وتعاقب العصور.

وقد طبعت هذه النظرية الخطية الغائية للتاريخ مواقف كثيرين حتى أبرز من يدَّعون نقض الهيجلية وانتقادها ونعني بهم ماركس وإنجلز..ذلك أن ماركس يُعد - شاء أم أبى - إفرازاً للحْظة معرفية معينة، رزحت رؤيته للعالم تحت سطوتها، ومع القراءات الجديدة الرامية إلى رد الاعتبار له، بتخليصه من براثن تلك النظرية المعرفية «الإبستمية» فإن النفحة المركزية الأوربية تظل متجذرة لديه في إطار ما أضحى يعرف بأدبيات «الاستشراق الماركسي».

الأمة التي تستطيع البقاء هي الأمة التي لها ضمير تاريخي ومعرفة بالتاريخ وعشق له

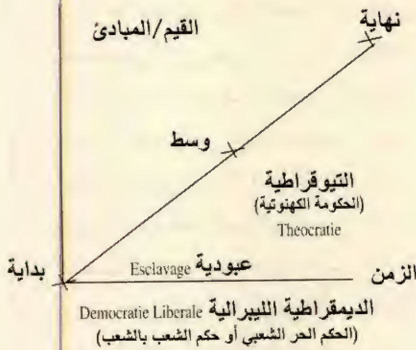
إن هذا التصور يحكمه ثابت أساسي يمكن تسميته بالأنوية أو المركزية أو النرجسية. وهذا الثابت هو الذي يحدد طبيعة علاقة الغرب مع الذات، والعالم الآخر فتجعله لا يرى إلا نفسه Igocentrisme وأنه مركز العالم LOGOCENTRISME وأما الآخرفهو بدائي ووحشي وهامشي وهذا ما خوله القيام «بالهيمنة التاريخية» في إخضاع الآخر للتصور التاريخي الغربي من خلال الإبادة والاستعمار وذلك باسم التحضير والتمدين(١٣).

ونحن بصدد الخوض في مفاهيم التاريخ، سنحاول استنطاق ابن خلدون واستفهامه حول «نهاية التاريخ» أو آليات حركته.

إن مفهوم التاريخ عند ابن خلدون دوري CYCLIQUE ينتقل فيه التطور من حالة إلى أخرى: من حالة الدين / العقيدة إلى حالة العقل / القوة، ثم إلى حالة الغريزة، ثم تظهر مرة أخرى الحاجة إلى الدين ... ويمكن أن نمثل له بالبيان التالي:



أما التاريخ في التصور الغربي فيتطور في خط تصاعدي من السيئ إلى الأفضل من البسيط إلى المعقد، من البداية إلى النهاية، كما يظهر في البيان التالي:



إن قراءة حالة الحضارة الغربية تختلف من تصور إلى آخر فالتصور الغربي يرى في هذه الحالةنهاية للتاريخ، بمعنى انتصار قيم الحضارة الغربية على المقاييس الأمريكية أي هي سقف لتطور البشرية الفكري «الأيديولوجي»، أما قراءة هذه الحضارة وفق التصور الخلدوني فإن هذه الحالة تعد نهاية دورة الغرب الحضارية والنهاية هنا تفيد الانحطاط(١٤). إن الثنائية النرجسية التي تتميز بنوع من الاستعلاء والاحتقار بين (الأنا) و(الآخر)

ثنائية أفرزتها المعرفة الغربية في إطار رؤيتها التقدم ارتقاءً خطيًا في مدارج الزمان،وارتقاء وحيد الاتجاه صوب هدف معين، كل تبدل فيه يُعدُّ تخلفًا وجمودًا عند مرحلة متأخرة وبدائية من التطور الحضاري والعقلي. فمفهوم التقدم تسنده نظرة تاريخية ترى لحظات التاريخ لحظات في تطور عام، وهذا ما جعل ليفي شتراوس يثور على التمييز الشائع بين عقلية «بدائية» وأخرى «متحضرة» انطلاقًا من أن الفكر المسمى (بدائيًا) يملك المؤهلات المنطقية نفسها التي تمنعنا من عدّه سابقًا على المرحلة المنطقية الحاضرة. يقول ليفي شتراوس: «يميل تطور المعارف قبل التاريخية والبدائية (الأركيولوجية) إلى أن يبسط في المكان أشكالاً حضارية كنا نتخيلها تعكس درجات وحقبًا ومراحل في الزمان. ويعني هذا أمرين: أولهما أن التقدم ليس ضروريًا ولا متواصلاً، فهو يتخذ صورة قفزات وثبات، أو طفرات، كما يحلو لعلماء الحياة «للبيولوجيين» القول، ولا تقوم هذه الوثبات وتلك القفزات على الاتجاه في ذات الخط، بل يرافقها تحويل الوجهة، يشبه التغير الذي نلحظه في لعبة الشطرنج، إذ يتمتع الخيال أو «الفارس» بحق التحرك من دون أن يلتزم في ذلك اتجاهًا بعينه. فالتقدم الإنساني لا يماثل أبدًا ارتقاءً أو صعودًا في سلم، كما لا يماثل عملية طي مراحل أو تخطي درجات، بل هو على الأصح شيء كلعب النرد، فاللاعب حينما يرمي بقطع عديدة تتناثر أمامه متفرقة على البساط، مقدمة عددًا من الحسابات تعكسها صفحة كل قطعة، وما يربحه في إحداها، يخسره بالنسبة إلى الأخرى، ونادرة هي اللحظات التي يكون فيها التاريخ تراكميًا بمعنى أن حساب نقط جميع القطع يشكل مجموعًا صالحًا»(١٥).

ولعل أبرز هذه اللحظات الثورية في تاريخ البشرية الطويل: العصر الحجري المتأخر، والثورة الصناعية، إلا أن ليفي شتراوس لا يستبعد حدوث ثورات تراكمية أخرى في أمكنة وأزمنة مختلفة وفي ميادين أخرى من مجموع ميادين الأنشطة البشرية، لكنها لا تجد أدنى اهتمام منا لسبب بسيط هو أنها لا تنتمي إلى ثقافة الغرب وحضارته(١٦).


هيجل


إدوارد سعيد

لقد أضحى ثابتًا أن البحث التاريخي لن يأخذ مصداقيته المعرفية «الإبستيمولوجية» إلا عبر مراجعة جديدة للمفاهيم المألوفة من المؤرخين، كمفهوم التقدم المقتصر على الغرب، والتمييز بين المجتمعات التي لها تاريخ والمجتمعات التي لا تاريخ لها(١٧). ويلاحظ أن القائلين بلا تاريخية هذه المجتمعات يقرنون غياب التاريخ فيها بغياب الدولة بمعناها الكامل«الدولة المتجانسة الكاملة» وفقًا لتحديد كوجيف أوبغياب الكتابة. وهي كلها غيابات تم نحتها وتشكيلها انطلاقًا من مرجع ضمني قوامه عد وجودها شرط كل تاريخ وتاريخية على ما هو مسطر في النموذج الحضاري الغربي.

والحاصل أن كل تحليل تاريخي هو تأويل للأحداث يستخدم مفاهيم هي ذاتها وليدة تأويل، من غير الممكن الدفاع عن براءتها، فالمجتمعات التي لا توجد بها دولة، أو توجد لكن على نحو مخالف لنمو الدولة الغربية لا تعدُّ مجتمعات بمعنى الكلمة، فالمجتمع المدعو مجتمعًا بلا دول، في رأي عالم الأعراق «الأنثولوجي» بيير كلاستر P.clastre مجتمع ناقص، وليس مجتمعًا إنسانيًا بكل ما للكلمة من مدلول، فأعضاؤه غير حاصلين على خصائص البشر، فهم لا يزالون تحت رحمة أغلال الحالة الطبيعية التي عرضها روسو بشيءٍ غير قليل من التفصيل، وهم لذلك يعانون من جهل ذريع بآليات اقتصاد السوق، نتيجة افتقارهم إلى فائض إنتاج يوفرونه، فهم يعيشون عيش كفاف (١٨) لأن قلة وسائلهم المادية وعقليتهم قبل المنطقية جعلتهم يعيشون دومًا في بؤس وشقاء، فجاء عجزهم عن التفكير في تنظيم أنفسهم تنظيمًا عقليًا سياسيًا نتيجة مباشرة لاضطرارهم للبحث الدائب عما يقيمون به أودهم، إنهم، وانسجامًا مع ما وصفهم به الغزاة الأوربيون للعالم الجديد، أناس من دون دين ولا شريعة ولا وازع سياسي، وهو الوصف الذي يرفضه بحث الأشراف والسلالات الرصين من خلال كتابات صالينس Sahlins التي أثبت أن عددًا من الشعوب - أمريكا التي نعتها فوكوياما بأبشع النعوت والأوصاف - في المرحلة ما قبل الكلومبية كانت لها حضارة ومعرفة وعلم وعاشت في يسر من أمرها قبل أن تُنهب خيراتها غصبًا من قبل الرجل الأبيض(١٩).

التصور الهيجلي للتاريخ

إن المنهج الهيجلي الذي شكل مرجعية فوكوياما، ينظم أحداث التاريخ في خيط فكرة واحدة يستمد التاريخ منها وحدانيته وشموليته ومعناه .. هذا المنهج المثير في تناسقه المعماري الظاهري، يعاني في جوهره من تناقض عميق بين وحدانية

العقل الإنساني - الذي تفترض فيه الهيجلية الشمولية والكونية - والقراءة العنصرية والتراتبية لتجليات هذا العقل في شتى الحضارات(٢٠). فالجدل الصوفي الهيجلي لا ينظم الشعوب والثقافات في خط تطور العقل الواحد انطلاقًا من تتبع موضوعي لتقدم الفكرة في الزمان، وإنما عبر نظرة راجعة للتاريخ، تحدد الغرب عمومًا، والعالم الجرماني المتوج بمسيحية لوثر تخصيصًا، غاية التطور ومنتهى طريق التقدم الصاعد الذي يشكل الشرق بدايته الحتمية لينتهي في الغرب « غاية تطور التاريخ المطلق»(٢١).

فالشرق والغرب ها هنا لا يتخذان في فلسفة هيجل مدلولاً جغرافيًا حصريًا بقدر ما يستبطنان مضامين عنصرية - ثقافية ثابتة متناقضة يحدد مظهرها الوجودي مصائر متباينة، ويجعل من ثنائية شرق /غرب رديفًا عصريًا للثنائيات الكلاسيكية القديمة: - يوناني - بربري أو روماني - بربري. ثنائيات تصدر بأسماء مختلفة عن ثنائية السيد بالقوة والفعل، والعبد التابع في الجوهر والواقع. فالحضارات الشرقية تمثل عالم الغرابة بالنسبة إلى العقل، فالشرق متاهة الروح الذاهب من المجرد والمطلق إلى الطبيعي والمحسوس، ورحلة الذهاب، وهي بشكل عام رحلة أسر وعبودية، رحلة يختلط فيها الروح المجرد بالطبيعي والمحسوس، فالمحسوس هو مبدأ العقل الشرقي الكامن والمميز، إن الشرق هو موطن الشرقي المتخطف أبداً بالشروق الطبيعي، بالشمس الخارجية ونورها الخارجي الذي يعميه عن شمس داخلية تشع بالنور الأنبل «شمس الوعي» والغرب هو مستتر الشمس الخارجية الآيبة من الوجود إلى الماهية، من الخارج إلى الداخل بعد نهار التاريخ القائظ الطويل، وفي الغربي المستبطن لنوره الذاتي تجد الروح مستقرها ومأواها الأخير. ولأن حركة التاريخ الهيجلي لولبية وليست دائرية، فإن شمس العقل لا تعود لتشرق من الشرق في دورة جديدة. فأسطورة العنقاء التي تبعث من رمادها هي أسطورة شرقية تتصل برؤية دائرية لتاريخ يعيد نفسه، وهذه الأسطورة يرفضها العقل الغربي المؤمن بتقدم صاعد متواصل وثابت على اتجاه واحد.

التاريخ يتجدد بتجدد وعي الإنسان بماضيه، وحاضره، وتفكيره في مستقبله من خلال وعيه بذاته وخصوصيته

وهذا يحيل إلى انشطار ثبوتي صارخ على مستوى الجغرافيا، يتعارض مع حيوية «ديناميكية» الجدل الهيجلي ذاته - يتحول فيه الغرب إلى مبدأ فاعل، أي جوهر ثابت، والشرق إلى موضوع منفعل متقبل، وذلك على جميع الأصعدة.

وتتضح قدرية - مسرح فوكوياما الأول - التاريخية الثبوتية حينما يوازي مسار العقل في الحضارة بفسحة عمر يعيشه إنسان واحد، بين طفولة يعادلها هيجل بالشرق، وشباب حيوي وجمالية يعادلان اليونان وروما، وشيخوخة ناضجة تتجلى في أوربا الغربية وتحقق اكتمالها في جزئها الجرماني، وهكذا يتحول الشرق في منظور هيجل المركزي الغربي إلى موطن اليأس الحضاري والاسترخاء التاريخي.

ففي الروح الشرقية يظل جوهر الروح مغموسًا في الطبيعة، أما في العالم اليوناني، فإن مبدأ الفردية الشخصية ينبثق وإن كان محاطًا بهالة مثالية، وفي العالم الروماني يتحقق التمايز الفردي للحياة الأخلاقية في صورة انقسام أو تمزق غير متناه لهذه الأخيرة إلى قطبين متعارضين هما: وعي الذات الشخصي، والكلية المجردة، إنه التعارض بين «أرستقراطية» تقف ضد مبدأ الشخصية الحرة في شكلها «الديمقراطي» وفساد الدعاة وانحلالهم، أي موت الحياة الأخلاقية، ولا يتحقق التصالح بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية إلا في العالم الجرماني إذ تلتقي الحقيقة الموضوعية بالحرية، وتتخذ الحياة الأخلاقية شكل وازع داخلي ذاتي وشخصي، فتنتفي كل الصفات السلبية للروح الشرقية وللعالم الشرقي الذي لم يتوصل إلى معرفة أن الروح أو الإنسان بما هو إنسان حر، فكانت الحياة السياسية والدينية والروحية فيه نزوة وشراسة وتصوراً واستبداداً (٢٢).

وهي النظرة التي لم يسلم من سطوتها الواعية وغير الواعية الفكر الماركسي ذاته، ذلك أن الرغبة القوية في تعميم الاقتصاد السياسي، وتعميم معاييره هي التي حدت بماركس وإنجلز إلى الوقوف ذلك الموقف المجوج غير الإنساني من الظاهرة الاستعمارية، التي لا يمكن فصلها مطلقًا عن الخلفية التاريخية والمعرفية الغربية عمومًا، وعن فلسفة الأنوار على وجه التحديد، ولا سيما فلسفة جان جاك روسو والرؤية الهيجلية للتاريخ، إن أوربا - يقول هيجل: هي نهاية التاريخ على نحو مطلق، كما أن آسيا هي بدايته.. ومن ثمة فإن الشكل السياسي الأول الذي نلاحظه في التاريخ هو نظام الحكم الاستبدادي.

إن نهاية التاريخ - يقول فوكوياما - لا تقتضي بالضرورة أن تغدو المجتمعات كافة شعبية «ديمقراطية» حرة «ليبرالية» ناجحة، بل مجرد الكف عن ادعاءاتها «الأيديولوجية» بأنها تملك

أنماطاً مختلفة وأرقى من غيرها لتنظيم المجتمع الإنساني (٢٣).

إن قراءة عميقة ومتأملة لنفسية فوكوياما من خلال نصه الأخير تشير إلى حدة شعوره بالخطر «الأيديولوجي» النقيض المنبعث من قلب الجنوب المثخن بالمآسي والجراح، وإلى إحساسه الدفين بصعوبة واستحالة القضاء عليه أو حتى إزاحته من حلبة الصراع والتدافع الحضاريين، فبمجرد «الادعاء» والتلويح بوجود أبدال «أيديولوجية» شاملة تشكل إرباكاً حاداً لصاحب نظرية «أمركة العالم».

فبعد أن يجزم بأنه ليست هناك «أيديولوجية» ما يمكن أن تحل محل التحدي الديمقراطي الليبرالي يعود ليقر مجبراً وعلى مضض إن من الممكن استثناء الإسلام من هذا الحكم العام مثله في ذلك مثل الديمقراطية والشيوعية، مع دلالته الخاصة في الأخلاق ومذهبه في السياسة والعدالة الاجتماعية (٢٤).

ومع ذلك يؤكد أن شرط الالتحاق بالتاريخ الغربي المتقدم والمنتهي لا يقتضي من دول الجنوب إلا الإقرار بعجزها وفقرها العقدي وتبعيتها غير المشروطة لهذا النموذج وما يقتضيه.

«فالعالم سيظل منقسماً إلى جزء يمر بالتاريخ وجزء تجاوز التاريخ، وتبقى إمكانية الصراع قائمة بين تلك الدول التي لم تزل في ثنايا التاريخ، وكذلك بينها وبين الدول التي وصلت نهاية التاريخ، وستظل ثمة أعمال عنف لأسباب عرقية وقومية على درجة عالية من الخطورة» (٢٥).

نجد هنا تمييزاً واضحاً بين دول ما تزال في مسار التاريخ وتلك التي بلغت نهايته، إذ «يشبه العلاقة بين مجموعتين من الدول بقطار تصل عربته الأولى وتكون عرباته الأخرى سائرة تحتاج إلى وقت للوصول والاستقرار، لكن عربات القطار مترابطة، لذا ستصل حتماً إلى موطن الاستقرار ذاته، وأزعم أن موطن الاستقرار والهدف المقصود هو الديمقراطية الغربية».

إن تقسيم العالم بين تاريخي وما بعد تاريخي، يتعدى مجرد الشائعة «الأيديولوجية» ويمهد إلى إعادة تدوير كل تراث الاستقطاب الثنائي السابق الذي تحكم في فكر السياسة الدولية، وذلك قبل تفكك الاتحاد السوفييتي، ويحاول هذا التقسيم، الذي يتخفى تحت الأقنعة المعرفية الكبرى، تأسيس قطيعة صارمة في صميم الكيان الإنساني، تخرج معظم أو بقية العالم من نطاق البشر القادرين على فرض الاعتراف بهم، ومن ثم يسوغ حرمان هؤلاء البشر في معركة الاعتراف، من إمكانية تجاوز القطيعة، وتخطي الدورة التاريخية والوصول إلى حالة التطابق بين المثل والواقع، تلك الحالة التي تغدو استثناء تمييزياً أعلى لا يناله إلا أولئك المعدُّون سلفاً لكسر الحلقة التاريخية وبلوغ الكمال الأخير (٢٦).

مشكلة فوكوياما أنه يكتب بأفكار مسبقة لتسويغ معتقدات واتجاهات فكرية «أيديولوجية» غير مستنبطة من المادة المدروسة، لذا فهو غالباً ما يخدع القارئ

إنه بهذا الجزم التقسيمي يعبر عن نزعة مركزية غربية، تحقيرية للآخر، تبجيلية للذات، وإلا كيف نفسر هذه الحتمية الجبروتية الإكراهية التي بموجبها تتأكد قيادية الشمال وطليعته وتقدمه، وتترسخ في المقابل تبعية الجنوب وذيليته وتخلفه، ليصبح المرور بمراحل الغرب التاريخية حتمياً ومطلقاً، فهي مضطرة إلى تخطي تلك المراحل وطيها لبلوغ ذروة التقدم التي بلغها الغرب، ما دام العالم سيغدو عالمين: أحدهما لا يزال أسير التاريخ يصعب تحرره منه أو يكاد يصير ميؤوساً منه، والآخر قد أنجز رحلة التاريخ كلها، وفك إساره من حتميته الصارمة، تجاوز صراع الواقع والمفهوم.

وصار ينعم بطبيعة هادئة لأنه يكاد يحقق جوهر الاكتفاء الذاتي، ويروي أساس الرغبات، ويفرض نفسه الأول في العالم، وما على الآخرين إلا الاعتراف به، والإقرار بتفوقه واكتماله.

والخطير أن الفوكويامية لا تكتفي بإقصاء بقية العالم خارج التاريخ، وإنما تحكم عليها بالسجن المؤبد داخل قفص التاريخ، ودورته المغلقة.

وواضح أننا أمام اغتصاب جديد لمفهوم التاريخ وحركته ونهايته، يأخذ شكل تأويل ليبني مشروع «أيديولوجيا» في عصر تم الاتفاق على وصفه بأنه عصر انهيار الأيديولوجيات الأيديولوجيا التاريخانية الجديدة ترى، كما هو واضح، مقدمات هيجلية تحريفية ...فهناك نسق تاريخي صارم يستهدف الاستحواذ على كلية التاريخ، ويخضعها لتشخيصه الخاص. ويفرض عليها جهازاً مفهومياً معيناً في زمن ثقافي يجري الادعاء فيه أن عصر الأدلجة قد عفّى عليه الزمان، وأن التاريخ الثوري الإنساني قد عاد ليحطم كل أشكال النمذجة التنميطية القاهرة، ويكسر جميع الثنائيات الكاذبة، ويجرف ركام القراءات التحقيبية المغرضة.

لكن الحاصل أن النموذج الثقافي الغربي هو الذي يعلن بلسانه انتهاءه كنمط معين من قول التاريخ وفعله، وهو الذي بلسان الحداثة البعدية عينها يعلن مقابل هذه النهاية عن مولد كل تاريخ آخر غير مسبوق «بال» تعريف كبرى، بحيث يصغر كل شيء إزاءها «فالنهاية ليست كمالاً، بقدر ما هي استنزاف، إنما تؤرخ لوقت النضوب، وليست لزمن التطابق».

التطورية بين العلمية والتوظيف الأيديولوجي

لقد جاءت التطورية الاجتماعية بمنزلة الجواب عن رغبة الإنسان الغربي عموماً في ترتيب سائر الشعوب الأخرى في سلم التطور الذي يتربع هو على قمته، وكمحاولة للعثور على تعليل علمي لتنوع الثقافات وتباينها وتفاوتها بحثاً عن مسوغ يكون ذريعة لهيمنة غربية أمريكية على باقي أقطار المعمورة وفرض نموذجها، وهو ما وجد صيغته الفلسفية في أفكار هيجل ولا سيما في كتابه «محاضرات في فلسفة التاريخ»، وصيغته «الأيديولوجية» في أفكار فوكوياما من خلال كتابة موضوع الدرس والتحليل والمساءلة.

ومن المفيد هنا أن نشير إلى ذلك الموقف الإيجابي الذي اتخذه بعض المفكرين من النظرية التطورية في الحياة «البيولوجيا»بوصفها نظرية ذات سند علمي، ومن ثم فلم تكن قابلة في ذاتها لإفراز مثل تلك الرؤية المركزية الماحقة، ذلك أن وظيفتها الأساسية والأصلية كانت هي خلخلة وانتقاد كل قول بالتفاوت في النشأة والخلق، وهو الأمر الذي ينسجم تمام الانسجام مع التصور الإسلامي لوحدة الخليقة والخلق المنبثقة من وحدة أعلى وأسمى هي وحدانية الخالق، فشكلت نظرية داروين ضربات شديدة وقاضية لأولئك الذين كانوا ولا يزالون يعدون الأجناس البشرية ذات أصول مختلفة ومتباينة، إلا أن هذا لا يعني كون التطورية الداروينية قد استغلت وشحنت فيما بعد بمضامين اجتماعية عنصرية ذات أغراض مقصودة. ولعل أبرز من مارس عملية الاستغلال والشحن فيما بعد هو هربرت سبنسر H.SPENCER الذي نقل التطورية من بعدها الحياتي «البيولوجي» الأصلي إلى بعدها الاجتماعي العنصري الملغوم، فنصب في قمة الهرم الاجتماعي لتطور الجنس البشري، الجنس الغربي، وأردفه بالعنصر الآسيوي، وأخيراً وفي الدرك الأسفل وضع العنصر الإفريقي.

وينكشف الوجه المغرض للتطورية الاجتماعية من خلال القول بحتمية التطور الخطي التصاعدي، وعدّ التقدم الغربي غاية التاريخ وكذا وحدة الحقب التاريخية، حتى أضحى العصر الوسيط مثلاً عصراً وسيطاً لكل الحضارات والثقافات، فأصبحنا نسمع عن العصر الوسيط الإسلامي وعن الأدب العربي والفلسفة العربية في العصر الوسيط، حتى عدّ ج كوبانز G COPANS أن هناك تطابقاً وظيفياً بين النظرية التطورية والإيدولوجيا الاستعمارية التي تسوّغ ممارستها بكونها رسالة حضارية ومروراً من حالة أدنى إلى حالة أرقى(٢٧).

بل إن شبنجلر ذاته يرفض الرأي القائل بحضارة إنسانية واحدة تسير في خط مستقيم، ينقسم إلى عهود قديمة ومتوسطة وحديثة، أو ما يشبه ذلك من أنواع الانقسام، ويعد هذا الرأي الصادر عن العقلية الغربية المحدودة ضمن أفقها المعين والمعجبة بمنجزاتها إلى حد الزهو، والتي تحصر الحضارة بذاتها، وتنصرف عن الحضارات الأخرى وتنظر إلى تطورها، وكأنه تطور الإنسانية بكاملها، وإلى عهودها كأنها أواخر مراحل التقدم أو خاتمتها.

فالجزم بوحدة الحضارة من أجل تنصيب الحضارة الغربية في ذروة سنامها، ليس إلا وهماً مرده سيادة الحضارة الغربية الحديثة في المجالين الاقتصادي والسياسي، وهي أنانية تماثل ادعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار، أو قدامى اليونانيين الذين اتهموا غيرهم من الشعوب الشرقية بالتوحش والبربرية، فتقويم مؤرخي الغرب للحضارة الغربية على أنها أسس الحضارات تقويم خاطئ كما يؤكد توينبي.

فهناك حضارة واحدة جديدة من دون غيرها بهذه الصفة ، والغرب وريثها الشرعي من دون منازع إذ معه يبدأ العقل والنظام والمنهج. وهي جميعاً من سمات المعجزة اليونانية، وحينما يخذلهم التاريخ، فيضعهم وجهاً لوجه أمام حضارة إنسانية شامخة وفريدة كالحضارة الإسلامية، فإنهم يعملون بكل الوسائل الماكرة والملتوية للبحث عن عنصر خارجي يكون هو العامل والمحرك لتلك الحضارة وإنجازاتها التاريخية، وهو الأمر الذي أدى بالمستشرقين لويس ماسينيون L.MASSIGNON وهنري كوربان H.CORBIN إلى رؤية التصوف مثلاً ثورة على الإسلام من الداخل من أجل تكسير طوق التحجر والجمود الذي يمثل أبرز خصائصه، فهو ثورة على التوحيد ورجوع به إلى التثليث المسيحي الذي هو المتنفس الحقيقي للعقل والفكر، ومن هنا يأتي انشغال ماسينيون بالحلاج، واهتمام كوربان بالفلسفات الإشراقية الفارسية الإيرانية بوصفها أسمى ما أثمرته العقلية الآرية داخل الإسلام نفسه، وهو ما كشفه أدوارد سعيد، والدكتور حسن حنفي بشيء غير قليل من العمق والذكاء، فالحلاج المصلوب أحد التجليات الصادقة لتجربة السيد المسيح، وحياة الحب حياة مشاركة بين الإسلام والمسيحية، ففي التصوف يلتقي الدينان، وكأن الذوق والإشراق وحده هو مرتكز الإسلام وأساسه، فأين العقل أساس النقل، وأن لا تعارض بين صريح العقل وصحيح النقل؟ وأين التشريع والأحكام والدولة ونظام الحياة؟.

لم يأخذ ماسينيون وغيره من المستشرقين إلا ما اتفق مع المسيحية، ولم يخالفها من أجل فهم مسيحي للإسلام، حيث تجاهل خصوصية الإسلام في العقل والتشريع، مقابل خصوصية المسيحية في الإيمان وملكوت السماوات.

ومعنى هذا أن كل خلخلة أو تقدم وتطور لن تأتي من الإسلام ذاته أو من الجنس العربي الذي هو جنس سام، بل من خارجهما، أي مما له صلة بالغرب نفسه أو المسيحية أو بالعرق الآري، أي إنه لن يكون

غير تاريخ واحد، أما التواريخ الأخرى فهي مجرد توابع له بل هي تواريخ معاقة وعاجزة عن التطور بفعل الطبيعة والعرق والدم.

الخطاب النقدي في مواجهة الخطاب الاستشراقي

إذا كان الخطاب الاستشراقي - الذي لا نبالغ إذا رأينا فوكوياما من حيث المرامي والأهداف البعيدة استمراراً له - من خلال نزعته المركزية السافرة، هو جماع الدراسات والأبحاث التي أنجزها المفكرون الغربيون في أوج النهضة الأوربية وإبان المد الاستعماري، وصولاً إلى مرحلة الهيمنة المعاصرة، تمهيداً للهجمة العسكرية أولاً، والسيطرة الاقتصادية ثانياً، والغزو الثقافي ثالثاً، فلا يمكن عده البتة علماً يستهدف الكشف عن الحقيقة والمعرفة، بل هو محض سلاح في أيدي الدول الغربية لتحجيم الأنا وهيمنة الآخر.. يكشف عن عقلية الغرب وتاريخه وأهدافه ومناهجه أكثر مما يكشف عن الموضوع المدروس.

ومن هنا تأتي ضرورة القضاء على المركزية الغربية كما تجلت لدى صاحب نهاية التاريخ، وبيان كيف أخذ الوعي الأوربي الغربي مركز الصدارة عبر التاريخ الحديث في إطار بيئته الحضارية الخاصة، ورد الثقافة الغربية إلى حدود الغرب الطبيعية، لأن توسع ثقافته وفكره لم يكن أكثر من نتيجة لتوسع عسكري استعماري بغيض، وهيمنة اقتصادية وإعلامية، ومراكمة لفائض قيمة تاريخي مجاني مكنته من احتكار المعرفة وتنميطها على مقاسه وفقاً لتصوراته ومعتقداته.

إننا بحاجة ماسة إلى مقاربة نقدية جادة تقوم على ثنائية الهدم والبناء من أجل القضاء على أسطورة الثقافة العالمية التي يتوجه بها الغرب، ويجعلها مرادفة لثقافته، ويفرض على كل الشعوب أن تتبناها حتى تنتقل من طور التقليد إلى طور الحداثة ... بحاجة إلى تعرية وكشف عمليات المثاقفة Acculturation المزعومة التي تحدث عنها علماء الإنسان «الأنتروبولوجيا» في نظريتهم الثقافية، التي يريد الغرب أن توهمنا بأنها تعني الحوار الثقافي أو التبادل الثقافي أو التثقيف... وهي في حقيقة الأمر تستهدف «وأد»الثقافات المختلفة، وتجفيف ينابيعها بغية انتشار الثقافة الغربية الأمريكية تحديداً خارج حدودها، وهيمنتها على غيرها، وإقامة الغرب النموذج الأوحد لكل تقدم حضاري، فلا نموذج سواه، وما على سائر الشعوب والثقافات إلا تقليده والسير على هديه، بغية إلغاءخصوصيات الشعوب وتجاربها المستقلة، واحتكار الغرب وحده حق إبداع التجارب الجديدة والأنماط الأخرى للتقدم والتنمية، واحتكار ختم التاريخ وإنهائه وبيع صكوك غفرانه لشعوب الجنوب.

إننا بحاجة إلى فكر نظري نقدي تأصيلي يثبت للعالمين أن التراث الغربي الأمريكي ليس بالتراث الإنساني العام، وإنما هو محض فكر بيئي نشأ وفقاً لشروط تاريخية غرسته.

فالخطأ الأكبر الذي اقترفه معظم مفكرينا ممن ترجموا مؤلفات الغربيين وشرحوها وعرضوها وانتسبوا إليها وتماهوا معها واعتنقوها ونذروا أنفسهم مبشرين بها ومدافعين عن ترسيخها وتدويلها، هو جعل الحضارة الغربية في الزمن الأمريكي الصعب حضارة عامة للناس جميعاً بحيث تجاوزنا ما تتميز به من تمركز على الذات واحتقار للآخر، وتهميش له، وعنصرية شوفينية ونزعة تسلطية، وتوظيفية مغرضة.

فالفكر الغربي، إبداعاً وتنظيراً وعلماً ومعتقداً، يكشف عن بناء شعوري متجانس وواحد انبثقت عنه كل المذاهب والتيارات والاتجاهات الفكرية والسياسية والدينية ... ومن ثم فلا مجال لمزيد من الاستلاب وغياب الذات وروح النقد التي بها وحدها يتم تقويم التجارب وتقييمها ووضع حدود الإفادة منها والتعاطي معها.

إننا بحاجة إلى عقل عربي نقاد، عقل رصّاد يملك قدرات عجيبة وقوية على متابعة الظواهر والنظريات ورصدها ودراستها واستخراج دلالاتها الأساسية، وتقديم منظومة غنية من الاستنتاجات العلمية بصددها وكذا كشف خلفياتها وأبعادها.

المراجع والهوامش

١. ميشله Michelet الثورة الفرنسية الجزء الثاني ص:٩٥.
٢. عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة،ص:٣-٤.
* نقصد بذلك فرانسيس فوكوياما من خلال كتابه« نهاية التاريخ والإنسان الأخير» الذي يعد أبرز مؤلف أيديولوجي في أواخر هذا القرن.
٣. فرانسيس فوكوياما، «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، ترجمة مركز الإنماء العربي، الطبعة الأولى١٩٩٣.
٤. عبدالله العروي، مفهوم التاريخ، الجزء الأول، الطبعة الأولى، ص:٦١.
٥. المصدر نفسه.
٦. د.عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ص:٧
٧. رضوان السيد، إشكالية الفكر المعاصر الطبعة الأولى، ص:١٥.
٨. د. عبدالعظيم محمود الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي الطبعة الأولى ١٩٩٠م، كتاب الأمة، ص:٥٥
٩. د.حسن حنفي، «مقدمة في علم الاستغراب» المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، ص:٣٩و٤٠.
10 - B. pascal Fragment de Preface pour le Traite du vide,1647.
in oeuvres, Paris ,Hachette,1908, T.P.P 138-139.
11 - Turgot, Tableau Philosophique des progres successifs de lesprit humain in oeuvres de Turgot edition, Parre, Paris,1844,T2,P60.
12-J,Hyppolite Introduction a l'histoire de Hegel, Paris,1948,chap3,p40.
١٣. انظر بالأساس كتابات إدوارد سعيد حول الاستشراق.
١٤. مصطفى المرابط، المركزية المغربية ونهاية التاريخ، مجلة المنعطف المغربية، العدد ٥، ص:٢٣.
15 - Claude levi - Strauss ,Anthropologie struturale demi Paris, 1973,P.P393-394..
16 - Claude levi strauss Ibid, P 404.
١٧. د.سالم يفوت، الزمان التاريخي من التاريخ الكلي إلى التواريخ الفعلية، دار الطليعة بيروت، ط١، ١٩٩١،ص:٣٧.
١٨. د، سالم يفوت حفريات الاستشراق الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص:٧٣.
١٩. المصدر نفسه، ص:٨١.
٢٠،٢١. عفيف فراج، غربة الروح الحرة بين الشرق وثورته الإسلامية، الفكر العربي المعاصر، عدد ٢٢، السنة ١٩٨٥، ص:٤٠.
٢٢. نقلاً عن عفيف فراج، ٣٠٤، ٣٠٣ G. W.Heagl ,la raison de l'histoire, p
٢٣. فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مرجع سابق ، ص:١٠٣.
٢٤. المصدر نفسه، ص١٠٤.
٢٥. د.مطاع صفدي، مقدمة الترجمة العربية لمركز الإنماء العربي، مرجع سابق، ص١٣
٢٦.المصدر نفسه، ص١٠.
27 - G. Lopaus, Critiques et i.anthropologie,Politiques de Maspero, PARIS, 1979,P13

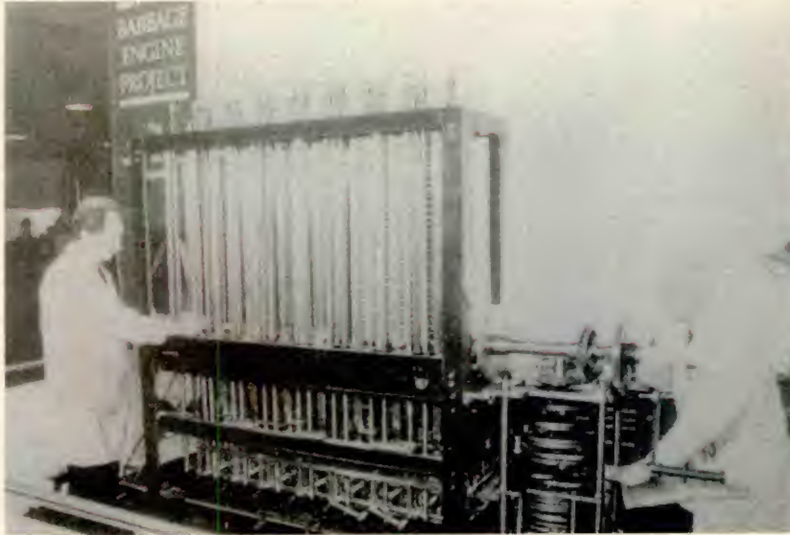
القصة المستمرة لعصر الحاسوب

جميل أرشيد

على الرغم من قدم جذور هذه القصة وتشعبها، إلا أن الجزء الأكثر تشويقًا فيها الذي يتناول موضوع الحاسوب الشخصي لم يزل حديث العهد. وتذكرنا بدايتها الأولى بشخصية الأمريكي إد روبرتس ED ROBERTS، وهو المقاول الذي قامت شركته المشرفة على الانهيار بدور مدهش فعلاً، فهو كغيره من المقاولين، قد عرّض نفسه لمخاطرات كبيرة كادت تودي بشركته، ففي أوائل السبعينيات ارتكب خطأ جسيمًا حين اقترض مبلغًا ضخمًا لإنتاج حاسبات CALCULATORS مبنية على معالجات مصغرة MI- CROPROCESSORS حيث قرر منتجو الرقائق الإلكترونية CHIPS صنع منتجاتهم بأنفسهم وبيعها بنصف سعر حاسبات إد.

لقد كان منتوج إد الجديد المبني على معالج مصغر من طراز IN- TEL 8080 حاسوبًا صغيرًا. فبدا آنذاك كثير من علامات التعجب على وجوه أبرز المسؤولين في مؤسسات إنتاج الحاسوب: «من الذي يحتاج إلى حواسيب صغيرة؟» لم يكن إد متأكدًا من نجاح تلك الفكرة، ولكنه رأى أنها ملحة جدًا حتى قرر صنع الحاسوب بأية طريقة. بالإضافة إلى غرقه في الديون بسبب إخفاق مشروع الحاسبة، فقد كان الأمر بالنسبة إليه سواء؛ لأن أيًا من المشروعين سيدفع الشركة نحو الإفلاس.

لكن الذي حدث لم يكن في الحسبان، فقد عزز ليس سولومون LES SOLOMON وضع حاسوب إد الصغير وشركته MITS حيث وعد بنشر صورة الجهاز الجديد على غلاف مجلة POPULAR ELEC- TRONICS. فبدأ إد يعمل بجد ومثابرة في نيومكسيكو في محاولة لتحسين مظهر الجهاز، آملاً أن يبدو جذابًا على غلاف المجلة.



محرك الفرق الذي تم بناؤه في متحف لندن العلمي في عام ١٩٩١م وفقًا لتصاميم بابيج الأصلية وذلك في الذكرى المئتين لميلاده

لم يكن صنع حاسوب صغير ذي شكل أنيق بالأمر الهين، فقد بدا هذا الجهاز الذي سمي ألتير AL- TAIR كصندوق منبطح مسطح الأوجه. وفي الحقيقة كان هذا الجهاز يتفق مع تعريف الحاسوب في أدنى مقوماته وهي: أن له وحدة معالجة مركزية على الرقاقة، وذاكرة مكونة من ٢٥٦ حرفًا CHARACTER (أي إنها تتسع لفقرة واحدة فقط)، ومفاتيح ومؤشرات ضوئية على واجهته الأمامية

للإدخال والإخراج، ولا توجد له شاشة أو لوحة مفاتيح أو أية وحدات تخزين ثانوية. لكن إد كان جاهزاً لتقديم حاسوبه في وقت صدور عدد شهر يناير/كانون الثاني ١٩٧٥م من مجلة POPULAR ELECTRON-ICS. حيث أعد روبرتس خططه ليطير إلى نيويورك ويعرض الجهاز على سولومون. فأرسل الجهاز مقدماً بواسطة القطار السريع. وقد وصل إد إلى نيويورك ولكن الجهاز لم يصل. لقد فقد أول حاسوب شخصي على وجه الأرض! ولم يكن في الوقت متسع لبناء حاسوب جديد قبل موعد النشر. فما كان من روبرتس إلا أن وضع نسخة زائفة لصورة الغلاف، كما وضع إعلاناً على ظهر المجلة كتب فيه: احصل على جهاز «ألتير» مقابل ٣٩٧ دولاراً.

كان أمل إد أن يتلقى نحو مئتي طلب شراء، ولكن الجهاز الذي يشبه الصندوق ألهب الخيالات على مستوى المنطقة. فلقد أرسل ألفا زبون شيكات بمبلغ ٣٩٧ دولاراً إلى تلك الشركة المجهولة في نيومكسيكو. وهكذا بين ليلة وضحاها حقق الجهاز MITS ALTAIT نجاحاً باهراً.

ومن هنا نرى أن إد روبرتس قد أدى دوراً مهماً في تاريخ الحاسوب الشخصي. ولسوء الحظ لم يضرب ضربته في الوقت الحاسم، بخلاف غيره الذين كانوا يستغلون تلك اللحظات.

وفيما يلي سنلقي نظرة سريعة على السنوات الأولى لتاريخ الحاسوب. ثم ننتقل لنستعرض تاريخه الحديث.

بابيج والكونتيسة

ولد شارلز بابيج CHARLES BAB-BAGE في إنجلترا عام ١٧٩١م، وكان عالماً في الرياضيات ومخترعاً. وعندما كان يحل بعض المعادلات الرياضية وجد أن الجداول الرياضية المعدة يدوياً كانت ممتلئة بالأخطاء. فأيقن أنه سيمكن حل تلك المعادلات بشكل أفضل وأدق إذا أعدت آلة «محرك» خاصة تقوم بحساب الفرق بينها، فبدأ يصنع نموذجاً للعرض لما سماه «محرك الفرق» DIFFERENCE EN-GINE ولاقى هذا النموذج ترحيباً كبيراً، فبدأ في عام ١٨٣٠م بصنع المحرك الفعلي الكامل بحماسة شديدة، مستفيداً من منحة من الحكومة البريطانية.

ومع أن بابيج كان يظن أن أتفه العيوب في المحرك كاف لصرف النظر عنه، إضافة إلى نظرة زملائه إليه كرجل يحاول صنع آلة سخيفة إلى أبعد حد، وأخيراً قيام الحكومة بسحب الدعم المالي للمشروع بعد إنفاق أموال لا طائل من ورائها، إلا أن تلك النكسة لم تشعر بابيج بالإحباط. فقد أعد فكرة لآلة أخرى أطلق عليها اسم المحرك التحليلي ANALYTICAL ENGINE كان يأمل منها أن تنجز عدداً من الحسابات الضرورية. ولم يتم بناء هذا المحرك الجديد في عهده أبداً، إلا أن ابنه تمكن من تركيب نموذج في آخر الأمر. ولم يكن ذلك حتى عام ١٩٩١م، إذ تم صنع محرك تحليلي عامل ووضعه للعرض في لندن. وجسم ذلك المحرك خمس سمات أساسية تميز الحواسيب الحديثة، وهي وجود: جهاز إدخال، ومكان لتخزين العدد الذي ينتظر المعالجة، ومعالج أو حاسبة للأرقام، ووحدة تحكم للسيطرة على المهام وتسلسل العمليات الحسابية، وجهاز إخراج.



آلة الجدولة التي بناها هيرمان هوليريث واستخدمت في جدولة بيانات التعداد السكاني لعام ١٨٩٠م

وإذا كان بابيج هو أبو الحاسوب، فإن آدا ADA (الكونتيسة) هي أول مبرمجة حاسوب، وأبوها هو الشاعر الإنجليزي لورد بيرون، وكانت أمها تتمتع بمواهب في علم الرياضيات، وساعدت آدا على تطوير التعليمات المسؤولة عن العمليات الحسابية في المحرك التحليلي، بحيث لا يمكننا تجاهل دورها الريادي، كما أنها كانت قادرة على إدراك فعالية المنهجية

النظرية لبابينج، وكان اهتمامها دافعاً ومشجعاً له على الاستمرار. كما أنها نشرت عدداً من المذكرات التي كان لها آثار جيدة في آخر الأمر، حيث حثت الآخرين على تحقيق ما لم يستطع بابيج نفسه أن يحققه.

هيرمان هوليريث والإحصاء السكاني

لقد استغرق إعداد الجدول الرسمي للتعداد السكاني المعد يدوياً في الولايات المتحدة عام ١٨٨٠م ما يقارب سبع سنوات ونصف السنة. وكان هذا هو الدافع وراء إعداد



آدا ADA، الكونتيسة، أول مبرمجة للحاسوب في العالم

مسابقة رسمية لإيجاد وسيلة مبتكرة تقلل من الوقت اللازم للإحصاء السكاني لعام ١٨٩٠م في الولايات المتحدة. وفازت آلة هيرمان هوليريث HERMAN HOLLERITH للجدولة في تلك المسابقة. وكانت نتيجة تبني نظام هوليريث أن تم الإعلان عن تعداد غير رسمي للسكان لعام ١٨٩٠م (بلغ ٢٥٠ر٦٢٢ر٦٢ نسمة» بعد إجراء الإحصاء بستة أسابيع فقط.

إن الفرق الأساسي بين آلة هوليريث وآلة بابينج هو أن آلة هوليريث تعمل بالطاقة الكهربائية عوضاً عن الميكانيكية. فعندما أدرك هوليريث أن آلته تتمتع بإمكانات تجارية لا يمكن تجاهلها أسس شركته الناجحة التي سماها TABULATING MACHINE COMPANY عام ١٨٩٦م، والتي اندمجت مع شركتين أخريين عام ١٩٢٤م لتكون شركة IBM INTERNATIONAL BUSINESS MACHINES المعروفة.

واتسون.. المشاكس الناجح

لأكثر من ثلاثين عاماً من ١٩٢٤م إلى ١٩٥٦م، حكم توماس واتسون THOMAS WATSON شركة IBM بقبضته الحديدية. وقد كان عنيداً ومستبداً، ولكنه كان رجل مبيعات خارقاً، فكون لشركة IBM قوة سيادية متينة في سوق الأجهزة والأعمال التجارية كمزود للسوق بالآلات الحاسبة من جهة، ثم كمطور لأجهزة الحاسوب من جهة أخرى.

دخلت شركة IBM مجال تطوير الحاسوب بمساعدة أستاذ رياضيات شاب في جامعة هارفارد هو هوارد إيكين HOWARD AIKEN. ففي عام ١٩٣٦م وبعد أن قرأ مذكرات السيدة آدا لوفليس «الكونتيسة» بدأ إيكين يفكر بصنع نسخة محدثة للآلة التحليلية. ولقوة IBM في سوق الحاسوب وأجهزة الأعمال ووفرة الأموال والإمكانات لديها، استنبط واتسون خطة مدروسة بعناية لهذا الغرض وقدم المشروع المقترح إلى توماس واتسون. فما كان من واتسون إلا أن خصص مليون دولار لتمويل المشروع. وكانت النتيجة هي ولادة الجهاز «هارفارد مارك الأول» HARVARD MARKET1.

بداية العهد الحديث للحاسوب

لم يكن لمارك الأول مثيل قط، فقد كان ارتفاعه ٥ر٢ متر، وطوله نحو ١٧ متراً! وقد صنع من الفولاذ المشكل والزجاج، وكان يحدث صوتاً عند المعالجة كصوت الإبر المعدنية في أثناء الحياكة، وفي عام ١٩٤٤م كشف النقاب عن مارك الأول الذي لم يكن بالكفاءة المرتقبة، ولكن الشهرة الضخمة التي اكتسبها هذا الجهاز دعمت وأكدت وعود IBM بتطوير الحاسوب، وكان ذلك مصاحباً للتقدم التقاني (التكنولوجي) في شتى الأصعدة.

وحث موظفو القوات المسلحة الأمريكية الدكتور جون موكلي JOHN MAUCKLY من جامعة بنسلفانيا على ابتكار آلة يمكنها حساب مسارات قذائف سلاح المدفعية والصواريخ بسرعة فائقة. وقد اعتمد موكلي وأحد طلبته ويدعى برسبر إيكرت PRESPER ECKERT على أعمال الدكتور جون أتاناسوف JOHN V. ATANASOFF، أستاذ الفيزياء في جامعة ولاية آيوا. ففي أواخر الثلاثينيات أمضى أتاناسوف أوقاته محاولاً صنع أداة حسابات إلكترونية يمكنها أن تساعد طلبته على حل المسائل الرياضية. ونجح هو ومساعده كليفورد بيري CLIFFORD BERRY في بناء أول حاسوب رقمي يعمل إلكترونياً وأطلقا عليه اسم ABC اختصاراً للعبارة: ATANASOFF BERRY COMPUTER.

وبعد أن التقى موكلي بأتاناسوف وبيري في عام ١٩٤١م استخدم جهاز ABC قاعدة لخطوته التالية في تطوير الحاسوب، فنشأت دعوى قضائية نتيجة لذلك اللقاء واستخدام

الأفكار المسروقة محاولة للحصول على براءة اختراع لإنتاج تجاري من الآلة التي طورها موكلي. وفصلت الدعوى القضائية عام ١٩٧٤م، عندما أقرت المحكمة الفدرالية أن أتاناسوف هو المخترع الأصلي للأفكار التي استلزمها بناء حاسوب رقمي إلكتروني يعمل فعلاً. (مازال بعض مؤرخي الحاسوب يناقشون هذا القرار ويشككون في صحته!) واستطاع موكلي وإيكرت استخدام مبادئ الآلة ABC في تطوير جهاز إنياك ENIAC الذي جاء اسمه اختصاراً للعبارة الإنجليزية ELECTRONIC NUMERICAL INTEGRATOR AND CALCULTOR التي تعني «المكامل والحاسب الإلكتروني الرقمي». وكان من أهم مميزاته أنه أول حاسوب يوظف لإنجاز أغراض عامة كما أنه السلف لجهاز يونيفاك الأول UNIVACI أول حاسوب بيع بشكل تجاري.

وبدأ عصر الحاسوب

لعل الشيء المميز لعصر الحاسوب هو أن الكثير قد حدث في وقت قصير. لقد تجاوزنا أربعة أجيال من (التكنولوجيا) خلال أربعين عاماً تقريباً، وهي فترة وجيزة من الزمان لم تزل أحداثها مطبوعة في أذهان الكثيرين حتى يومنا هذا. كانت الأجيال الثلاثة الأولى من الحواسيب مرتبطة بثلاثة تطورات تقنية مهمة هي: الأنبوب المفرغ، والترانزيستور، والدارة التكاملية، وقد أحدث كل منها تغيرات جذرية في طبيعة الحواسيب، وحيث إننا نحدد الفترة الزمنية لكل من هذه الأجيال وفقاً لبدء الإصدار التجاري لكل من تكنولوجيا المكونات الصلبة أو الأجزاء المادية للحاسوب HARD WARE فإن تحديد الأجيال اللاحقة بدأ يزداد تعقيداً بسبب التعقيد المتزايد في الصناعة بشكل عام.

الجيل الأول: (١٩٥١ ـ ١٩٥٨م): الأنبوب المفرغ VACUUM TUBE:

يمكن أن تحدد بداية العصر التجاري للحاسوب بتاريخ ١٤ حزيران/ يونيو من عام ١٩٥١م، وهو تاريخ تسليم جهاز من طراز يونيفاك UNIVAC UNIVERSAL AUTOMATIC COMPUTER للزبون الأول وهو دائرة الإحصاءات الرسمية الأمريكية لاستخدامه في جدولة الإحصاء السكاني للعام المنصرم. كما أنه التاريخ نفسه الذي يحدد المرة الأولى التي تم فيها صنع جهاز حاسوب للاستخدام في الأعمال التجارية بالإضافة إلى الاستخدامات العسكرية أو العلمية أو الهندسية. وفي الحقيقة كان اليونيفاك نسخة مقنعة من «إنياك» وهو من صنع موكلي وإيكرت اللذين قاما بتأسيس شركتهما الخاصة عام ١٩٤٧م.

في الجيل الأول استخدمت الأنابيب المفرغة وهي أنابيب إلكترونية بحجم الجزء الزجاجي المنتفخ للمصباح الكهربائي، كمكونات الحاسوب الداخلية. وبما أن الآلاف من هذه الأنابيب مطلوبة لصنع جهاز واحد، فإن الحرارة الناجمة عن تشغيلها تسبب مشكلة حقيقية، ولوجوب تشغيل كل هذه الأنابيب معاً في أثناء العمل، فإنها تكون عرضة للتلف المتكرر، وهذا الاحتمال كان يحير بعض العاملين في تشغيل الحاسوب عندما تظهر مشكلة ما، بحيث لا يستطيعون الحكم عليها أكانت ناجمة عن خطأ في برنامج التعليمات أو الآلة.

ولعل أبرز العوائق التي جعلت من برمجة الحاسوب أمراً صعباً مبدئاً للوقت كانت اللغة المستخدمة في البرمجة، وهي لغة الآلة MACHINE LANGUAGE التي تستخدم الأرقام فقط لإدخال التعليمات والبيانات. بيد أن لغات البرمجة الحديثة العالية المستوى HIGHER LEVEL LANGUAGES تشبه اللغة الإنجليزية. واستخدمت الحلقات المغنطة MAG-



كان عام ١٩٥١م بداية الانطلاق لاستخدام الحاسوب في الميادين العسكرية والعلمية والهندسية

NETIC CORES لتزويد يونيفاك بالذاكرة، وهي حلقات صغيرة بشكل «كعكة الدونت» وبحجم رأس الدبوس مسلكة كمسبحة على أسلاك معدنية رفيعة. واستخدمت البطاقات المثقبة لتخزين البيانات كتكملة للذاكرة الأساسية في الجيل الأول. وفي عام ١٩٥٧م ظهر الشريط المغنط كوسيلة أسرع وأقل حجماً لتخزين البيانات.

الجيل الثاني: (١٩٥٩ - ١٩٦٤م): الترانزيستور TRANSISTOR:

قام ثلاثة من علماء مختبر بل BELL LAB وهم باردين وبراتين وشوكلي، بتطوير الترانزيستور، وهو أداة صغيرة تنقل الإشارات الإلكترونيةعبر مقاومة. بدأ الاسم TRANSISTOR كعلامة تجارية جاءت من مزج الكلمتين RESISTOR مع TRANSFER وحاز هؤلاء العلماء مؤخراً على جائزة نوبل تقديراً لهذا الاختراع، إذ أحدث الترانزيستور ثورة كبيرة في تكنولوجيا الإلكترونيات عموماً وفي الحاسوب على وجه الخصوص. وكانت الترانزيستورات أصغر بكثير من الأنابيب المفرغة بالإضافة إلى عدد من المميزات الأخرى التي من أهمها: أنها لا تحتاج إلى وقت تسخين حتى تصبح جاهزة للعمل، واستهلاكها من الطاقة أقل. كما أنها أسرع وأكثر وثوقية.

خلال هذا الجيل، حدث تطور مهم هو التحول عن استخدام لغة الآلة في البرمجة إلى استخدام لغة التجميع ASSEMBLY LANGUAGE التي سميت أيضاً لغة الترميز SYMBOL-IC LANGUAGE. وتستعمل لغة التجميع الاختصارات للتعبير عن التعليمات (مثلاً L اختصار LOAD لتعليمة التحميل عوضاً عن الأرقام،



محاولة استخدام الحاسوب في المجال العسكري من أسباب تطور تقنياته

وهذا ما جعل البرمجة عملاً أسرع وأقل إرهاقاً.

وبعد تطوير لغة الترميز ، جاءت اللغات العالية المستوى LEVEL HIGH LANGUAGE كلغة فورتران FORTRAN في عام ١٩٥٤م، ولغة كوبول COBOL في عام ١٩٥٩م، وهما أقرب إلى اللغة الإنجليزية من لغة التجميع، ولا تزالان تستخدمان بكثرة حتى يومنا هذا بأشكال مطورة. وقد سمحت اللغات العالية المستوى للمبرمجين بإعطاء قدر أكبر من الاهتمام والتركيز على حل المسائل البرمجية ذاتها. وتم أيضاً تسويق أول حزمة أقراص متنقلة REMOVABLE DISK PACK في عام ١٩٦٢م. ودعمت أقراص التخزين هذه عمل نظام الأشرطة المغنطة التي مكنت المستخدمين من الوصول إلى البيانات المطلوبة بسرعة عالية.

وهذه التطورات الجديدة مجتمعة جعلت الجيل الثاني من الحواسيب أقل تكلفة للعمل، مما أدى إلى اندفاع موجة النمو الهائلة في أنظمة الحاسوب. وطوال هذه الفترة كانت الحواسيب تستخدم بالدرجة الأولى في المؤسسات التجارية والجامعات والمنظمات الحكومية، ولم تصل إلى عموم الناس. ولكن الجزء الحقيقي من الثورة كان على وشك الانفجار.

الجيل الثالث (١٩٦٥م - ١٩٧٠م): الدارة التكاملية INTEGRATED CIRCUIT:

يعد السيليكون واحداً من أكثر العناصر الكيماوية وفرة في الطبيعة، وهو مادة غير معدنية

«شبه معدنية» يوجد بكثرة في رمال الشواطئ والصخور. إن أهمية هذا العنصر لبلدة «سانتا كلارا» الأمريكية التي تقع على بعد ثلاثين ميلاً جنوب مدينة «سان فرانسيسكو» وراء اللقب الذي أطلق عليها وهو «وادي السيليكون»، ففي عام ١٩٦٥م أصبح وادي السيليكون الموقع الرئيس لتصنيع رقائق السيليكون التي تطبع عليها الدارات التكاملية.

الدارة التكاملية IC هي دارة إلكترونية كاملة مثبتة على رقاقة صغيرة من السيليكون. تكون الرقاقة أحياناً على شكل مربع لا يتجاوز طول ضلعه ٣٢مم وتحتوي على

الملايين من المؤلفات الإلكترونية. وهذه الدارات التكاملية التي بدأ إنتاجها عام ١٩٦٥م حلت محل الترانزيستور في صناعة الحواسيب، وسميت الأجهزة التي ظهرت آنذاك بحواسيب الجيل الثالث. وكانت دارة تكاملية واحدة كافية لاستبدال رقاقة واحدة من السيليكون أصغر حجماً بكثير من ترانزيستور واحد بلوحة دارات كاملة من الترانزيستورات.

تصنع الدارات التكاملية من السيليكون لأنه شبه موصل. أي أنه مادة متبلورة توصل التيار الكهربائي بعد معالجتها بمستحضر كيماوي يتألف من شوائب ناقلة تدمج في بنيتها الشبكية. تشرح أسطوانات السيليكون إلى رقائق دائرية WA-FERS قطر الواحدة منها نحو ١٥سنتيمتراً، ثم تطبع الخطوط الأساسية «الكليشية» لمخطط مجموعة الدارات الإلكترونية على كل منها تكراراً مع إمكانية رسم عدة طبقات من المخططات على رقاقة واحدة. وتقسم كل رقاقة بعد ذلك إلى بضع مئات من الرقائق الصغيرة CHIPS على كل منها دارة إلكترونية كاملة بالغة الصغر بحجم نصف ظفر الإنسان إذا وضعت تحت المجهر فإنها تبدو في تعقيدها وكأنها ساحة التقاء خطوط السكك الحديدية.

وقد لاقت الرقائق ترحيباً مميزاً كقفزة نوعية في التقدم التقني للحواسيب لما تتمتع به من خصائص مرغوبة أهمها: الوثوقية من حيث النتائج، وصغر الحجم وانخفاض الكلفة. كما وفرت تقنيات إنتاجها على نطاق واسع إمكان تصنيع دارات تكاملية بكلفة مقبولة نسبياً.



أفاد الإعلام كثيراً من تطور صناعة الحاسوب

أعلنت بداية الجيل الثالث بطرح سلسلة IBM 360 «المقصود بالتسمية هو دائرة كاملة من الخدمات ذات ٣٦٠ درجة». في الأسواق بتاريخ السابع من نيسان/أبريل عام ١٩٦٤م.

وجاءت العائلة الملقبة«SYSTEM/360» من أجهزة الحاسوب والمصممة خصيصاً للأعمال والاستخدامات العلمية بعدة طرازات وأحجام. وكانت علبة المعدات الآلية زرقاء تعبيراً عن اللقب الذي اشتهرت به IBM وهو الأزرق الكبير BIG BLUE.

أطلقت أجهزة السلسلة ٣٦٠ في الأسواق مصحوبة بضجة دعائية ضخمة، ومحاطة بهالة كبيرة من الإثارة التسويقية التي تهدف إلى جعل الحاسوب أداة أساسية في الأعمال التجارية وجذب انتباه المؤسسات التجارية والحكومية المتوسطة والصغيرة الحجم التي لم تدخلها الحواسيب بعد. ولكن النتائج فاقت ما كان يحلم به خبراء شركة IBM، إذ استردت الشركة الخمسة مليارات دولار التي استثمرتها في تطوير سلسلة الأجهزة من طراز SYSTEM/ 360 خلال فترة قصيرة، كما احتل هذا النظام مكانة مرموقة جداً مما جعل الكثير من الحواسيب الموجودة آنذاك مهملة ومهجورة. وكان «الأزرق الكبير» في طريقه إلى النجاح.

أصبحت البرمجيات خلال ظهور هذا الجيل أكثر تعقيداً، فأضحى من الممكن أن تعمل عدة برامج في الوقت نفسه مشتركة في استغلال إمكانات حاسوب واحد، مما ساعد على زيادة كفاءة أنظمة الحاسوب. كما تم في تلك الفترة تطوير الأنظمة البرمجية التي تدعم المعالجة الفورية الفاعلة IN-TERACTIVE PROCESSING وكانت تستخدم المطاريف TERMINALS جاعلة المستخدم على اتصال مباشر مع الحاسوب الرئيس. وهذا النوع من المعالجة وإمرار المعلومات كان سبباً في ازدهار صناعة خدمات الزبائن أو العملاء، خصوصاً في مجالات الحجز والخدمات المصرفية.

وبدأت الحواسيب المتوسطة MINI COMPUTERS في دعم حواسيب الجيل الثالث الكبيرة، إذ إنها مكافئة

وظيفيًا لحواسيب الأنظمة الكاملة، ولكنها أبطأ نوعًا ما، وأصغر وأقل كلفة منها، مما ساعدها في تحقيق نجاح هائل مع المشاريع التجارية المتوسطة والصغيرة.

الجيل الرابع (١٩٧١ ـ الوقت الحاضر): المعالج المصغر MICRO-PROCESSOR:

حققت الحواسيب خلال السبعينيات زيادة كبيرة ومفاجئة من حيث السرعة والوثوقية والسعة التخزينية، ولكن الدخول في الجيل الرابع لم يكن مصحوبًا بثورة جديدة، إنما كان ثمرة التطور السابق، لأن الجيل الرابع كان امتدادًا لتكنولوجيا الجيل الثالث. ففي بدايات الجيل الثالث، كانت الرقائق المتخصصة تطور من أجل استخدامها في ذاكرة الحاسوب ومنطقه، وهكذا كانت جميع أجزاء الحاسوب جاهزة في مكانها الصحيح للخطوة القادمة من التطور التكنولوجي، وهي ابتكار معالج على رقاقة واحدة للأغراض العامة، وهو ما سمي المعالج المصغر، والذي أصبح متوافرًا في الأسواق عام ١٩٧١م.

ولم تظهر قوة الحاسوب في أي زمان ومكان بمثل الوضوح الذي بدت عليه حين تم استخدام المعالج المصغر. فبالإضافة إلى استخداماته الشائعة في الساعات الرقمية والآلات الحاسبة والحاسوب الشخصي، يمكنك أن تتوقع وجوده فعليًا ضمن معظم الآلات في المنزل أو العمل، كأفران الميكروويف والسيارات وآلات التصوير المكتبية وأجهزة التلفاز وغيرها.

وقد أصبحت الحواسيب اليوم أصغر حجمًا بمئة مرة مما كانت عليه في الجيل الأول، وباتت رقاقة واحدة أكثر فعالية من جهاز إنياك.

الجيل الخامس: التحدي الياباني:

إن تعبير «الجيل الخامس» الذي صاغه اليابانيون ما هو إلا محاولة لوصف الحواسيب الجبارة والذكية التي كانوا يرغبون في صنعها في النصف الثاني من التسعينيات، ومنذ ذلك الحين أصبح هذا التعبير مظلة واقية تطوق عددًا من حقول الأبحاث في مجال صناعة الحاسوب.

ومن أبرز حقول الأبحاث في هذا المجال ما يسمى بالذكاء الاصطناعي ARTIFICIAL INTELLIGENCES والأنظمة الخبيرة EXPERT SYSTEMS واللغات الطبيعية NATURAL LANGUAGES وغيرها.

وقد أثّر الإعلان الياباني عن ظهور الجيل الخامس في بداية الأمر في صناعة الحاسوب بأكملها، فكان بعض الناس ينظرون إلى الجيل الخامس على أنه مسابقة حادة بين اليابان والولايات المتحدة لن تكون جائزتها أقل من تحقيق السيادة في صناعة الحاسوب على سطح هذا الكوكب. لكن الميزانية اليابانية لتمويل المشروع بدأت تنخفض بوضوح في السنوات الأخيرة، كما أن الحماسة التي رافقته منذ البداية أخذ يقل شيئًا ما.

القصة المفصلة للحاسوب الشخصي

الحاسوب الشخصي هو الآلة التي يمكنك أن تجلس على مقربة منها فتكون صديقك الحميم سواء أكنت هاويًا أم محترفًا، فعلاً، لا شيء يوازن حصولك على حاسوبك الشخصي. فلهذا النوع من الحواسيب قصة شخصية أيضًا، ملأى بحكايات النجاح والإخفاق، وبشخصيات كان لها الأثر الكبير في تطويره.



قفزة نوعية في صناعة الحواسيب

حين يصبح مرآب السيارة مصنعًا للحواسيب!

كما ذكرت في بداية الحديث، فإن أول حاسوب شخصي هو ألتير MITS ALTAIR، الذي تم إنتاجه في عام ١٩٧٥م. ولكنه كان جهازًا تعوزه سهولة التحكم والإدارة، فقد كان يعج بالمفاتيح والأزرار والأقراص المرقمة «كقرص الهاتف» والإشارات الضوئية، من دون شاشة أو لوحة



تبدع شركات الحاسوب في إنتاج الأقراص المرنة

مفاتيح. لقد أوقف اثنان من الشباب الأمريكيين المراهقين، هما ستيف جوبز وستيف فورنياك، نفسيهما لجذب انتباه الجمهور وخيالاته بعرضهما أول حاسوب من إنتاج شركة أبل APPLE CORPORATION. ومما يلفت الانتباه أنهما قد صنعاه في المرآب أو «الجراج» برأسمال قدرة ١٣٠٠ دولار هي عائدات بيعهما لسيارة فولكس فاجن قديمة. وبما أنه قد صمم للاستعمالات المنزلية، كان أبل هو أول جهاز يتم تزويده بشاشة ولوحة مفاتيح. وكان حاسوب «أبل» الذي قدم عام ١٩٧٧م مشروعاً ناجحاً وواسع الانتشار. فعندما عرض المخزون المتبقي منه للعامة عام ١٩٨٠م، لم يبق منه شيء، فقد اشتراه المستثمرون المتلهفون عليه وفروا به. وقدّمت أبل للسوق سلسلة قوية ذات كفاءة متضاعفة من أجهزة الحاسوب، من ضمنها أجهزة ماكنتوش MACINTOSH الشهيرة، التي مازالت مطلوبة بكثرة حتى الآن.

وكانت شركة تاندي المحدودة TANDY INCORPORATED، قد حققت في تلك السنوات المبكرة من عمر الحاسوب بروزاً كبيراً، حيث كانت شبكة فروعها المنتشرة في أنحاء العالم توفر أسواقاً تسهل بيع الحاسوب الشخصي TRS - 80، وتجعله في متناول العامة من الناس. ومن بين صانعي الحاسوب الآخرين في أواخر السبعينيات الذين تمتعوا بنجاح كبير، شركتا أتاري ATARY وكومودور COMMODORE ثم أخذ عدد هذه الشركات بالازدياد منذ ذلك الحين.

حادثة IBM PC الاستثنائية

أعلنت IBM عن طرح حاسوبها الشخصي الأول في صيف عام ١٩٨١م، واستولت على حصة الأسد من السوق العالمية خلال ثمانية عشر شهراً فقط، والأهم من ذلك أن جهازها الذي طرحته في الأسواق قد أصبح المعيار الأساسي لهذه الصناعة. لقد كانت حقاً تمثل ظاهرة يتجلى فيها النجاح والواقعية.

وقد تركت شركة IBM آثاراً حسنة في تصميم الحاسوب الشخصي؛ فعلى سبيل المثال أتاحت المجال لتوسيع الذاكرة، كما أنها زوّدت حواسيبها بعدد من منافذ التوسع الداخلية INTERNAL EXPANSION SLOTS لتتيح المجال أمام منتجي معدات الحاسوب الإضافية PERIPH-ERAL EQUIPMENT لتصنيع الملحقات أو الإكسسوارات ACCES-SORIES لحاسوب IBM الشخصي. بالإضافة إلى كل ذلك وفرت IBM مخططات المكونات الصلبة للحواسيب HARDWARE وجداول البرمجيات SOFTWARE اللازمة للشركات الراغبة في تطوير المنتجات بالتعاون والتزامن مع حواسيبها الجديدة. والجدير بالذكر أن عدداً من هذه المنتجات الجديدة قد تسبب في زيادة الطلب على جهاز IBM.

وأسرع منتجو الحواسيب الشخصية الآخرون لمنافسة IBM عندما طرحوا حواسيب مقلدة تحاكي حاسوب IBM الأصلي قادرة على تشغيل البرامج المصممة للعمل عليه.

وفي غضون ذلك بدأت IBM بعرض إصدارات جديدة أكبر وأصغر من حاسوبها الشخصي PC XT, PC: PORTABLE PCAT وطرازات متنوعة من جهاز Ps/2، وبسبب هذه المنافسة المتزايدة، فإن IBM أصبحت تواجه بعض التحديات العنيفة في السنوات الأخيرة للمحافظة على مكانتها القيادية في أسواق الحاسوب الشخصي.

وتستمر القصة

وتستمر قصة الحاسوب الشخصي بلا نهاية حاملة عدداً من التطورات اليومية التي تنعكس بدورها على عجلة الأحداث التجارية. في حين أخذت آثار الحاسوب الشخصي تصل إلى أبعاد مختلفة مع بقائها المحور الأساسي لصناعة الحواسيب.

ولم يزل تاريخ صناعة الحواسيب في فصوله الأولى، فهو يتطور بسرعة لا تكاد تصدق بحيث لا يمكن لكتاب أن يدعي أنه يتناول جميع التطورات الأخيرة في هذا المجال. ومهما يكن، فإن المكونات الأساسية الأربعة لنظام الحاسوب وهي: الإدخال، والمعالجة، والإخراج، والتخزين، ستبقى متجسدة فيه مهما يكن تاريخه.

بيمارستان أرغون الكاملي المملوكي
دار رحمة وشفاء

رفاه محمد كامل

هل تعلم قدر انتشار البيمارستانات في أصقاع العالم الإسلامي على مر العصور؟ إنك سوف تعجب حين تأتيك المراجع بسرد واسع لأنواعها وأعدادها، فلقد ذكر الدكتور أحمد عيسى صاحب كتاب تاريخ البيمارستانات المئات، تبتدئ عمارتها من القرن الأول وتمتد إلى نهاية القرن العاشر الهجري. أذكر لك منها:



صحن البيمارستان ومن حوله الأروقة

بيمارستان الوليد بدمشق ٨٨هـ، والعضدي ببغداد ٣٧٢هـ، والنوري الكبير بدمشق ٥٤٩هـ، وبيمارستان القدس بفلسطين ٥٨٣هـ، والناصري أو الصلاحي بمصر ٥٦٧هـ، والمستنصر العباسي بمكة ٦٢٣هـ، وبيمارستان سيدي فرج بفاس بالمغرب العربي ٦٨٥هـ. فما البيمارستان؟

البيمارستان لفظة فارسية ركبت من كلمتين (بيمار) ومعناه مريض و(ستان) ومعناه مكان فتكون إذن (مكان المرضى) أو (دار الشفاء) أو المستشفى.

دور الإسلام في بناء المقرات الإنسانية

افتنّ المسلمون في بناء المدارس لتوصيل العلم إلى طلابه

الذين ينشدونه، والتكايا لإيوائهم وإيواء المرتحلين من العلماء، مع إطعام هؤلاء جميعاً. وافتنّوا في بناء المطابخ لإطعام الفقراء من المسافرين وعابري السبيل. وافتنّوا في بناء البيمارستانات لتطبيب المرضى في مختلف أنواع الأمراض. «فما كان المسلمون يعيشون لأنفسهم، بل كانوا يعدون خير الناس وسعادتهم من أعظم الأمانات التي حملوها، وعليهم ألا يألوا جهداً في تأديتها على حقها، فكان الخير العام هو السمة التي اتسم بها تاريخهم بين تواريخ الأمم قاطبة في القديم والحديث»(١).

بعض خطط خلفاء الإسلام

لعل كثرة البيمارستانات (المشافي) تعود إلى الخطة التي وضعها خلفاء الإسلام نصب أعينهم، وهي إفاضة النعمة على الرعية حتى يتمتع الملوك والسوقة بدرجات متقاربة من رغد العيش ورفاهية الحياة(٢)، وما ذاك إلا لأنهم تخرجوا في مدرسة القرآن، يتفقهون في أحكامه، ويتمتعون بدراسة معانيه. يُلزمُهم إيمانهم الصادق تطبيق تلك الأحكام في مختلف العصور، فاقتدى الخلفاء والحكام بهدي رب العالمين الرحمن الرحيم، وامتثلوا لآيات الرحمة التي ترد في أغلب سور القرآن داعية للتراحم في تخليص الفقراء من العوز، والمظلومين من الظلم، والمرضى من المَرَض لأنهُ يخلُّ بجمال الإنسان في الفكر والشكل، ويعطل عطاءه لخير المجتمع.

لقد قرأ المسلمون آيات الرحمة حكاماً ورعية، ورتلوها في صلواتهم، فارتقت بهم من العقيدة إلى التطبيق، فكان القرآن الروح الخلاقة التي تبعث فيهم خيراً ورحمة تتدفق الينابيع منهما على البشر والوجود كافة. *تلك آياتُ الكتاب الحكيم هدىً ورحمة للمحسنين*. **لقمان:٣**.

أحوال البيمارستانات في بلاد الشام

أشهر البيمارستانات الشامية ثلاثة هي النوري الكبير بدمشق (٥٤٩هـ)، والنوري المعروف بالبيمارستان العتيق بحلب نحو (٥٥٠هـ) والثالث البيمارستان الجديد المعروف ببيمارستان أرغون الكاملي (٧٥٥هـ).

وكانت هذه البيمارستانات تبنى بأوامر سلطانية، وتوقف لها الأوقاف من الضياع والبساتين والطواحين والطوابين (الأفران) والدكاكين والخانات لاستمرار الصرف عليها، ويوكل إلى ناظر الوقف الإشراف على



الممر من الباب إلى صحن البيمارستان الكبير

أرزاقها ومصروفاتها، وكانت تفتح للجميع يأتونها يتطببون «فكان كل من جاء البيمارستان طُبِّب وأعطي شرابه، وإن كان غريباً احتفي به وقدّم له أحسن المآكل»(٣).

وغالباً ما يختار السلطان أو من يتولى الأمر بتوجيه من السلطان تعيين الأطباء في البيمارستان، يتوزعون على الاختصاصات، ويُوكل لرئيس الأطباء، إلى جانب المداواة والعلاج، الإشراف على أحوال المرضى من كيفية العلاج وصرف الدواء والغذاء وتدبير النظافة والفرش ومراقبة المطابخ والأطعمة وما شابه ذلك فيتم فيها العلاج الداخلي والخارجي، ويعتنَى بالصيدلية (الشراب خانة) ويعيَّن لها الصيدلاني والمختصون بتحضير الأشربة والأدوية، والاعتناء بأدوات التطبيب والعلاج، ويرتَّب لها المرضون والفراشون، وتُجهَّز بوسائل الرفاهية والتسلية، وبجميع ما يلزم لتحضير الأدوية من الفواكه والبقول والأعشاب والحبوب

والعقاقير والأفاوية، والترياق، وبجميع أدوات الطبخ، وتجهَّز بكل ما يحتاج إليه الأطباء في التطبيب، والمرضى في التداوي والعلاج.

إنها «كانت مستشفيات عامة تعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية إلا أنها أصابتها الكوارث ودار بها الزمن وحل بها البوار وهجرها المرضى فأقفرت إلا من المجانين»(٤).

العصر التاريخي لبناء بيمارستان أرغون الكاملي

نستطيع أن نقول: إن هذا البيمارستان بني في عصر دولة المماليك التي انتزعت الملك من الدولة الأيوبية بعد معركة عين جالوت وانتصار قُطُز على المغول، وبروز دور قائد المقدمة بيبرس الذي يعدّ المؤسس الفعلي لهذه الدولة بعد انتصاره الكبير في عين جالوت على المغول وتحرير أنطاكية من الغزاة الفرنجة، وتحرير حصن الأكراد (قلعة الحصن) من الفرنجة أيضًا سنة ٦٦٩هـ، ثم يجيء قلاوون الذي كان له دور كبير في تطهير آخر معقلين في طرابلس وعكا من الفرنجة، وقد تتابع الملوك من سلالة قلاوون ومنهم الملك الصالح بن الملك الناصر محمد ابن السلطان قلاوون، وبتوجيه من الأول تم بناء البيمارستان الجديد في حلب من قبل المتولي على حلب أرغون الكاملي.

وحسب رواية «النجوم الزاهرة» لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي(ت:٨٧٤هـ) أدرك المماليك ومن قبلهم الأيوبيون أن خط الدفاع الثاني هو هذه العمارات التي تؤدي دورًا في إنهاض الهمم وتولد الثقة بين السلاطين والملوك المنفذين لأحكام الله في الرعية، والرعية التي تنفذ أوامر الله في طاعة أولي الأمر من الحكام، فهذه اللُحمة بين الشعب وحكامه هي البداية والنهاية في الفتح المؤزر والنصر المبين.

الوثائق التي تثبت من هو باني البيمارستان

تثبت عبارات ابن كثير (ت:٧٧٤هـ» في «البداية والنهاية» من هو باني البيمارستان فيقول: «اجتهد أرغون الكاملي، ورفل بأثواب ثوابه وأجره، وشيّد بنيانه، ومهد مجالسه وإيوانه، ورفع قواعده، وهيأ بيوته



صحن البيمارستان والبركة مع الرواق القبلي

ومراقده، وأعد له الآلات والخدم، ورتب لحفظ الصحة فيه أرباب الحكم، وأباحه للضعيف والسقيم، ورواه بالمياه الكثيرة، وأنفق عليه أموالاً غزيرة، وأجرى عيونَ معلومه وجرايته، ووقف للقيام بمصالحه ما يزيد على كفايته»(٥).

كما تثبت عبارات الغزي في (نهر الذهب في تاريخ حلب) التي تعيد تقريبًا عبارات ابن كثير أن الباني هو أرغون الكاملي فيقول: «بناه أرغون الكاملي سنة ٧٥٥هـ وأعد له الآلات والخدم، ورتب لحفظ الصحة فيه أطباء، وأباحه لكل وارد وصادر، وأرواه بالمياه، وشرط فيه قراء يقرؤون طرفي النهار، وخبزًا يتصدق به، ورتب له ما يحتاج إليه من الأشربة والكحل والمراهم والدجاج»(٦).

كما أن حزام الكتابة في مدخله يشير إلى تولي أرغون الكاملي تنفيذ البناء بأمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون.

عمارة بيمارستان أرغون

وكأن مدخل البيمارستان عنوان لجمال البناء ورمز لدقة العمارة ومهارة المعمار، فكما تعنون القصائد والموضوعات لتشير إلى موضوعاتها، يحرص المعمار أن يكون مدخل عمارته معبراً عما فيه؛ وفعلاً حرص المعمار أن يزين المدخل بالمقرنصات التي تملأ قنطرة الباب البيضوية، وبحزام الكتابة النسخية الأنيقة، وبالباب الخشبي المصفح بالبرونز، وبدقاقتين كبيرتين تزينان وسط مصراعي الباب من النحاس الأصفر تبرقان كالذهب. فإذا تجاوزت المدخل تلقاك حجرة على يسارك، وبعد خطوات تلقاك حجرة على يمينك، وهما قاعتان كانتا مجهزتين لجلوس الأطباء، ولتصنيف الأدوية والأشربة، فكأن إحدى الحجرتين عيادة والثانية صيدلية، فإذا مررت من هذا القسم إلى دهليز ضيق انفتح أمامك صحن واسع تتوسطه بركة ذات نافورة بوسطها، ويحيط بالصحن من الشمال والجنوب رواقان تتقدمهما ثلاث قناطر ترتكز على أعمدة رشيقة، ويوجد إلى غرب الصحن رواق ضيق أيضاً تتقدمه قناطر تنهض على أعمدة ذوات تيجان مزخرفة، وبين جميع تيجان الأعمدة وركائز القناطر عضادات خشبية حماية من الزلازل.

وهناك غرف متعددة في الرواقين، في الشرقي خمس، وفي الغربي أربع. وهذه الغرف خاصة بالمرضى موزعة على أنواع الأمراض.

وفي نهاية الرواق الشرقي ممر يصل بك إلى دهليز تنفتح عليه ثلاث حجر متدرجة في المساحة، فالشمالية لحبس المجانين من الدرجة الأولى، والوسطى للمجانين من الدرجة الثانية، والجنوبية للمجانين العقلاء أو الذين نجح معهم العلاج.

وجميع القاعات الثلاث تتوسط الواحدة منها بركة ذات نافورة، وفوق البركة قبة ذات فتحة دائرية إلى السماء، وللبركة والفتحة دور في استشفاء المرضى العصابيين، فهما توحيان لهم بالدفء والثقة بالنفس والانشراح، وكأن صوت رذاذ النافورة على صفيحة الماء يؤدي دور تفريغ شحنات الانفعالات السلبية التي يعاني منها هؤلاء المرضى. وجميع هذه الحجرات كان يوظف لها قراء يقرؤون القرآن، ففيه شفاء، وعازفون في بعض الأوقات يستدرون الدموع ويستدرجونها مع آهات النفس، كما يعزفون بعض ألوان الموسيقى التي تبعث المباهج.

في الحجرة الأولى أربع غرف أبوابها خلفية، والغرفة بشباك محصن بشبك حديد يطل على البركة، وهي غرف صغيرة تكاد تتسع لواحد. أما الحجرة الوسطى ففيها إحدى عشرة غرفة أبوابها تفتح على البركة التي تتوسط هذا الجناح، والغرفة الواحدة تتسع لاثنين. أما الجناح الثالث (الحجرة الثالثة) ففي صدره الجنوبي إيوان كبير للراحة، وفي القسم الشمالي إيوان صغير. وحول البركة خمس غرف أبوابها تطل على الصحن، وفوق الباب نافذة تسمح بالضوء الكافي، وفي مدخل الجناح غرفتان صغيرتان الواحدة يوضع فيها بعض اللوازم من الأثاث، والثانية للمشرف على الجناح. وهذا الجناح يقوم على نظام الأبواب المفتوحة. كما أن بناء البيمارستان متكامل في القسم الجنوبي الغربي، فيه مستودع ومطبخ كبير.

الكتابات الأثري في البيمارستان

الكتابة الأولى: هي كتابة الحزام الذي يزين مدخل البيمارستان وجاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البيمارستان الملك الناصر مولانا الملك الصالح بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون خلّد الله ملكه بتولية الفقير إلى ربه أرغون الكاملي نائب السلطنة العظيمة بحلب المحروسة - غفر الله له وأثابه - في شهور سنة خمس وخمسين وسبعماية هـ».



القنطرة البيضوية مع التزيينات بالمقرنصات والكتابات

إنك لو قرأتها بتمعن ترى قدر طاعة المتولي للسلطان، وقدر إعلاء شأن السلطنة، وقدر رجاء الباني الثواب والمغفرة من الله، وقدر تواضع الباني.

الكتابة الثانية: وهي مكتوبة على

الجانب الأيسر من المدخل: «لما كان بتاريخ ربيع سنة خمس وعشرين وثمانماية اطلع المقر الأشرفي السيفي الملكي الصالحي مولانا الآمر عز نصره وهو الناظر الشرعي على البيمارستان السيفي أرغون الكاملي بحلب على ما شرط الواقف أثابه الله في كتاب وقفه فمنع ما هو بغير شرط الواقف وملعون بن ملعون من تحدث فيه بغير شرط الواقف أثابه الله تعالى وغفر له ولمن كان السبب فيه وللناظر بإحسان».

وتدرك من قراءة الكتابة الثانية أن البيمارستان قائم من أرزاق أوقافه، وتدرك حرص المسلمين على التدقيق في شرط الواقف.

وفي الجانب الأيمن مكتوب: «بحسب المراسم الشريفة العالية السلطانية الملكية الناصرية خلّد الله ملكه وأدام اقتداره. وملعون بن ملعون من يحدث فيه بغير شرط الواقف أثابه الله تعالى وغفر له ولمن كان السبب فيه وللناظر فيه بإحسان».

وهناك كتابتان الأولى مؤرخة سنة ٨٤٦ للهجرة والثانية مؤرخة سنة ٨٥٥ للهجرة والكتابتان تُعفيان نصارى قارة من الموجب على القماش والثمار المبيعة في حلب لصدور مرسوم شريف يعفي أهل هذه البلدة من الموجب الذي كان مفروضاً لصالح البيمارستان.

ولاشك أن ذلك تم لاجتهاد خلصوا فيه إلى أنه لا يجوز أن يؤخذ من أموال النصارى لبناء مرفق إسلامي أو للصرف عليه. فما وقف للبيمارستان كان يكفي للصرف على أطبائه وفراشيه وخبرائه وطباخيه وحراسه وقرائه والمرفهين المستجلبين إليه والموسيقيين، فوق ما يصرف على المرضى والأدوية والأثاث، وما يتبع المشفى من مستلزمات «فقد وقف له وقفاً حافلاً من جملته قرية بنش العظمى من ناحية سرمين وطاحون ومزرعة في العمق»(٧).

أقسام البيمارستان واختصاصاته

توزع البيمارستان إلى أجنحة، كل جناح يؤدي خدمة أساسية لنجاح العمل في المشفى؛ ففيه جناح الإدارة وما يتبعها من العيادة ومكان استراحة الأطباء والصيدلية والمكتبة. وهناك جناح الأمراض بجميع أحوالها من عينية


مدخل البيمارستان - الحزام الكتابي

وباطنية وعظمية. لكن الجناح الأكبر هو جناح الأمراض العصبية وهناك جناح المطابخ والحمامات والمستودعات لأغراض متعددة. وهناك إيوانان كبيران حيث تقام فيهما الاجتماعات الخاصة بالمرضى أو الاجتماعات الخاصة بالدارسين لتلقي علوم الطبب. أما الإيوان القبلي (الجنوبي) فهو فسيح، وعلى طرفيه الغربي والشرقي مصطبتان، الواحدة تصلح صفاً لتلقي علوم الطب أو مجلساً للقراء الذين يقرؤون القرآن.

ويتمثل الرقي الطبي والتمدن الاجتماعي في تصنيف المرضى العصابيين إلى مرضى من الدرجة الأولى وهكذا حسب شدة العُصاب، ويُعالج المصابون بالتأزم العصبي الشديد روحانياً ونفسياً وجسدياً، فإن أحسَّ الطبيب المعالج تقّبلَ المريض للعلاج وتحسنتْ أحواله نقله إلى الجناح الثاني وهكذا إلى الثالث حيث يتم التأكد من شفائه فيعود إلى حياته الطبيعية خارج البيمارستان.

وكانت تلك المؤسسات العمرانية محطات رحمة للناس، وتطبيقاً لما توجبه الشريعة في تحضير المجتمع وتوفير أسباب الرخاء والرقي الإنساني والازدهار المعاشي.

المراجع

١. سعيد الأفغاني. مقدمة تاريخ البيمارستان للدكتور أحمد عيسى.
٢. سعيد الأفغاني. مقدمة تاريخ البيمارستان.
٣. صلاح الدين المنجد. (البيمارستان النوري).
٤. أحمد عيسى (تاريخ البيمارستان).
٥. ابن كثير (البداية والنهاية)
٦. محمد كامل الغزي. (نهر الذهب).
٧. الغزي (نهر الذهب في تاريخ حلب).

مسابقة الفيصل

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها في فترة لا تتعدى نهاية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد ....)

طريقة الوصول إلى الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

الجوائز

الجائزة الأولى: ١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الثانية: ٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).

الجائزة الثالثة: ٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الأخيرة: (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

مسابقة الشهر (العدد ٢٧٧)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) نيل أرمسترونج هو ☐ مكتشف البنسلين. ☐ رائد فضاء أمريكي.

(٢) قمة إفيرست تقع في ☐ بوتان. ☐ نيبال.

(٣) الفيوجو هو ☐ الاسم الياباني لسمكة غريبة الشكل. ☐ لعبة من الألعاب الرياضية.

(٤) منور صمادح شاعر ☐ يمني. ☐ تونسي.

(٥) كانت غزوة أحد في ☐ السنة الثانية من الهجرة. ☐ السنة الثالثة من الهجرة.

الاسم: .... ص.ب: ....

العنوان: .... الرمز البريدي: ....

المدينة: .... هاتف: ....

الدولة: .... ناسوخ: ....

عنوان المجلة:

ص.ب (٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

ضوابط النشر في مجلة الفيصل

١- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.

٢- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.

٣- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.

٤- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.

٥- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.

٦- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.

٧- يرجى إرفاق صورة الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.

٨- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.

٩- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:

- يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
- يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
- التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
- تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
- ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

مجلة الفيصل

قسيمة اشتراك أفراد*

الاسم: .... ص.ب: ....

العنوان: .... الرمز البريدي: ....

المدينة: .... هاتف: ....

الدولة: .... ناسوخ: ....

قيمة الاشتراك السنوي (١٢عددًا) : ١٥٠ ريال سعودي، أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

ترسل قيمة الاشتراك بشيك مصدق لأمر مجلة الفيصل الثقافية، أو يتم توريدها في حسابنا رقم (٠٠١ ـ ٥٠٥٥٥٠٥ ـ ٠٠٤) البنك السعودي البريطاني، شارع العليا العام ـ الرياض.

* لا يشترط إرفاق القسيمة مع طلب الاشتراك، ويكتفى بتوضيح البيانات أعلاه في الطلب.

عنوان المجلة:

ص.ب(٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

طب الأسنان قديماً ومظاهر تطوره حديثاً

ما علاقة صحة الفم والأسنان بصحة الإنسان؟

إعداد: محمد كرزون - يوسف مصري

السن عضو مهم من أعضاء الجسم، ويحاول العلماء والباحثون ألاّ يكبوَ نور الابتسامة الجميلة من ثغور الناس، ذلك أن الابتسامة الجميلة هي تلك التي تفترّ عن أسنان كاللؤلؤ المنضود. وكثيراً ما تغنّى الشعراء والأدباء بها، إضافة إلى الدور المهمّ جداً الذي تؤديه الأسنان في عملية الهضم والتغذية. ولا نغالي عندما نقول: إنّ أغلب مشكلات الجهاز الهضمي سببها مشكلة ما في الأسنان.



سوء استعمال فرشاة الأسنان قد يؤدي إلى أضرار كبيرة

ولأهمية الأسنان، أعددنا ندوة طبية خاصة بالفيصل شارك فيها السادة الأطباء: د. فؤاد الذاكري، ود. غسّان قدّو، د. محمد زاهر عيروض.

وجرى حوار في موضوعات متعدّدة في ميدان طب الأسنان، قديمه وحديثه.

المسلمون وطب الأسنان

وكان توجّهنا الأول هو: **هل عرف العرب المسلمون هذا الفرع من الطب؟ وما مساهماتهم فيه؟**

د. فؤاد الذاكري:

بالنسبة إلى طب الأسنان عند العرب، لم يكن هناك أطباء متخصصون في طب الفم أو الأسنان، وإنما كلّ طبيب - على وجه العموم - يعالج سائر جسم الإنسان. ولكن لا ينكر فضل العرب والمسلمين في هذا الميدان من ناحية وضعهم المؤلّفات، ومن خلال إيجاد طرائق جديدة لمعالجة الإشكالات والأمراض في الفم عامة، والأسنان بصفة خاصة. من ذلك أنّه كان لهم مساهمات في المعالجات اللثوية ومداواة الأسنان والجراحات الفكّيّة والوجهية، إضافة إلى نصائحهم التي يمكن إدراجها ضمن ميدان «طب الأسنان الوقائي». بمعنى آخر،

فإن كلّ الأفكار الأساسية التي تقوم عليها معالجات طب الأسنان الحالية والوقائية كان لها بديل عند الأطباء العرب القدماء، كابن سينا (ت ٤٢٨هـ)، والزهراويّ (ت ٤٢٧هـ)، وابن النفيس (ت ٦٨٧هـ)، وغيرهم. وعلى سبيل المثال، فإن أبا القاسم الزهراوي في كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» وصف أدوات لتقليح الأسنان ومعالجة اللثّة، وهي شديدة الشبه بالأدوات اليدوية المستعملة اليوم، إذ لها الشكل نفسه، وتؤدي الغرض ذاته، مع فارق التقنية المتطورة التي تصنع بها أدوات اليوم. كما تكلّم على طرائق المعالجة اللثوية، وذكر كيف تُجرى الجبائر اللثوية، وماذا يستعمل فيها، واقترح الخيوط المصنوعة من الذهب أو الفضة. ومازالت الجبائر اللثوية تطبّق - إلى يومنا هذا - بالطريقة التي وصفها الزهراوي.

ابن سينا - أيضاً - وصف طريقة لرد خلع مفصل الفك السفلي، ولم يطرأ على هذه الطريقة أيّ تعديل يذكر حتى عصرنا. نعود إلى الزهراوي، فقد ذكر أنه أجرى عدة عمليات جراحية، منها معالجة كسور الفكّ السفلي، كما قام باستئصال الورم الضفدعي الذي يظهر أحياناً تحت اللسان، وبلغ من الدّقّة أنّه كان يذكر مراحل العمل الجراحي بالتفصيل، ويذكر - أيضاً - التطورات والمضاعفات التي يمكن أن تحدث إثر العمل الجراحي ويقدم حلولاً لها. لقد كان يذكر الحالة السريرية الجراحية وتطوراتها ومشكلاتها إلى حين الشفاء.

وأخلص إلى القول: لقد كان طب الأسنان متقدماً، كما اتضح من خلال دراساتي في كتب الطب العربية القديمة، سواء من الناحية العلاجية أم من الناحية الوقائية.

وتحضرني الآن الوصايا الصحية العامة التي أطلقها الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، وهي تشمل طب الجسم كما تشمل طب الأسنان سواء بسواء:

ثلاث هنّ مهلكة الأنام
وداعية الصحيح إلى سقام



صحة الأسنان وثيقة الصلة بصحة الجسم

دوامُ مُدامةٍ ودَوَام رفثٍ
وإدخال الطعام على الطعام

ويفصّل ابن سينا في كتابه أكثر، إذ يحذر من إدخال الطعام الحارّ على الطعام البارد، أو إدخال الطعام البارد على الطعام الحارّ.

د. غسان قدّو:

أحب أن أضيف أن الزهراوي نفسه قد أدرك أهمية السنّ حين أكّد أن السنّ عضو نبيل وجوهر شريف، ولا تجوز التضحية بها إلا بعد استنفاد كل الوسائل العلاجية، وطلب منا المحافظة عليها وعدم اللّجوء إلى خلعها إلاّ بعد اليأس من شفائها. وطب الأسنان المعاصر يوصي بالمحافظة على السنّ المصابة وعلاجها حتى آخر مراحل الشفاء.

د. محمد زاهر عيروض:

لقد عرف العرب - أيضاً - طريقة حشو السنّ، ووصفوا مواد تُخلط لتصبح تركيباً يُحشى به السن بعد حفرها، وكان هناك ما يسمى بـ «تحنيط اللب» أو ما يعرف حالياً باستئصال اللبّ. وقد تختلف موادهم عن المواد الحالية، ولكن الفكرة الأساسية التي تقوم على تجريف النخر وإزالته ووضع مواد حاشية مناسبة متوافرة لهم. ولعلّ أهم المواد المستخدمة في حشو السن: الشمع، وبرادة العقيق، والعاج، إضافة إلى بعض المعادن أو المواد ذات الأصل النباتي.

عادات تنظيف الأسنان

ثم أثرنا موضوع العادات الشعبية في تنظيف الأسنان والتعامل مع الآلام الناتجة من أمراضها.

د. غسان قدو:

يستعمل بعض الناس مزيجاً من مسحوق الفحم وملح الطعام، ويدلكون بها الأسنان واللثة، وهذه طريقة غير صحية، ولكن المضمضة بالماء والملح قد تكون مجدية، لأن الملح إذا انحل بالماء يمكن أن يكون مطهّراً. إنّ خلط الملح الصلب ولو كان ناعماً - بالفحم واستعمالها معاً في دلك الأسنان يحولّها إلى ما يشبه «ورق الزجاج» أي المبرد، مما يؤدي إلى تخريش المادة السنية، صحيح أنّ هذا المسحوق يساعد على تلميع السن، ولكنه - من ناحية أخرى - يزيد من

خشونتها، وربّما أدّى إلى إزالة طبقة المينا، أو الطبقة السطحية في المينا التي تحفظ السن في المناطق الرئيسة منها، ويزيد من تشرّبها للسوائل، مما يؤذي السن أكثر مما ينفعها. بتعبير آخر: إنّ الضرر من ذلك حاصل من دون شك، ولكن النفع آنيّ وغير دائم. والخلاصة: إن هذه العادة الشعبية غير صحية.

الفرشاة والسواك

أيضًا هناك سؤال يراود كثيراً من الناس في بلادنا: هل تقوم فرشاة الأسنان - شرعاً - مقام السواك؟ لقد أجاب عن هذا السؤال أطباء جمعوا بين علوم الطب وعلوم الدين، فقالوا: إنّ السواك المستحصل عليه من عود الأراك هو الأول، ويأتي بالدرجة الثانية عود النخيل، ثمّ عود الزيتون، وأخيراً فرشاة الأسنان إذا لم تكن الأنواع المذكورة متوافرة. وعلى كلّ، فإنّ لكل منطقة جغرافية نوعاً من عيدان السواك، ويفضّل ألاّ يكون قد تقادم عليه العهد كي لا يجف، وأمّا ما يشاع عن استخدام الإصبع بدل السواك أو فرشاة الأسنان، فإنها عادة غير صحيّة فضلاً عن أنّها غير اجتماعية إذا أقدم عليها بعض الناس في المجتمعات. ولكن الأعواد النباتية لها ألياف مرنة تتخلّل الأسنان وتنظّف ما يمكن أن يكون قد علق بينها من فضلات. وإذا كان عود الأراك يحوي مواد مطهرة ومبيّضة للأسنان، فإن عود الزيتون له فوائده أيضًا، إذ يحتوي على خلاصة الزيت، وهذه المادة تطلي السنّ بطبقة رقيقة جداً، وتمنع تماسّها مع الفضلات أو المواد المخرشة.

د. فؤاد الذاكري:

يجب ألاّ نخلط بين الوصفات الشعبية والتراث العلمي العربي، ذلك أنّ الأخير يقوم على نزعتين أساسيتين: الأولى العلم، والثانية التجريب، وبخصوص الوصفات الشعبية علينا ألاّ نأخذ بها إلا بعد أن تثبت صلاحيتها بالطرائق الصحية والتجريب العلميين. والملاحظ أنّ كثيراً من الوصفات الشعبية، التي يرجع بعضها إلى ما قبل الإسلام، غير صحية، ولا تصلح، وأنها قد تضر أكثر مما تنفع. والآن، وبعد ظهور المستحضرات الطبية الحديثة، يبقى دور هذه الوصفات قاصراً وغير كاف، هذا إن ثبتت صحتها. ولاسيما بالنسبة إلى استخدام الملح، مع مسحوق الفحم أو من دونه، فإنه مضرّ جدا باللثة، لأن الحقيقة العلمية تقول: إن الملح لا يذوب كلّه، وتبقى منه ذرات مجهريّة، وبعد الاستخدام تترسب هذه الذرات وتشكل تخمرات وتسبّب التهاباً لثوياً، ومع مرور الزمن والتكرار تتفاقم المشكلة.

لا ينكر فضل العرب والمسلمين في ميدان طب الأسنان من ناحية وضعهم المؤلَفات، ومن خلال إيجاد طرائق جديدة لمعالجة الإشكالات والأمراض في الفم عامة، والأسنان بصفة خاصة

إنّ التراث العلمي العربي الإسلامي شأنه شأن أي علم من العلوم، تظهر دائمًا نتائج جديدة لأبحاث علمية أو تنفي صحة علوم سابقة لها، مما يعني أنّ ما يتطابق من تراثنا مع التحليل العلمي المعاصر نأخذ به، وما ثبت عدم جدواه نتركه.

د. محمد زاهر عيروض:

إن السواك في حدّ ذاته يحتاج إلى ندوة خاصة، لأنّه يهمّ شريحة كبيرة من مجتمعنا العربي الإسلامي. وحقّاً، فإنّنا - أطباء الأسنان - كثيراً ما نُسأل عن السواك وما إذا كان يغني عن الفرشاة والمعجون، فضلاً عن أنّ طريقة استعمال السواك بحاجة إلى توضيح أيضًا، وكيف يقص ويشذّب على الدوام، وهذا ما لا يعرفه كثير من الناس، لعدم دخول السواك ضمن برامج الطبّ الوقائي التي نترجمها عن الغرب من دون أن ننظر في احتياجات بيئتنا ومشكلاتنا الخاصة. إنّ السواك في حدّ ذاته يمكن أن يكون مرتعًا للجراثيم والمكوّرات إن لم يشذّب باستمرار. أيضًا، فإن تطرية القسم الذي نستاك به أمر ضروري، لأنّ القساوة التي تلحق تاج السواك يمكن أن تشكّل أذى كبيراً.

الفرشاة بديلا للسواك

هل يمكن الاستغناء عن السواك نهائيًا، لتكون فرشاة الأسنان نوعًا من أنواع السواك؟

د. غسان قدو:

إنّ السواك فيه من المواد العطرية والزيتية والعفصية ومضادات النزيف ومضادات التشنج ومضادات الالتهاب والمنشطات، وغيرها الكثير الكثير.

إنّ الطراوة المناسبة لا تتوافر ـ غالبًا ـ في فرشاة الأسنان، فضلاً عن كون السواك سنّة مؤكدة. مما يعني إيجاد وازع ديني عند المسلم يدفعه إلى استعماله. وبالمقابل، فإنّ المعاجين المعروفة تحتوي على مواد كيماوية لا تخلو من ضرر.

د. فؤاد الذاكري:

إنّ استعمال السواك ناجم عن وضع اقتصاديّ غالبًا، ولاسيما في الأماكن التي لا تصل إليها المستحضرات الطبية الحديثة، أضف إلى ذلك أنّ عود السواك يمثّل دور الفرشاة والمعجون معًا، مما يجعل تناوله أسهل، وحمله ممكنًا. ولكن لا أرى من الناحية الفقهية فرقًا بين السواك وفرشاة الأسنان، وأعتقد أنّ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت غايته حثّنا على تنظيف أسناننا عقب كل طعام، وقبل النوم، وبعد الاستيقاظ، وعندما تدعو الحاجة.

د. غسان قدو :

إن كثيرين لا يعرفون الاستخدام الصحيح لفرشاة الأسنان، ويمكن أن يؤدي سوء الاستعمال إلى أضرار. إنّ الطريقة الصحيحة في التفريش أن تساير الحركة محور السن ولا تؤذي اللثة، أي أن تكون الحركة من أعلى إلى أسفل بالنسبة إلى الأسنان العلوية، ومن أسفل إلى أعلى بالنسبة إلى الأسنان السفلية. وبهذه الطريقة نكون قد أمّنّا تدليكًا للّثة الحرّة، وقمنا بتنظيف السنّ من أولها إلى آخرها على الأقل لمدة دقيقتين، للحصول على تنظيف كاف. ويمكن التأكد من أنّنا قمنا بتنظيف صحيح لأسناننا باستعمال الحبوب الكاشفة التي تصبغ فضلات الطعام المتبقية على الأسنان.

التغذية وصحة الأسنان

ماذا عن علاقة التغذية الصحية السليمة بصحة الأسنان؟

د. فؤاد الذاكري:

إنّ من الشروط الحديثة للتغذية الصحيحة ألاّ يتناول المرء شيئًا بين وجبات الطعام، باستثناء الماء وبعض السوائل. وبالنسبة إلى الشاي والقهوة، لم يثبت لهما ضرر خاص بالأسنان، وإنّما ضررهما متصل بأضرارهما على الجسم بشكل عام. وأحبّ أن أذكّر بأنّ الشاي المحلىّ بكمية سكر زائدة يمكن أن يضرّ بالأسنان نتيجة مرور هذا السائل الحار السكّريّ عليها. ومن الأفضل للجسم بشكل عامّ وللأسنان بشكل خاصّ تخفيض كمية السكر المضافة إلى الشاي. ولكي لا نظلم الشاي المحبّب إلى نفوس الكثيرين لابدّ من التوضيح أنّ الشاي يحتوي على نسبة من الفلور المفيد للأسنان.

> أدرك الزهراوي أهمية السنّ حين أكّد أن السنّ عضو نبيل وجوهر شريف، ولا تجوز التضحية بها إلا بعد استنفاد كل الوسائل العلاجية

د: غسان قدو:

أودّ أن أركز على قضية الأكل بين الوجبات، فليس كلّ الطعام ممنوعًا بين كلّ وجبتين غذائيتين. إنّ قضم تفاحة ـ مثلاً ـ هو في حدّ ذاته نوع من أنواع تنظيف الأسنان، وكذلك القثاء والخيار، وكل الخضروات الليفية، أو التي تحتوي على ألياف. ونلاحظ أنّ السكر الموجود في التفاح وأغلب الفواكه والخضروات هو سكر «الفركتوز» وليس «الجليكوز» المضرّ بالأسنان. إنّ الضرر يكمن في تناول الحلوى والمعجنات التي تحتوي على سكر الجليكوز، ويصعب تنظيفها من الفم. فالنصيحة الموجّهة إلى الجميع، ولاسيما إلى الأطفال ذوي السن المبكّرة الذين لا يعرفون كيف يقومون بعملية (التفريش) بشكل جيد، هي أن نتناول الفواكه والخضروات ذات البنية الليفية. إنّ الاحتكاك بين جزيئات الألياف الموجودة في هذه الخضروات والأسنان هو في حد ذاته عملية تنظيف مقبولة صحيًا.

د. محمد زاهر عيروض:

أحب أن أضيف إلى ما ذكر أن أغذيتنا التي نتناولها يحسن أن تكون غنية بالفيتامينات، ولاسيما فيتامين (A) وفيتامين (D)، ذلك أنّ نقص فيتامين A يحدث خللاً في تكوين الجهاز العظمي، إضافة إلى تقرّن الأغشية الفموية: اللسان والشفة بصورة خاصة. كذلك فإنّ نقص فيتامين D يؤدي إلى تأخر بزوغ الأسنان، لأنه المسؤول عن امتصاص أملاح الكالسيوم والفوسفور في الجسم. كما أنّ نقص فيتامين (D) يسبب المرض المعروف بـ (الاسقربوط) (مرض البحارة)، وهذا المرض ينتج من

عدم تناول الفواكه الطازجة، وهو يسبب نزوفاً لثوية. ومن هنا نستنتج أنّ التغذية الجيدة من زيت كبد الحوت، وحليب، وزبدة، وكبد الضأن وغيرها مما أحلّها الله تعالى لنا من لحوم، هذه كلها تساعد على جعل الأسنان قوية وتكسبها مناعة من النخر. ولهذا نلاحظ أنّ أهالي الأرياف غالباً ما يمتازون بأسنان سليمة مقاومة للنخر؛ بينما يكون أغلب أهل المدن على العكس من ذلك، نتيجة العادات الغذائية السيئة عندهم، فهم يتناولون الأغذية المعلبة والسكريات بكثرة.

ما أهمية الأسنان؟

ثم أثرنا مسألة أهمية الأسنان عند الإنسان، وضرورة المحافظة عليها.

د. فؤاد الذاكري:

ذكرنا أنّ الزهراوي قد بيّن أن السن عضو نبيل وجوهر شريف تجب المحافظة عليه والاهتمام به وعدم اليأس منه باللجوء إلى الخلع إلاّ بعد استنفاد كل الطرائق العلاجية الممكنة. ونحن نعاني في بلادنا من تدني مستوى الوعي الصحي في هذا المجال، وكثيرون هم الذين يعدون السن من سقط المتاع، فيسارعون إلى القلع والخلع وكأن شيئاً لم يكن. وعندنا - للأسف - العناية بالأسنان وعلاجها آخر دائرة من دوائر اهتمامنا. والحقيقة أنّ واجهة الأسنان تساعد على الطعام بشكل جيد، ومن ثم تساعد على إدخال الغذاء بالطريقة المثلى إلى جوف الإنسان. كما تساعد على النطق السليم، وهي - أي الأسنان - جزء مهم جداً من المظهر الخارجي للوجه، كما أن لها كثيراً من الوظائف المتعددة المهمة، بحيث لا يمكن الاستغناء عنها. إنّ كثيراً من الأمراض التي تصيب الجسم تكون ناتجة من عدم العناية بالأسنان، ولعل أهمها بعض الالتهابات (الأخماج) والإنتانات البؤرية، من خلال انتقالها عن طريق الدم إلى سائر البدن. المشكلة عندنا أنّ الوعي الصحي بالأسنان متأخر جداً جداً. وربما نجد عند كثيرين وعياً صحياً بأمراض شائعة كالسكّري، وارتفاع ضغط الدم الشرياني، والروماتيزم، ولكننا لا نجد الوعي نفسه بصحة الأسنان، وهذا ناتج من قلّة الاهتمام بأصول العلاج، أو أصول الوقاية.



عمليات تجميل الأسنان تطورت تطوراً هائلاً

د. غسان قدو:

إنّ د. فؤاد قد نوّه بمسألتين في غاية الأهمية، وهما خلاصة هذا الحديث، الأولى: مسألة النطق، وهذا ما يبدو تأثيره ظاهراً عند الأطفال بالدرجة الأولى. والثانية: الغذاء. فالجسم لا يمكن أن يستفيد من الغذاء ويتمثّله إلاّ إذا طحن ومضغ ودخل إلى الجهاز الهضمي بشكل ملائم. هناك مسائل أودّ أن أنوّه بها، وهي الاهتمام بأسنان الأطفال. فكثير من الناس لا يعيرون لهذه المسألة بالاً، ولا يهتمون بالأسنان اللبنية المؤقتة عند الأطفال، ما دامت ستبدّل فيما بعد. مع العلم أنّ السن اللبنية لها الأهمية نفسها التي للسن الدائمة، وربما بدا أكثر أهمية، فالنطق - مثلاً - يتأسس في مرحلة الأسنان اللبنية، التي تشمل الطفولة الأولى، والطفولة المتوسطة والمراهقة. وإن معالجة الأسنان اللبنية أيضاً تستمد أهميتها من خلال المحافظة على انتظام الأسنان الدائمة، وعدم السماح بتخلخلها أو اعوجاجها أو سوء الإطباق. فالملاحظ أنّ الأسنان الدائمة لا تظهر بالترتيب نفسه لسقوط الأسنان اللبنية، مما يؤدي إلى احتمال ميل الأسنان نتيجة الحركة، وقد لا تجد السنّ البازغة الجديدة مكاناً لها، مما يسبب شذوذاً في القوس السنية، ذلك أنّ سوء تنضيد القوس السنية ربّما يؤدي إلى مشكلات عصبية وصداع شبه دائم... إلخ من المشكلات التي يمكن تفاديها. ولكن ما نفاجأ به هو الجهل التام بأهمية الأسنان اللبنية، حتّى عند المثقفين.

د. محمد زاهر عيروض:

أرغب التنويه بأن هناك العديد من الآفات تنتج من الأسنان المصابة، منها «الرثية»، ولهذا ننصح المرضى بعدم ترك أيّ بؤرة إنتانية في الفم ومعالجتها فوراً. كما

أنّ هناك أمراضًا يمكن أن تصيب الأذن أو العين أو تحدث التهابًا في الجيوب الأنفية أو صداعًا في الرأس، وكلها ناتجة من أسنان مصابة إمّا بآفات مرضية، وإما نتيجة توضّع السن بشكل غير ملائم، لأن بزوغها إثر سقوط السن اللبنية لم يكن على نحو صحيح.

اتباع النصائح.. هل يكفي؟

وقد قادنا شرح السادة الأطباء السابق إلى التساؤل: **هل هذا يعني أنّ الإنسان الذي يتقيد بتعليمات العناية بالأسنان - تنظيفها، واتباع نصائح الوقاية - يأمن النخر وبقية أمراض الفم والأسنان؟ أم أن هناك أمورًا أخرى؟**

د. فؤاد الذاكري:

إنّ العناية بالأسنان تحتاج إلى وعي صحيّ، هذا الوعي يحصل المرء عليه من خلال السؤال والجواب والمعلومات، وهو وعي صحي عام. فالمفروض على كل واحد منّا أن يعي كيف يحافظ على صحته، ومن ضمنها صحة أسنانه، بمعنى أن يكون عنده نوع من أرضية المعلومات الصحية المصحوبة بالسلوك والعمل، فيعرف ماذا يفيد الأسنان، وما طرائق الوقاية، ومعالجتها. أمّا بالنسبة إلى موضوع النخر، فقد يتبادر إلى الذهن أنّ سببه قلة الوعي الصحي وحسب، وأن المرء إذا ما قام بعملية تنظيف أسنانه وتفريشها فلن تصاب بالنخر، وهذا - في واقع الأمر - غير صحيح تمامًا. ذلك أنّ الذي ينظّف أسنانه فإنه يحافظ على صحة لثوية وصحة فموية، وأمّا موضوع النخر فهناك أكثر من نظرية لتفسير نشوء النخر، فالنخر ليست له علاقة بالتفريش فقط، العلاقة بين التفريش والنخر غير واضحة تمامًا. فبعض النظريات تقول: إنّ أسباب النخر وراثية أو تتعلق بدرجة مقاومة طبقات السن، على غرار نظريات تساقط الشعر، وبعض النظريات - أيضًا - تعزو سبب النخر إلى الوسط اللعابي للفم، فإذا كان الوسط اللعابي قلويًا


لا يستطيع الكشف عن بدايات النخر إلا طبيب الأسنان

تدنّى احتمال حدوث النخر إلى أدنى النسب، وإذا كان حامضيًا ارتفع إلى كونه سببًا رئيسًا للنخر. أمّا موضوع النظافة الفموية، فليس الهدف منه منع حدوث النخر، بل الهدف المحافظة على صحة لثوية سليمة، ومن ثم تلافي الالتهابات اللثوية الشائعة حاليًا. وقد بيّنت الإحصاءات أنّ أغلب أسباب خلع السن ناتجة من حصول التهابات لثوية، أمّا خلع السن بسبب النخر فيأتي بالدرجة الثانية: (٦٠٪ إلى ٧٠٪ بسبب مشكلات لثوية، ٣٠٪ إلى ٤٠٪ بسبب النخر)، وهذا يقودنا إلى أهمية الفحص الدوريّ للفم عند طبيب الأسنان. فالفرشاة - مع أهميتها الصحية اليومية - لا تحلّ محلّ الطبيب، وبالفحص الدوريّ تُكشف نخور وأمراض في مراحلها الأولى، ويمكن علاجها قبل أن تستفحل. وزيارة طبيب الأسنان مرّة واحدة كلّ ستّة أشهر على الأقل تعدّ نوعًا من الوعي الصحي المطلوب من كل إنسان.

د. غسان قدو :

إنّ بنية السن، والوراثة، وتفريش الأسنان، وطبيعة اللعاب، وطبيعة المأكولات، وطبيعة الإقليم الجغرافي، والعادات الموروثة، كل هذه الأمور تساهم بدرجات متفاوتة في حصول النخر، ولا يستطيع الكشف عن بدايات النخر إلاّ طبيب الأسنان الذي حصّل علومًا متخصصة وخبرة عملية.

أما عن صحة الأسنان ومتى تبدأ الإجراءات الوقائية لها، فالحقيقة أنّها تبدأ من المرحلة الجنينية، من أشهر الحمل الأولى يجب على المرأة الحامل أن تكون محصّنة بالنسبة إلى عنصر الكالسيوم، كما يجب أن تتردّد على طبيب الأسنان فضلاً عن ترددها على سائر الأطباء المختصين بمراقبة الحمل. ولا شكّ أنّ الطبيب يعرف ماذا يصف لها من أدوية - إن احتاج الأمر - بشرط ألاّ تؤثر في بنية الجنين ونموه. وعلى سبيل المثال، فإن كل مركبات (التتراسيكلين)، وأغلب المضادات الحيوية Antibiotics يحظر تناولها من دون استشارة طبية.

وهناك أمور أخرى يمكن أن تحصل في الحياة الرحمية أو في أثناء الولادة بسبب التوليد الخاطئ، من ذلك حصول شقّ في قبّة الحنك. فالعناية يجب أن تبدأ من المرحلة الجنينية. أما بعد الولادة، فتبدأ مرحلة العناية بأسنان الطفل من خلال تغذيته تغذية جيدة، فالغذاء المناسب يساعد الجسم على الحصول على العناصر الضرورية التي يحتاج إليها بعدها، وحين تبدأ أسنانه بالبزوغ، علينا أن نحسب حساب الرضاعة والملهاة وعادات الطفل السيئة التي يمكن أن تشكل في مجملها سوءاً في إطباق الأسنان على نحو صحيح، مما يؤدي إلى انعكاس ذلك على صحة الفم. فالطفل الذي يعتاد مصّ إصبعه سوف تحدث تشوّهات في فمه، فضلاً عن شكل غير جميل يتمثل في إطباق غير سليم، كما أنّ ذلك ينعكس على تنفسه إذا تشكلت لديه ما ندعوه في لغة الطب (عضّة مفتوحة) تؤدي إلى تنفس غير فموي، ومن ثم التهاب بالأغشية المخاطية للفم، ومن هنا يجب الانتباه إلى موضوع العادات السيئة.

أمر آخر له انعكاساته على الفم والأسنان بشكل خاص، ذلك هو الأمراض التي تصيب الفم، فالطفل الذي تنشأ عنده زوائد أنفية سيضطر إلى الاستعانة بفمه من أجل التعويض عن صعوبة التنفس من الأنف، مما ينعكس بدوره على صحة الأسنان. فالعناية بالأسنان تبدأ من المرحلة الجنينية وتستمر، ويمكن أن تتلخّص في عدة نقاط، أهمها:

- المحافظة على بنية السن.
- عدم تناول أي عقاقير تؤذي بنية السن.
- الانتباه إلى العادات السيئة عند الأطفال.
- الانتباه إلى التنفس الفمويّ عند الطفل، ومعالجة ذلك، ليتحول إلى تنفس أنفي كامل.

بعدها تأتي مواضيع تفريش الأسنان، وتعليم الطفل كيف يستعمل الفرشاة، وتوعيته صحياً وتعويده الفحص الدوري وغرس عادةٍ غذائية هي أن يكون آخر

الشاي يحتوي على نسبة من الفلور المفيد للأسنان، وقضم تفاحة - مثلاً - هو في حدّ ذاته نوع من أنواع تنظيف الأسنان

طعامه في الوجبة أغذية فيها نسبة كبيرة من الألياف الطبيعية (تفاحة مثلاً)، ليكون تنظيف أسنانه طبيعياً في الحالات التي لا يستطيع فيها تفريش أسنانه.

د. فؤاد ذكري:

هناك شعار اتخذته بعض الدول المتقدمة صحيًا نصه: «طبيب الأسنان صديقي»، فمن ضمن شروط التوعية الصحية عند الطفل السعي إلى زرع فكرة عنده هي أن طبيب الأسنان صديقٌ وليس عدواً مخيفاً، لتهيئته لتقبل عادة الزيارة الدورية - كل ستة أشهر على الأقل - لطبيب الأسنان من دون خوف أو وَجَل. وهذا كله يدخل في تشكيل الوعي الصحي عامة عند الطفل. وللأسف، فإننا نجد بعض الأمهات - سامحهن الله - يعملن من طبيب الأسنان فزّاعة أو شبحاً مخيفاً، وتصحبه هذه الفكرة إلى ما بعد سنّ الرشد. ثم إن ما يشاع عن أن الأسنان اللبنية لا تعالج، بل يُعمل على خلعها فور نخرها، غير مقبول، وقد دحض العلم ذلك بالدراسة والتجربة. إن خلع السن اللبنية قبل أوانها يؤدي إلى ظهور السن الدائمة والبديلة في حالة مشوهة، والسن المشوّهة لها آثارها السلبية على صحة المريض البدنية والنفسية. ثم إنّ العناية بالسن اللبنية سهلة، ولا تضطرنا إلى تقويم السن الدائمة، بينما يكون التقويم عملية معقدة وتأخذ وقتا طويلاً وتحتاج إلى صبر. كل ذلك يمكن أن نتفاداه إذا ما انتبهنا إلى العناية بالسن اللبنية.

د. محمد زاهر عيروض:

إضافة إلى ما ذكره د. غسان ود. فُؤاد، هناك بعض الإجراءات الوقائية، منها استخدام الفلور، وهو مادة موجودة في الشاي والسمك البحري، وفعلاً فقد بدأت تطبيقات إضافة الفلور إلى مياه الشرب في العديد من مدن العالم، ومنها مدن وطننا العربي. وتناولها يقي أسنان المرأة الحامل من التسوس، ويمنح فرصة أكبر لمقاومته بعد خروج الجنين إلى الحياة، كما يمنح كل من يستعمله وقاية شبه دائمة من التسوس.

كذلك هناك اضطرابات تظهر في اللثة نتيجة تناول بعض الأدوية النفسية - العصبية، التي يتناولها

المرضى المصابون باضطرابات نفسية.

ومن ناحية أخرى، فإننا ننصح مرضى السكّري والمصابين بارتفاع التوتر الشرياني بزيارة طبيب الأسنان بشكل دوريّ، لما يحدثه السكّري من إصابات لثوية واختلاطات.

أما مرضى التدخين، وأقول مرضى لأنهم بحق كذلك، لما يحدثه التدخين من آفات، ولاسيما على الجهاز الفموي من سرطان اللسان والشفة، فإننا ننصحهم

علينا ألاّ نأخذ بالوصفات الشعبية إلا بعد أن تثبت صلاحيتها بالطرائق الصحية والتجريب العلمي

جميعًا بالإقلاع عن التدخين فوراً، والتردد على عيادة لطبّ الأسنان لإزالة مخلّفات التبغ عن أسنانهم، وهي مخلفات صلبة، وتلتصق بالسن بشكل متين، بل تغيّر من طبيعة طبقة العاج للسن.

إنّ الأسنان تعدّ ممراً لدخول الجراثيم إلى الجسم عن طريق السن نفسها أو عن طريق الأنسجة المحيطة بالسن المصابة بالرُعال، محدثة - أحياناً - تسمماً بالدم. فقد اكتشف عن طريق المصادفة أن هناك بعض الآفات العينية قد شُفيَ منها نتيجة قلع سن مصابَة. كما أنّ هناك العديد من الإصابات العينية منها التهاب القرنية أو الملتحمة أو القزحية، والتهاب العصب البصريّ، كانت مترافقة مع وجود إصابة سنية على شكل بؤر التهابية، وقد لوحظ الشفاء مثلاً نتيجة قلع رحى أولى علوية مصابة بكيسة، ولهذا يجب فحص الأسنان في حال نشوء إصابة عينية ذات منشأ مجهول السبب، كذلك فحص الجيوب الفكيّة للتأكّد من خلوها من الأمراض الإنتانية، التي ربّما يكون أحد أسبابها - كما ذكرت - وجود إصابة مرضية في الأسنان.

أما بالنسبة إلى المرضى المصابين بالرثية (الروماتيزم)، فقد أثبتت التجارب والفحوصات أنّ العناية بالفم واستئصال الإنتانات المزمنة يساعدان كثيراً على شفاء المرضى من الرثية. وقد اكتشف أنّ الجراثيم المسؤولة عن الرثية هي المكوّرات العقدية الحالّة للدم.

ما الجديد في طب الأسنان ؟

ثم سألنا عن الجديد في عالم طب الأسنان، وما آفاق مستقبل طب الفم؟

د. غسان قدو:

الجديد حالياً هو موضوع زرع الأسنان، وهو موضوع يثير الجدل، إذ إنّ الباحثين والعلماء يسعون إلى أن تكون خصائص السن المزروعة قريبة جداً من السن الطبيعية سواء أكان ذلك في عملية الطحن والمضغ، أم في الحد من المضاعفات التي تنشأ في اللّثة، التي، شأنها شأن سائر البدن، ترفض الجسم الغريب. ومع ذلك يأمل العلماء والباحثون نجاح زرع الأسنان وتعميمها في أنحاء العالم، ولكن تبقى السن الطبيعية هي المفضلة إذا اعتنى بها الإنسان ولم يهدرها.

د. فؤاد الذاكري:

إن هناك ابتكارات علاجية جديدة تختلف عن العلاجات التقليدية في طب الأسنان، وقد ثبت نجاحها، ودخلت طور التطبيق، ولكن على نطاق محدود نسبيًا، وأول هذه الابتكارات استخدام أشعة الليزر بدل آلة الحفر التقليدية، فآلة الليزر قضيب شعاعي يصدر أشعة بظروف معينة وضمن درجات وقائية محددة ومناسبة للحالة، ويمكن تصويب الأشعة على السن المنخورة وإزالة النخر وتجريف السنّ كل ذلك خلال ثوان، ومن دون أي ألم، يتمكّن بعدها الطبيب من ملء السن بالحشوة المناسبة. كما أن آلة الليزر تمكّن من معالجة اللثة. وكل ذلك يقودنا إلى القول: إنّ الاتجاه الحديث في طب الأسنان هو التخلّص من آلات الحفر وأصواتها، والتوقف عن استعمال التخدير الموضعي للسن، ومن ثم التخلّص من صورة طبيب الأسنان بآلاته المزعجة. وقد حققت هذه الابتكارات نجاحات تطبيقية معقولة إلى حدّ ما.

أيضاً، الجديد الذي يجدر ذكره هو «طب الأسنان الشرعي»، وهو فرع جديد يدرس حاليًا في جامعات أوربا والدول المتقدمة، وهو يتطور بخطوات متسارعة وناجحة، ويقصد به تعرف الأشخاص وتحديد هوياتهم بعد

الوفــــاة في حــــالات الكوارث: (حريق، سقـوط طائرة... إلخ)، حـيث يحـتـمل أن تكون الجـثث متفحـمـة، ويصعب التـعرف إلى هوية صاحبها، فيمكن تمييز هذا الشخص عن طريق أسنانه، ذلك أنّ لكلّ مريض في الدول المتقدمة سجلاً خاصًا عند طبيبه العام وطبيب أسنانه، فالأسنان تقاوم الكوارث والصدمات كثيراً، وتفيد بوصفها علامات ومميزات تساعد على تحديد شخصية حاملها. وقد جرى هذا كثـيـراً، وهناك مختصون في هذا المجال في الدول المتقدمة. أيضًا هناك أبحاث لتمييز السلالات البشرية والفوارق العرقية عن طريق تصنيف صفات محددة لمجموعة بشرية، وهي صفات دقيقة لا يميزها إلاّ المختصون.

والخلاصة أنّ التقنيات الحديثة بمختلف تطبيقاتها قد دخلت في طبّ الأسنان من أوسع الأبواب، وهي مازالت مستمرة بحيث يمكن أن نتوقع في السنوات القادمة تغيراً جذرياً في صورة طبيب الأسنان التقليدية، وهي العلاجات والطرائق المتبعة حـاليًا. إن الهدف من كل هذه التطويرات هو:

أولاً: تخفيف آلام المعالجة التي يمكن أن تحصل.

ثانيًا: تبسيط هذه المعالجة بشكل أفضل.

ثالثًا: الحصول على نتائج أفضل.

رابعًا: اختصار عدد الجلسات ووقت الجلسة عند العلاج.

وهناك في كل يوم ما هو جديد على صعيد المعالجة، وعلى صعيد المواد المستخدمة، وعلى صعيد التقنية، وعلى صعيد طرائق العمل. ولست آتيًا بجديد عندما أقول إن الحاسوب (الكمبيوتر) قد دخل في معالجة الأسنان كمستشار، إذ بإمكان الطبيب إدخال الحالة المرضية اللثوية أو السنية للمريض، فيعطيه (الكومبيوتر) أفضل طرائق المعالجة ومراحل العلاج اللازمة لها.



مستقبلاً ستتغير صورة طبيب الأسنان التقليدية

د. محمد زاهر عيروض:

أيضًا هناك الدراسات التجميلية والترميمات والتعويضات السنية، فالمريض الذي يفقد أسنانه نتيجة حادث أو مرض ما تعوّض له هذه الأسنان بأسنان صناعية متقاربة جداً من حيث الشكل واللون والحجم، مع فاعلية مناسبة تعوض بعض ما فقد من فاعلية السن الطبيعية، ومع كل هذه النجاحات فإن التطوير ما يزال مستمراً وفعالاً، وما تحقق اليوم يعد ثورة حقيقية في عالم طب الأسنان.

خلاصة

وقد خلصنا من هذه الندوة إلى أنّ الأسنان بالنسبة إلى الإنسان ثمينة جداً، والمحافظة عليها تعتمد على وعي صحي سليم وثقافة صحية تقدم معلومات وقائية على المبدأ القائل: «إن درهم وقاية خير من قنطار علاج». وهناك بالفعل اختصاص في بعض كليات طب الأسنان في العالم هو «طب الأسنان الوقائي» تكون مهمة الطبيب فيه أن يرشد معيديه ويرفع من مستواهم الصحي ليمكنهم من المحافظة على أسنانهم.

كما أكّد السادة الأطباء المنتدون أنّ مراجعة طبيب الأسنان بشكل دوري كل ستّة أشهر مرة في حالة الصحة أمر ضروري جداً.

وأهمّ من هذا وذاك ألاّ يتأخّر المرء عن تنظيف أسنانه بعد كل طعام، وليس بعد كل وجبة. فمهما كانت كمية الطعام صغيرة الحجم فإن رواسبها تؤذي الأسنان إن بقيت من دون تنظيف.

ولكن حدوث النخر في الأسنان أمر لا مفرّ منه، إذ ليست رواسب الطعام وحدها تؤدي إلى النخر، بل هناك عوامل أخرى كالوراثة وغيرها، وإذا ما كشف عن النخر في وقت مبكّر فإن السن المعالجة علاجًا مناسبًا تبقى كسبًا لصاحبها. وبالمقابل فإن أي سن نخلعها هي خسارة كبيرة لنا، وطبيب الأسنان يبذل أقصى ما في وسعه لإنقاذ السن المصابة.

ممشوقة القد

شعر: سلمان هادي الطعمة

هي كـــالمهـــا وشـــبـــابُهـــا غَضٌّ والســـحـــرُ في العـــينين مـــبـــيَضُ
إنـــي أحـــنُّ إلـــى هـــوى رشـــــــأٍ حلو الرضـــاب لســـعـــيـــه ركضُ
مكحـــــولـةٌ بالنورِ مـــــقلتُـــــهـــــا كــــــالزهـرِ إذ يزهـو بـه الـروضُ
بعضٌ بســـــيفِ نبـــالهـــــا دنف وصـــبـــا لســـحـــرِ جـــفـــونـهـــا بعضُ
يا قـــــدَّها الممـــــشـــــوقَ تيَّـــــمني ســـيَّـــان عندي الطولُ والعـــرضُ
غـــراءُ مـــثل الشـــمس طلعـــتـــهـــا في القلب من إشـــعـــاعـــهـــا ومَضُ
مـــاست كـــغـــصنِ البـــان فـــارعـــة وصـــــفـــــا قـــــوامٌ أهيفٌ بَضُّ
كم ناهدٍ في الســـحـــر مـــضطرم شـــــوقًـــــا إليـــــه تململَ النبضُ؟
أتـعـــــاتبين وأنتِ لاهـيـــــــةٌ عني وليس بجـــفـــنيَ الغـــمضُ؟
صبٌّ كـــــواهُ العـــــشق من زمنٍ أمـــا ودادُكِ فـــهـــو لي مـــحضُ
يا عـــــاذلي والحـــسنُ لا عَـــجَبٌ والـدهـرُ مـن عـــــاداتـه النـقـضُ
حـــتـــامَ أشكوك النوى كـــمـــدًا أوّاهُ، هـــل بـــقـــلـــوبـــنـــا بُـــغـــضُ؟
ولكم أظلُّ مـــســـهّـــدًا قلقًـــا وهواكِ فـــيـــه اللينُ والخـــفـضُ؟
نـارُ الجـــوى للآن مـــا برحت في مـــهـــجـــتي وكـــأنهـــا فـــرضُ
أســـتـــافُ من عـــبق الهـــوى حُلُمًـــا كـــالمســـتـــهـــام وشـــوقُـــهُ غَضُّ
إن كـــــانت الأيام تبـــــرمني فـــالدهرُ فـــيـــه البسطُ والقـــبضُ
يا لوعـــةٌ في الصـــدر مـــســـعـــرة طاب الســـرى وتهـــيّـــأ النهضُ
من كـــــان ذا شـــــوقٍ تملّكه لا يشـــــــتـكي إن نـابَـهُ رفـضُ
يا حـــرَّ قلبي باتَ مـــســـتلبًـــا أرأيت كـــيـــف أمَـــضَّـــهُ الرمضُ؟
عـــجـــبًـــا لإلفٍ قـــد فُـــتنتُ به أعَـلَـيَّ يـا بـدرَ الدجـى فـــــرضُ؟
كَـــتَمَ الهـــوى قلبي وبرَّحَـــهُ لا طابَ عـــيـــشٌ فـــيك يا أرضُ

«إذا»

شاعر الإمبراطورية: رديارد كبلنج*

ترجمة: أحمد عبدالرحمن

إذا كان بإمكانك الاحتفاظ برباطة جأشك
حينما يفقد الكل عقله ملقين اللوم عليك
إذا لم تهتز ثقتك بنفسك
عندما يشك في مقدرتك الآخرون، مع أخذ شكهم في الاعتبار
إذا كان باستطاعتك الصبر دون أن تمل الانتظار
أو كذبوا في حقك فلم يدفعك ذلك إلى الكذب
أو واجهت الحقد من دون الاستسلام للحقد
ومن دون أن تبدو منزها أو مدعيًا الحكمة

إن كان في مقدورك أن تحلم ولا تدع الأحلام تسيطر عليك
أو تفكر دون أن تجعل التفكير هدفا في حد ذاته
إذا كنت تقدر على ملاقاة النصر والكوارث
وتعامل كلا هذين المحتالين متساويين
إذا كنت تتحمل سماع قولك الحق
وقد حرفه الأشرار لخداع البلهاء
أو أن ترى الأشياء التي وهبتها عمرك محطمة
ثم تنهض لتبنيها من جديد بأدوات مهترئة

إذا كنت تقدر أن تجمع مكاسبك في كومة
لتغامر بها في رمية حظ عشوائية
وأن تخسر وتبدأ ثانية من البداية
دون أن تلفظ كلمة عن خسارتك

إذا كنت تملك أن تجبر قلبك وعزمك
ـ حتى بعد انقضائهما ـ على رفعتك
وأن تبقى متماسكًا حتى بعد ألا يبقى فيك
غير الإرادة التي تجعلك تقول: «تماسك»

إذا كنت تستطيع مخالطة الدهماء مع الاحتفاظ بسموك
أو مجالسة الملوك دون أن تفقد حاسة البسطاء
إذا فشل العدو والصديق في إيذائك
إذا أعطيت لكلٍ قدرًا من دون مبالغة
وإذا كنت تقدر على شغل الستين ثانية الذاهبة
بستين ثانية جديرة بالسباق

فلَكَ الأرضُ وما عليها
بل أكثر يا بني، فأنت الرجل

* يُعد رديارد كبلنج (RUDYARD KIPLING ١٨٦٥ ـ ١٩٣٦م)من أعظم الشعراء والكتاب الإنجليز وهو صاحب المقولة المشهورة «الشرق شرق والغرب غرب...» ويكنى «بالإمبراطوري» وشاعر الإمبراطورية البريطانية الذي تغنى بأمجادها ومدح قادتها ومعاركها. وله قصيدة مشهورة عنوانها فظي ـ وظي (FUZZY WAZZY) وهو الاسم الذي أطلقه على المحاربين من قبيلة الهدندوة في شرق السودان نسبة لكثافة شعرهم المخلل ووصفهم فيها بأنهم أشجع المحاربين THE BEST FIGHTING MAN. أما القصيدة «إذا» فهي من عيون شعره وهي تدعو إلى عدم اليأس والركون إلى الانهزامية وتحث على النهوض من جديد، وقد وجدت القصيدة صدى في نفس المترجم بعد خروجه من الكويت بعد الغزو العراقي عام ١٩٩٠م.

الحقيقة

شعر: عبدالله بن عبدالكريم الخميس

أقِلّوا من اللوم فاضتْ شجوني ... وقوموا لحاجاتِكم واتركوني
أنا قادمٌ من خِضَمّ البَلاءِ ... ومُستغرقٌ في صميم السكونِ
أفتّش عن حُلُم ضاع مِنّي ... وعني وعن لحظةٍ من جنونِ
ذنوبي تُحاصرني يا رفاقي ... دَعوني لآلام نَفْسي دَعوني
ظننتُ بأنّي بلغتُ عنانَ السـ ... ـماءِ وأنْ البقيةَ دوني
وأني تَصدَّرتُ هامَ الحياةِ ... وأن موازينَها من شؤوني
ظننتُ بأنّي.. وأنّي.. وأنّي ... ولكنها أخْلَفَتْني ظُنوني
فأيقنتُ ساعَتَها أن وَهْمًا ... كبيرًا يُسافرُ بي للمَنون
وأدركْتُ حَجْمي وأدركتُ ضَعْفي ... وأدركتُ ما فاتني من فتون
وأدركتُ أنَّ الحياة إذا متْـ ... ـتُ يمكن أن تستمرَّ بدوني



تأملات

شعر: كمال فوزي الشرابي



لا تَرْضَخنَّ كما العبيدْ
للهمِّ والألم العنيدْ
يَعثُرْ كأوراق الخريفِ
مخاوفَ الوَهْمِ الوَليدْ
فالوهمُ أقْتَلُ للفتى
من طعنةِ السيفِ الحديدْ
هو لَدْغةٌ الأفعى، وكابوسٌ، وشيطانٌ مَريدْ



جابِهْ عدوَّكَ بالتعقُّلِ والشجاعةِ.. لا الوَعيدْ
كُنْ كالجبالِ الشُمِّ
تهزأ بالشواطئ من بعيدْ
أو كالسنديانةِ ليس تقصِفُها
الرياحُ ولا الجليدْ
فالعمرُ وقْفةُ عُنفوانِ
والرَّدى نَصرُ الشهيدْ



لو كنتَ في التسعين لا
آهٌ فآهُك لن تَفيدْ
وابسِمْ كأزهارِ الرُبا
واضحكْ كجدولِها السعيدْ
ما دمتَ تحيى فالحياةُ
كريمةٌ تهبُ المزيد
والعُمْرُ يُثمرُ مرةً
فاقطِفْ جناهُ كما تريدْ

*

كُنْ أنتَ عِملاقَ الوجودِ
ونسرَه العالي الوحيدْ
واجِهْ مصيرَكَ بالكفاح
الشَّهْمِ والعَزْمِ الأكيدْ
وإذا أحاق بك الظلامُ
فلا مفرَّ ولا مَحيدْ
فاخرُقْه وافتحْ كُوَّةً
للضَّوءِ والأملِ الرَّغيدْ
وابدأ حياتَكَ من جديدْ

المأزق

خليل إبراهيم الفزيع

مطعم الميناء واحد من أهم معالم المحمدية.. مدينة النفط المغربية المطلة على المحيط.. الواقعة في منتصف الطريق بين الرباط والدار البيضاء.. في هذا المطعم يحلو له ولزوجته تناول طعام العشاء كلما سنحت الفرصة.. لقد استهواها هذا المطعم المصمم على الطراز الأسباني، بجوه الرومانسي، وأكلاته البحرية اللذيذة، وزبائنه الذين يشكل الأجانب غالبيتهم.

قالت وهي تتصفح قائمة الطعام بعد أن استقرا في أحد أركان المطعم بقرب نافذة مطلة على حديقة ممتلئة بشتى أصناف الزهور، وشجيرات البرتقال والزيتون، وأشجار الأرز العملاقة، وقد عكست الإضاءة على الحديقة جواً يبعث على الطمأنينة والحبور:

ـ لم أتصل بأمي منذ أسبوع.. أرجو أن تذكرني بالأمر عندما نعود للفندق. إنها مشدودة إلى تلك الديار الموسومة بالجفاف والصهد كما وصفتها يوماً.

تحمل معها أمها وإخوتها أينما ذهبت.. هذا الانتماء الطاغي لغيره يزعجه، كما يزعجها حديثه عن أهله.

لم يصرح لها يوماً بضيقه من اهتمامها بأهلها في أوقات يتمنى فيها أن تهتم به أكثر.. تأمل وجهها المشرق.. وجمالها الفريد.. ورقتها المتناهية.. انتبه إلى النادل وهو يقف بمحاذاته مستفسراً عن اختيارهما من الطعام.

حدق في قائمة الطعام.. خُيِّل إليه أن الحروف قد تحولت إلى أرتال من النمل.. تتحرك إلى أطراف القائمة ثم تختفي حتى بدت القائمة خالية من الكتابة.. رماها مذعوراً وبحث عن النمل فلم يجده، عندما التقطها مرة أخرى وجد الحروف في أماكنها.. داهمته الرغبة في الضحك فقاومها.. طلب من النادل التريث لدقائق أخرى. قال:

ـ أمي.. أمي.. أهلي.. الهاتف (وبعدين)!

ولما بدا عليها الاستياء سارع إلى القول:

ـ طيب.. حاضر وممنون، عندما نعود إلى الفندق سأهاتفها بنفسي.

كانت لا تزال منشغلة بتفحص قائمة الطعام.. مرة أخرى أقبل النادل لتسجيل طلبهما.. أملت عليه اختيارها فقال الزوج:

ـ وأنا مثلها.. اجعل الطلب لاثنين.

ثم التفت إلى زوجته بعد انصراف النادل وقال:

ـ لماذا لا تتكلمين.. سيظن الناس أننا مجرد زوجين، كيف لي أن أخبرهم أننا عاشقان.. رمت بهما دروب الحب من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب؟

ابتسمت.. شعر بالفرح يطغى على كل ما حوله.. وبدا سقف المطعم الخشبي بعيداً إلى الأعلى، وقد تطاولت الجدران وتحول لونها إلى الأخضر وبدا العشب النابت بين شقوقها أكثر اخضراراً، بينما تحولت أرض المطعم إلى اللون الوردي.

تذكر أنه قبل أيام قليلة أدخلها في نفق القلق غير المسوغ.. استاء من تصرفاته التي كثيراً ما أزعجتها، ومن كلامه الذي كثيراً ما آلمها.. تسلل الحزن إلى نفسه.. لزم الصمت.. إلى أن قالت مستغربة:

ـ هل فقدت لسانك.. لماذا لا تتكلم.

وكأنما انتشلته من قاع الحزن، فقال:

ـ يبدو أنني أزعجك بكلامي.. كلما حاولت كسب رضاك.. يجانبني الصواب، وارتكب الحماقات عن غير قصد.

كأنما أرادت أن تهون عليه فقالت تمازحه:

ـ ما أحلاك وأنت في هذه الحالة.. تخلع جلباب الغموض، وتتخلى عن دور القسوة، فتعود كما أنت.. طيباً ورقيقاً وواضحاً.

أمسك بيديها وقبلهما وقال:



- أرجوك لا تسيئي فهمي،إنني أحاول إرضاءك، لكنك حساسة أكثر من اللازم.

- وأنت متهور أكثر من اللازم.

حاول أن يستشف من نبرات صوتها ما إذا كانت تمازحه أم تذكره بأحد عيوبه، لكن صوتها بدا محايداً، فافترض حسن النية.. وهي القاعدة الذهبية التي يتعامل بها مع كل الناس إلى أن يثبت العكس.. وكثيراً ما طرحت آراء لا يتفقان حولها سواء في أثناء نقاشهما المباشر أو من خلال زاويتها الأسبوعية التي تكتبها في مجلة «المرأة» لكنه يرى هذا الاختلاف في الرأي علامة صحة في العلاقة الزوجية، خصوصاً أن هذا الاختلاف ينتهي بالإقناع لصالح أحد الطرفين من دون حساسية أو شعور بالغبن.

سألها بعفوية:

- ما تقصدين بقولك إنني متهور أكثر من اللازم؟

- ألا تعرف ماذا أقصد.. طبعاً أنت لست معي.. منذ جلسنا وهي تكاد تلتهمك بعيونها.. مؤكد أنك تعرفها.

وشعر كأنما صفعته بكلماتها، تطلع حيث أشارت برأسها.. هناك يجلس رجل وامرأة يتطلعان إليهما ويتحدثان بهمس..

- أتقصدين تلك المرأة إنها مع رجل، ولا أظنها تنظر إليّ، بل يخيَّل إليّ أنها تنظر إليكِ أنت.

- لا تتغابى.. إنها تنظر إليكَ.. هلا تخبرني ما صلتك بها؟ قل لي هل تعرفها؟

كان النادل قد بدأ في جلب الطعام، ومع رائحته النفاذة، إلا أن يده لم تمتد إليه؛ لأن المفاجأة شلت تفكيره.

- هل تمزحين؟

وبان الغضب على محياها:

- أنا لا أمزح.. وأنت دائماً تحرجني في مثل هذه المواقف.

أراد أن يمتص غضبها فقال ممازحاً:

- مادام معاي القمر.. مالي ومال النجوم

لم تصغ إلى ما قال.. بل زاد انفعالها، وتفوهت بكلمات قاسية، ثم انخرطت في بكاء صامت.. تطلع إلى من حوله فأدرك أن الجميع مشغولون بأنفسهم.. حاول أن يهدئ من انفعالها، فلم يزدها ذلك إلا توتراً، تعجب لتردي الموقف بهذه السرعة المذهلة.. وزاد عجبه عندما رأى المرأة تترك رفيقها، وتتجه إلى حيث يجلسان وعلى شفتيها ابتسامة جادة.. وتوجس وقوع ما لا يحمد عقباه.. سارعت زوجته إلى مسح دموعها واستعادة هيئتها، وكأنما هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.. وانهمرت الأسئلة في ذهنه:

ماذا تريد هذه المرأة؟ ماذا سيكون رد فعل زوجته لو دار بينه وبين هذه المرأة أي حديث؟ ما هذه الساعة المشؤومة التي قادته إلى هذا المطعم؟ كيف سيعالج الوضع إذا تطور الموقف وهما في مكان عام.

المرأة تقترب أكثر.. وقلبه يزداد اضطراباً وعقله يزداد تشتتاً، وخُيِّل إليه أن أرض المطعم تدور به من دون سواه.. اقتربت المرأة أكثر.. ازداد وجيب قلبه.. ولما أصبحت قريبة منهما.. مدت يدها.. ظنها ستصافحه وهذه بداية الكارثة. لكنها تجاوزته لتصافح زوجته، وتشد على يدها بحرارة وهي تسأل بفرح طفولي:

- أنت الكاتبة كوثر جابر؟

كان السؤال آخر ما يتوقعه، فزوجته الكاتبة المشهورة في بلدها، لم يظن أن شهرتها قد وصلت إلى المغرب العربي.. أجابت زوجته، وقد بدت سحب الغضب تنجلي من سماواتها:

- نعم.. أنا هي!

- هذا من محاسن المصادفات اسمي عيشة.. وأنا قارئة معجبة بكل ما تكتبين، خصوصاً زاويتك في مجلة «المرأة».. حصلت على مؤلفاتك بواسطة أخي.. ذلك الجالس الذي كنت معه.. وهو يعمل في بلدكم.. هل تعلمين شيئاً؟ إنك في الحقيقة أجمل (بالزّاف) مما تبدين في الصورة (ديالك) التي تنشر مع مقالاتك.

انفرجت أساريره بابتسامة عريضة، وهو يرى السرور على ملامح زوجته.. وتمتم بكلمات غير واضحة.. لكنه أراد أن يقول:

- ألم أقل لك إنها تنظر إليكِ أنتِ؟

المقابلة

الكاتبة التشيلية مغدلينا بيال إي   ترجمة: علي إبراهيم أشقر

استطاع أخيراً أن يدخل..

دخول هذا البناء يكاد يكون نصراً، وكان عليه أن ينتظر في ثلاثة أبنية أخر.

كان قد تكلم مع موظف سابق يعرفه في الشركة، ليعطيه بطاقة كي يكلّم السيد (س)، وهو صديق سيد آخر (س)، وهذا أخيراً، صديق مدير عام الشركة الكبرى التي دخلها الآن.

مكث شهراً كاملاً ليحصل على هذا اللقاء. مكالمات هاتفية قصيرة عند الباب، وزوّار لا يحصون. وها هو ذا قد تلقى الإذن أخيراً، وفُتّش تفتيشاً دقيقاً بأجهزة إلكترونية متطوّرة، حيث قام موظفون أمنيون بفحصه كأنه مجرم. أُفرغت جيوبه، وسلّم علبة الدواء التي يحملها من أجل زوجته، ومحفظة أوراقه، ومحفظة النقود الفارغة. وأخيراً دخل حاملاً إذن المرور.

يا إلهي! كم من الأمور تتعلّق بهذه المقابلة؟! أيتذكر المدير أنهما كانا رفيقي مقعد واحد في المدرسة؟ أيتذكر أنه كان بديلاً له فترة طويلة في المصنع؟ أية تغيرات طرأت على هذا الرجل منذئذ، كان يتذكره قاسياً، لاذعاً، كتوماً، فلم يُعانِ من التقلبات في حياته كالآخرين.

صعد الدرجات راكضاً، وانعطف بخطوات واسعة، وصعد بالمصعد، ثم انتقل إلى مصعد آخر، وضاع.. فسأل شخصين، ثلاثة، بل أربعة أشخاص. فتيات أثيريات يظهرن طافيات فوق الطنافس، ويتكلمن بصوت ساحر ناعم كصوت المذيعات في الإعلانات التلفازية.

وأخيراً، وصل إلى مكتب، فقامت ثلاث سكرتيرات بفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم قلنَ له أن ينتظر في القاعة التالية.

كان قلبه يدق بعنف، لأن زوجه وأبناءه، وكل ما لديه كان وقفاً على تلك المقابلة.

ففي الأشهر العشرة التي قضاها من دون عمل، كان قد استنفد كل مدخراته وقواه المعنوية وآماله.

كيف يبدأ مع السيد المدير العام؟ سيقول له بصدق: إن الأمر أمر حياة أو موت، وإنه لا يستطيع الصمود أكثر من ذلك، وإنه لا يملك سنتيماً واحداً، وإنه في الفترة الأخيرة يعيش حقاً على الإحسان، سائلاً الجيران والأصدقاء قليلاً من السكر والخبز والشاي والبطاطا وشيئاً من الطحين وحليباً للأطفال.

يا إلهي الناس طيبون، ولكن لا يمكن استغلال طيبتهم والاستمرار بالعيش هكذا. كلا! والآن، ها هو ذا صاحب البيت قد أقام عليه دعوى، ويمكن في أي يوم أن يطرد إلى الشارع. يا إلهي! ما العمل؟ سيقول كل ذلك للمدير العام، وسيفتح له قلبه. يا ربي كيف أؤثر فيه؟ وما العمل لأجعله يدرك حرج الوضع؟ به، وبه فقط كان يرتبط مستقبله، ومستقبل ذويه، وهو أمله الأخير، كان يفرك يداً بيد، ويمرّ بالمنديل على وجهه البارد والمتصبب عرقاً، ويسوّي وضع كمّي القميص المحكوكين، ويشدّ السروال غير المكوي، ويسرّح شعره الخفيف بيده المرتعشة. عساه يفهم الأمر، وعساه يبدي قليلاً، قليلاً فقط من الإرادة الطيبة. يا إلهي، يا إلهي! ساعدني!

ثم أحسّ بشيء من النعاس، بعث عليه السكون ودفء القاعة المفروشة بالسجاد. كان يحلم أنه ميت. أجل ميت، وأنه اختفى كلياً ونهائياً. ولكن كيف يترك أطفاله وزوجه في بؤس كامل؟ ولِمَ يجب على المرء أن يرى نفسه مسؤولاً دائماً؟ العالم سيتابع سيره من دون فرد من أفراده. والحياة تستمر كما هي أو إلى الأفضل أحياناً. ولِمَ لا؟ ما أقسى مصيره!! لكن ما كان أسعد حياته في بدايتها! فلقد كان في غاية السعادة في منزله. كان لديه أحصنة وعربة وكل ما يشاء. وكان أبواه يحبّانه، ويحب أحدهما الآخر. كان كل ما يحيط به سلاماً ومحبة وضيئةً لامعة.

كيف تحول كل ذلك إلى شكل مأساوي؟ ماتا كلاهما في البؤس، وهو.. وفُتح أحد الأبواب فجأة بعنف، ردّه إلى دنيا الواقع. أيكون هو؟ لا. حتى الآن ليس هو.

إنه شاب خرج يحمل بعض الرزم. ثم رآه بغتة، خرج المدير من باب آخر مودّعاً أحد الزائرين.

- كما تشاء يا رجل! ستجدني دائماً تحت تصرفك من أجل كل ما يعرض لك.

- لا تنسَ هذه الليلة! إننا ننتظرك الساعة الثامنة، وداعاً، وشكراً مرة أخرى.

- موافق! سأكون دقيقاً، وداعاً.

اجتاز السيد القاعة بخطاً كبيرة وهو يبتسم، وألقى نظرة حوله ومرّ في مكتب السكرتارية من دون أن يلحظه.

- السيد ينتظرك؛

- أجل! أجل! دعي لي المحامي المساعد وقولي له إني سأكون بانتظاره في مكتبي بعد عشر دقائق. ثم استدار، واتجه صوبه تملؤه الثقة بالنفس، وقال له بصوت ناعم بارد: كيف حالك يا الباريس؟ أفترض أنك تريد عملاً، أليس كذلك؟

- سيدي، أنا..

- عليك أن تعلم أننا لا نستطيع إحداث شاغر إلا بصعوبة. يوجد الآن كثير من المرشحين على قوائم الانتظار. آنسة ليونور. سجليه وخذي المعلومات منه.

- لكن يا سيدي، أريد أن أكلمك.

- أم م م، وتقيدي يا آنسة بنظام الدور بدقة. حسن يا ألباريس. وداعاً وأتمنى لك كل خير.

ودخل مكتبه بخطاً أنيقة، وأغلق الباب خلفه بهدوء.

قراءة في ديوان

الشعر العربي في القرن العشرين

راضي صدوق   مراجعة: مأمون فريز جرار

عرف عصرنا الحديث مجموعة من المؤلفات الموسوعية التي جددت لنا بعض ما كان في تراثنا، فكان «الأعلام» لخير الدين الزركلي، و«معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة، وأعلام النساء له كذلك. ولم ينقطع مدد المؤلفات الموسوعية، فلا يزال أصحاب الهمم العالية يتصدون للأعمال الكبيرة.

ومن هذه المؤلفات كتاب «ديوان الشعر العربي في القرن العشرين» للشاعر والكاتب الإعلامي راضي صدوق.

وحق ما قاله ناشر الكتاب على غلاف الجزء الأول الذي صدر منه: «هو عمل موسوعي رائد غير مسبوق، وكان يفترض أن تنهض به مؤسسة علمية أو هيئة أدبية ثقافية قادرة، أو فريق من الباحثين الاختصاصيين».

ولدت فكرة هذا العمل لدى المؤلف أواخر سنة ١٩٩٠م، حين كان يبحث في الكتب عن شاعر عربي معاصر غير خامل الذكر، قرأ له فأعجبه ما قرأه، فما وجد له ذكراً لدى دارس، ولا أثراً في دراسة (ص٩).

وقد دفعه ذلك إلى استعراض ما وجد من الكتب التي تحاول التأريخ للشعر العربي في القرن العشرين، فما وجد ما يكفي ويشفي، ووجد فيها نقائص دفعته لينهض بالعبء الكبير، ومن أبرز هذه النقائص:

ـ افتقار بعض هذه الأعمال للرؤية الشمولية التي تتجاوز التعصب القطري الذي يبرز أسماء على حساب آخرين، مما أدى إلى إعطاء صورة غير واقعية وغير شاملة للحركة الشعرية المعاصرة.

ـ قيام بعض هذه الأعمال على ذوقية انطباعية تستند إلى اندفاع عاطفي أو معايير شتى تطغى على المعايير الأدبية، مما أبرز شعراء وجعلهم في الصفوف الأولى، وعَرَّض للتعتيم الشعراء المستقلين الذين نأوا عن الحزبية والشللية، وبدرجة أقل الشعراء الإسلاميين.

ـ محاولة بعض الدارسين إخضاع الحركة الشعرية المعاصرة للنظريات النقدية الأوربية وتقويمها على أساسها.



ديوان الشعر العربي في القرن العشرين
توثيق أنتولوجي وأنطولوجي للشعراء العرب المعاصرين
الجزء الأول
روما: دار كرمة للنشر، ط ١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م

لقد أقدم المؤلف على عمله وهو يمتلك مؤهلات النجاح، فهو شاعر واكب حركة الشعر العربي المعاصر، وهو واحد من رموزها. وله صلات قوية مع كثير من الشعراء في شتى بلاد العرب. وساعدته كذلك مواقع العمل الإعلامي التي تبوّأها عبر سنوات عمله في أكثر من بلد عربي، وكذلك مكتبته التي حوت كثيراً من دواوين الشعر بطبعتها الأولى، والمجلات العربية ذات الصبغة الوثائقية.

خيبة أمل

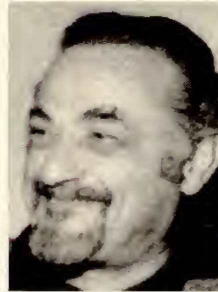
لقد كان المتوقع أن يلقى هذا العمل الدعم من الشعراء واتّحادات الأدباء ووزارات الثقافة، وجميع الجهات التي يهمها أمر الحركة الأدبية المعاصرة. ولكن الذي حدث غير هذا، فالمؤلف يبث القارئ شكواه، فهو لم يدع وسيلة من الوسائل إلا اتبعها للوصول إلى معلومات عن الشعراء، ومن ذلك:

ـ عشرات الرسائل إلى الشعراء الأحياء مباشرة.

ـ مكاتبة بعض الشعراء بوساطة الاتحادات الأدبية.
ـ الاتصال بأبناء الشعراء الراحلين وأقاربهم.
ـ رسائل عبر الصحف والمجلات العربية.
ـ مراسلة وزارات الثقافة والمؤسسات والهيئات الثقافية للحصول على بعض الكتب الوثائقية.
ـ مراسلة الباحثين في الشعر الحديث.
ـ مراسلة السفارات والملحقين الثقافيين.

ولم يجد من أكثر من هذه الجهات إلا إعراضاً، وبخاصة من الشعراء الشباب،ومن الهيئات الأدبية وروابط الأدباء، ومن السفارات والملحقين الثقافيين. ويأخذك العجب وأنت تتابع شكوى المؤلف! أليس من حقه على الشعراء أن يعينوه ويشكروا له؟ أليس عمله نشراً لذكرهم وإبقاءً له من بعدهم؟ ألم تضع دواوين شعراء كثيرين فعرفنا أسماءهم وبعض أشعارهم من يتيمة الدهر، أو خريدة القصر، أو سلافة العصر؟!


أحمد شوقي


يوسف الخال

ولماذا تبخل الهيئات الثقافية أو الملحقون الثقافيون، وفي هذا العمل إعلاء لذكر شعرائهم وبلادهم؟

إنها ظاهرة تستحق الدراسة الميدانية.

منهج الموسوعة

إن عملاً يتصدى لتوثيق حركة الشعر العربي المعاصر في أقطاره كافة لعمل ضخم يحتاج إلى منهج ضابط ليكون ضمن حجم معقول قابل للنشر وقابل للتداول، وقد حدد المؤلف منهجه بما يلي:

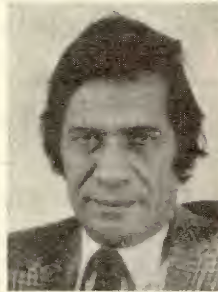
ـ إيراد إيجاز وافٍ لسيرة كل شاعر، وتحديد موقعه على خريطة الشعر ودوره في النهضة الشعرية ـ إن كان له ثمة من دور ـ وأعماله المطبوعة فقط (إن كان على قيد الحياة) وآثاره المطبوعة والمخطوطة (إذا كان من الراحلين) مع إيراد نموذج أو أكثر من إبداعه الشعري، بحيث تمثل النماذج المختارة مراحل تطوره الفني ما أمكن ذلك.

ـ حرص المؤلف على إبراز المواقف الوطنية والقومية والإنسانية لكل شاعر، وقام بتصحيح المعلومات المغلوطة الرائجة في بعض الكتب والدراسات عن الكثيرين من الشعراء البارزين. وسأورد في هذه المقالة، نماذج من هذه التصحيحات والشهادات التي قدمها المؤلف وهي مما تزيد كتابه قيمة وثراء.

ـ اختار المؤلف من الشعراء الراحلين كل شاعر كان له دور ملموس ومشهود له في مسيرة الشعر العربي، أو في نهضة الشعر في بلاده، سواء أكانت له دواوين مطبوعة أم لم تكن. واكتفى بإبراز نماذج أقل من شعر الشعراء الأعلام الشائع ذكرهم.

ـ اختار من الشعراء الأحياء من كان له ديوان مطبوع أو وردت مختارات من شعره في مجموعات أو دراسات أدبية مطبوعة. واستبعد بعض الشعراء ممن لهم دواوين مطبوعة بعد دراسة دواوينهم واستناداً إلى رأي الثقات من النقاد والدارسين في مستواهم الفني!! ولا أوافق المؤلف على موقفه هذا لأنه لا يؤرخ للشعراء المتفوقين فنيًا، بل لحركة الشعر بمستويات شعرائها كافة، وكان بإمكانه أن يورد رأيه في أولئك الشعراء، ويترك للقُرّاء والنقاد المجال للحكم عليهم، فما لا يعجبه من شعرهم قد يجد رواجًا لدى غيره.


إبراهيم طوقان


معين بسيسو

ـ اختار للشعراء الذين جمعوا بين الشعر العمودي والشعر الحر نماذج من الشعرين. وقد أشار إلى أنه أورد ذكر شعراء لم تتوافر له نماذج من شعرهم على أمل تدارك ذلك في الطبعة الثانية. وقد أحصيت عددهم في الجزء الأول فكانوا ثلاثين شاعراً من بلاد عربية مختلفة من فلسطين ولبنان والعراق ومصر والجزائر والمغرب.

ـ استبعد شعراء «قصيدة النثر»، لأن هذا اللون من الكتابة لا يزال موضع خلاف بين الدارسين والباحثين ولم يحسم أمره.

لقد تفاوت حجم التراجم في الكتاب بين ترجمة وافية مستكملة لعناصر الترجمة مع إيراد الشواهد المعبّرة عن موهبة الشاعر ومكانته، وترجمة متوسطة في معلوماتها، وترجمة موجزة لا تشفي غليلاً، ولا تعدو اسم الشاعر وميلاده ومكان ولادته، وأنه يكتب الشعر بنوعيه (العمودي والحر)!! ولعل هذا الذي أشير إليه من قلة المعلومات راجع

إلى تلك الشكوى التي بثّها المؤلف في مقدمة كتابه من قلة التجاوب من الشعراء ومن يملكون المعلومات عنهم.

ويلفت النظر كذلك أن بعض النماذج تملأ صفحة أو أكثر من ذلك وبعضها لا يزيد على أسطر معدودة.

ولو أن مصادر المعلومات أسعفت المؤلف فذكر في نهاية كل ترجمة مراجع لمن أراد المزيد لكان العمل أكثر قيمة.

وقد كان المؤلف يذكر في بعض المواضع مصادر الشعر الذي أورده، فمنه ما كان من ديوان الشاعر، ومنه ما كان من بعض المجلات الأدبية كالأديب والآداب والأفق الجديد، ومنه ما كان من كتب المختارات الشعرية. كما أشار إلى ما جاءه من معلومات من الشعراء أنفسهم بالرسائل التي بعثوا بها إليه، ومن مصادر معلوماته خبراته الذاتية مع من عرف من الشعراء معرفة مباشرة.

أحكام نقدية

وقد كان المؤلف حريصاً على تقديم بعض الأحكام النقدية على الشعراء، وهي أحكام مبنية على نظر فاحص، واطلاع على شعرهم. ومن أمثلة تلك الأحكام قوله في الشاعر الليبي إبراهيم الأسطى عمر: «شعره رقيق، عميق المعاني، سهل الألفاظ والتراكيب، يتسم بالحس المرهف، يشوبه أحياناً النظم والنثرية، وتشيع في بعض قصائده روح اليأس والتشاؤم، يطرق في شعره القضايا الوطنية والقومية والموضوعات الوجدانية والفلسفية. حظي باهتمام الدارسين فصدر عنه عديد من الكتب والدراسات»(ص١٩).

وقال في الشاعر اليمني إبراهيم الحضراني: «يكتب القصيدة العمودية بقوة وأصالة وتدفق، يعد من شعراء الوطنية البارزين في اليمن، وشعره سجل صادق للأحداث والمناسبات الوطنية في بلاده، تشوب شعره مسحة من الحزن والقتام»(ص٣٠).

وقال في الشاعر إبراهيم العلاف: «شعره تقليدي يغلب عليه النظم والافتعال والجفاف وقصر النفَس، ومعظمه في الحكمة والوصف والوجدانيات» (ص٣٥).

ومن ذلك قوله في نهاية حديث طويل عن الشاعر السعودي الدكتور أسامة عبدالرحمن: «ويأتي أسامة عبدالرحمن في الصف الأول من شعراء العقدين الماضيين في الجزيرة العربية، ويتسم شعره بقوة الدفق، ومتانة النسج، وطول النفَس، والعاطفة المشحونة، وبخاصة في قصائده الوطنية والقومية المعبّرة عن روح متمردة ضد التهافت، والسقوط والابتذال والانحراف» (ص٣٣٢).

إن من أهم ما في كتاب «ديوان الشعر العربي في القرن العشرين» هذه المواقف التي أبرزها لعدد من الشعراء المشهورين، وهي مواقف قد تغيب عن كثير من الباحثين أو عامة القُرّاء مع أنها تستحق النظر والتأمل.

القضية الفلسطينية معياراً

لقد اتخذ المؤلف القضية الفلسطينية معياراً من معايير النظر في مواقف الشعراء، وأورد في هذا المجال بعض الحقائق المهمة. من ذلك ما أورده في ترجمة إبراهيم عبدالقادر المازني:

استعرض المؤلف ما وجد من الكتب التي تحاول التأريخ للشعر العربي في القرن العشرين، فما وجد ما يكفي ويشفي، ووجد فيها نقائص دفعته لينهض بالعبء الكبير

«شغف المازني بالأدب الإنجليزي وتأثر بعدد من الشعراء الإنجليز (شيلي، اللورد بيرون، هازلت، توماس هاردي)، ويبدو أن هذا الشغف تطور إلى (علاقة خاصة) مع سلطات الاستعمار البريطاني في مصر، فقد أوفدت هذه السلطات المازني والعقاد إلى فلسطين (التي كانت تمور بالثورة على مظالم الانتداب البريطاني والغزو الصهيوني) في مهمة لإقناع المجاهدين الفلسطينيين بوقف ثورتهم، ووقف الإضراب التاريخي عام ١٩٣٦م، وقد أنزلتهما سلطات الانتداب في فندق الملك داود بالقدس، لكنهما اضطرا للانسحاب والعودة إلى مصر، بعد تعرضهما لمحاولة اغتيال من قبل ثوار فلسطين!

وعندما شبّت الحرب العالمية الثانية بين الحلفاء بزعامة بريطانيا ودول المحور بزعامة ألمانيا انتدبت سلطات الاستعمار البريطاني إبراهيم المازني ليخاطب أبناء فلسطين من دار الإذاعة الفلسطينية في القدس (التابعة لحكومة الانتداب) لاستمالة الفلسطينيين لتأييد بريطانيا، وقد ألقى المازني سلسلة من الأحاديث لهذا الغرض (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٠م) يركز فيها على معدن التشابه بين الفطرة العربية ومعدن الفطرة الإنجليزية، وإن كانت تخفى بين مظاهر الحياة للشعبين، وأن هذا التشابه يظهر عند البحث في الأدبين على الرغم من اختلاف الصور وأساليب التعبير. كما أن أساليب التفكير عند العرب والإنجليز في جوهرها واحدة. وأورد المؤلف في هامش الصفحة قوله: «من حديث للمازني بثه بنفسه وصوته مساء السبت

١٣/١٠/١٩٤٠م من الإذاعة الفلسطينية بالقدس» (ص٥٩-٦٠). ولم يورد المؤلف مصدراً مكتوباً لهذه المعلومة، ويبدو أنه شاهد عليها، وهي معلومة تحتاج إلى وقفة لما توحي به من دلالة.

ومما أورده المؤلف في ترجمة أحمد شوقي: «رغم أن أحمد شوقي سجل الأحداث المصرية والعربية والإسلامية في شعره إلا أننا لم نعثر في جميع آثار شوقي الشعرية والنثرية على أي ذكر لاسم فلسطين، مع العلم أنه كان معاصراً لأخطر مراحل القضية الفلسطينية مثل: صدور وعد بلفور المشؤوم، وطلائع الغزو الصهيوني الخطير لفلسطين بتشجيع من حكومة الانتداب البريطاني ورعايتها، وكذلك اندلاع ثورة البراق في فلسطين ضد الصهاينة» (ص١٩٣).

وقد تنبه المؤلف إلى هذه الظاهرة في ترجمة حافظ إبراهيم، فقال في هامش الصفحة (٥٩٥):

«لم نعثر في ديوان حافظ على أية قصيدة في قضية العرب المركزية (قضية فلسطين)، بل إن اسم فلسطين لم يرد على لسان حافظ إلا في رثائه للزعيم المصري سعد زغلول، حيث يقول:

قل لمن بات في فلسطين يبكي
إن زلزالنا أشدُ مصابا!!

وهو يقصد بذلك الزلزال الذي وقع في فلسطين عام ١٩٢٧م، وواضح أنه يعتبر موت سعد زغلول أشد مصاباً من وقوع الضحايا الفلسطينيين في الزلزال. ويرى الدكتور شوقي ضيف أن ديوان حافظ المطبوع لا يضم كل شعره السياسي».

ولم يقتصر تنبيه المؤلف على هذه الظاهرة، بل نراه يورد له من النماذج ما يكشف عن ولائه للإنجليز، ومن ذلك قوله تحت عنوان «إنهم كرام» في مدح السلطان حسين كامل يدعوه إلى موالاة الإنجليز:

ووالِ القومَ إنهم كرامٌ
ميامين النقيبة حيث حلّوا
لهم ملك على التاميز أضحت
ذراه على المعالي تستهل
وليس كقومهم في الغرب قومٌ
من الأخلاق قد نَهَلوا وعَلُّوا
فإن صادقتَهم صدقوكَ وداً
وليس لهم إذا فتّشتَ مِثْلُ
وإنْ شاورتَهم والأمر جِدٌ
ظفرت لهم برأي لا يزلّ
وإن ناديتهم لبّاك منهم
أساطيل وأسياف تُسلّ
فمادِدْهم حبالَ الود وانهض
بنا فقيادنا في الخير سهل!!

شغف المازني بالأدب الإنجليزي وتأثر بعدد من الشعراء الإنجليز وتطور هذا الشغف إلى (علاقة خاصة) مع سلطات الاستعمار البريطاني في مصر

وقد تنبه المؤلف إلى الموقف السلبي لأمين نخلة من قضية فلسطين وأشار إلى ذلك في الصفحة (٤١٠)، ثم قال في هامشها:

«التقى المؤلف بالشاعر أمين نخلة خلال زيارته الكويت عام ١٩٦٥م ساعة من الزمن تحدث خلالها عن الشعر واللغة العربية والنبي العربي - صلى الله عليه وسلم -، وأوضاع الأمة العربية، وأقمار التجسس الأمريكية التي ترصد منطقة الشرق الأوسط، لكنه كان بارعًا وبأدب جم في الإشاحة عن حديث القضية الفلسطينية والمعاملة غير الإنسانية التي يلقاها الفلسطينيون في مخيماتهم بلبنان آنذاك:

ولك أن ترجع في هذا الباب إلى ترجمة كل من جورج صيدح، وجورج عساف، وجورج نجيب خليل، وإيليا أبي ماضي.

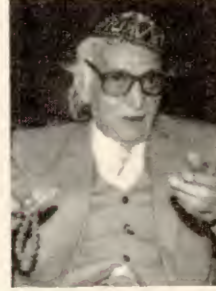
ومن المواقف المشبوهة التي أشار إليها ما أورده في ترجمة أدونيس، حيث قال: «وهو أكثر الشعراء العرب المعاصرين إثارة للجدل والشكوك حول أفكاره واتجاهاته ومواقفه وارتباطاته» (ص٣١٨). ثم قال في هامش الصفحة: «روى الشاعر خليل حاوي للناقد الدكتور محيي الدين صبحي أن يوسف الخال وأدونيس جاءا إليه عام ١٩٥٧م ليصحباه إلى السفارة الفرنسية في بيروت، وذكرا أنها خصصت لعدد من المثقفين مساعدات شهرية، وأن اسم خليل وارد في جدول السفارة لكنه رفض مرافقتهما».

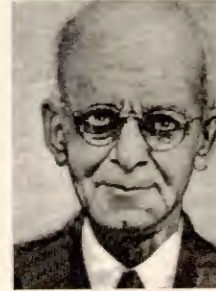
إنصاف

وقد حاول راضي صدوق إنصاف بعض الشعراء وبيان دورهم الريادي وكشف مواقف بعض الشعراء الذين لم يعترفوا لهم بذلك. ومن هذا الباب ما أورده في ترجمة إبراهيم طوقان في قوله: «وهو رائد الشعر

النضالي بفلسطين، وكان له تأثير كبير في الأجيال اللاحقة من شعراء فلسطين» (ص٥٢)، وقال في هامش الصفحة:

«في مقال له في مجلة الأسبوع العربي البيروتية زعم معين بسيسو أن جيله من الشعراء لم يتأثروا أبداً بالشاعرين الفلسطينيين إبراهيم طوقان والشهيد عبدالرحيم محمود، وقال: لم أعرف الشعر، ولم أعرف المكتبة الثورية إلا من فوق أرصفة شوارع القاهرة وبغداد، فمن فوق أرصفة شوارع القاهرة تعرفت إلى الشاعر بول إيلوار وليس أراغون وغارسيا لوركا وبابلونيرودا، ومن فوق أرصفة شوارع بغداد تعرفت إلى الشاعر ناظم حكمت وأحببت من خلاله الشاعر محمد مهدي الجواهري»، ثم يعقب راضي صدوق على ذلك بقوله: «الجدير بالذكر أن معين بسيسو كان شيوعياً ملتزماً، وظل كذلك، والشعراء الذين تعرف إليهم فوق أرصفة شوارع القاهرة وبغداد - كما يقول - كلهم شيوعيون، علماً بأنه لم يعش في بغداد، بل عمل معلماً لأقل من عام في مدينة بعقوبة بالعراق، وتم إبعاده منها بسبب نشاطه كشيوعي ملتزم، وما يقوله معين من أن جيله من الشعراء لم يتأثر بالشاعرين إبراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود، قول لا يعتد به، فالحقيقة التاريخية الموضوعية أن الأجيال الشعرية الفلسطينية الطالعة تأثرت جميعها بقدر أو بآخر بإبراهيم طوقان وأبي سلمى وعبدالرحيم محمود الذين لا يرقى الشك إلى صدق وطنيتهم وكفاحهم من أجل القضية العربية المصيرية (قضية فلسطين) في الوقت الذي كرس فيه معين حياته كلها وشعره كله كمناضل من أجل الشيوعية، وكان يتعامل مع القضية الفلسطينية من خلال هذا الإطار».


الجواهري


إيليا أبوماضي


أدونيس


حافظ إبراهيم

وقد استمد المؤلف من خبراته ومصادر معلومات جيدة بعض ما يستحق الوقوف عليه، ومن ذلك قوله عن شاعر عرفه عن قرب هو أيوب طه: «كان بوهيمي النزعة في الظاهر، يسرف في معاقرة الخمر، وهناك علامات استفهام كثيرة لها ما يسوغها في سلوكياته الوطنية والقومية. ولعل كثرة تنقلاته في العمل من بلد إلى بلد تلقي الضوء على ذلك» (ص٤٣٢).

ومن المعلومات المؤلمة التي أوردها عن الأيام الأخيرة في حياة الشاعر والناقد المرحوم الدكتور أنس داود، ومع أن المؤلف لم يذكر مصدرها فإنها تستحق النظر والتأمل، قال فيه: «أصيب بمرض السرطان وتوفي في غرفة صغيرة بأحد مستشفيات القاهرة، وقد تعرض قبيل وفاته بأيام قليلة لمواقف غريبة، فقد صدر قرار رئيس مجلس الوزراء بعلاجه على نفقة الدولة، ودخل معهد الأورام، وبعد أيام طلب إليه المعهد الخروج لكي يعالج في مستشفى آخر من الآثار الجانبية للمرض الخبيث، فذهب إلى مستشفى استثماري كبير، ولما رأى الأطباء أن الموت قادم لا محالة هددوه، إما بالخروج وعدم العلاج، وإما بالعلاج في جناح على نفقته بأجر مقداره خمسمئة جنيه مصري يومياً، لكن الشاعر رفض هذا الموقف ومات في اليوم الأول الذي أحس فيه بالعذاب والمتاجرة بعذاب المرض من أجل المال» (ص٤١٣). إن من المؤلم أن يكون مصير شاعر ناقد عالم على هذه الصورة من النهاية الفاجعة، فهل كانت نهايته على هذه الصورة حقاً؟!

بقي أن أختم الحديث وأقول لقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب القيم عن دار كرمة في روما بإيطاليا، وجاء في (٨٢١) صفحة، وأورد فيه الشعراء الذين بدأت أسماؤهم بالحروف الهجائية: الهمزة والباء والتاء والثاء والجيم والحاء والخاء.

ولا تزال أربعة أجزاء - تحت الطبع - نأمل أن ترى النور قريباً. ولا يخفى أن مثل هذا العمل يحتاج إلى متابعة لأخبار الشعراء الأحياء، ومتابعة مسيرتهم الشعرية ليضاف كل جديد في الطبعة التالية.

ولا أشك في أن هذا الكتاب سيجد مكاناً مرموقاً في المكتبات ليكون مرجعاً من المراجع القيّمة التي لا يستغنى عنها باحث أو دارس للشعر العربي في القرن العشرين.

الطبيخ

ابن سيّار الوراق مراجعة: قسم التحرير

يهتم هذا الكتاب - كما يدل عنوانه - بعلم الطبخ وفنونه وأنواعه، وقد قدّم فيه المؤلف وصفًا حيًا لكثير من المأكولات والمشروبات التي كانت معروفة في كثير من عصور الدولة الإسلامية، ولم يكتف المؤلف بهذه الوصفات الغذائية، بل تعداها إلى وصف ما يناسب كل عمر، وصاحب كل علة.

وقد لخصّ المؤلف ما يشتمل عليه مؤلفه هذا في المقدمة قائلاً: «سألت - أطال الله بقاك [بقاءك] - أن أؤلف لك كتابًا أجمع لك فيه ألوانًا من الأطعمة المصنوعة للملوك والخلفاء والسادة والرؤساء، وقد عملت لك - أطال الله بقاك - كتابًا شريفًا ومجموعًا ظريفًا مشتملاً على منافع الأبدان ودافعًا لمضارها... يجمع كل الألوان المشوية والمطبوخة من اللحوم المسموطة.. جميع البوارد من الأطيار والأسماك من الأنهار بعد أن تصفحت - أيدك الله - كتب الفلاسفة القدماء وحكايات المتكلمين الحكما [الحكماء] فوجدتها بعيدة الأمد، كثيرة العدد، وعلمت أن الكثير من الخطاب يضجرك، وأن اليسير من الصفات يقنعك».

ومع يقين المؤلف - غفر الله له - أن الكثير من الخطاب يضجر القارئ، وأن القليل من الصفات (يقصد صفات الأطعمة) يقنعه، إلا أن الكتاب يقع في ٣٤٣ صفحة، مقسمة على (١٣٢) بابًا: منها (١٠٩) أبواب اختصت بالأطعمة، (المطبوخات)، و(٢٣) بابًا كانت من نصيب المشروبات.

والكتاب مخطوطة نسختها الأصلية في أكسفورد (المتن)، ونسخة أخرى في هلسنكي (مقارنة)، وقد قام بتحقيقه الأستاذان: كاي أورنبري وسحبان مروه، والمخطوطة من تأليف ابن سيار الوراق.

الباب الأول: في فساد الطبيخ وتقذيره وزُهومته (نتنه) وتغييره

في هذا الباب يعالج المؤلف مسألة في غاية الأهمية والحيوية ألا وهي المحافظة على النظافة في عملية الطبيخ، وقد ركز أولاً على غسل القدر غسلاً جيداً، ولما لم تكن هنالك مواد للتنظيف في ذلك العهد فقد أوصى المؤلف أن يستعمل الطابخ (الطين) في غسل الإناء مؤكداً أن «الأجود أن تغسل القدر ثم تطيّن، ثم تغسل من الطين الأول، ثم تطيّن ثانياً وتبيّت».

والتفت بعد ذلك إلى المطبوخ نفسه، وبدأ باللحم فأوضح أن غسله واجب قبل البدء في الطبيخ، وأن فساد الطبيخ يكون من «التهاون في تنظيف اللحم من دمه وملامسة كف القصاب».

تناول بعد ذلك نوع السكين التي يجب أن تستعمل في تقطيع اللحم، فأوضح أن استعمال الطابخ تقطيع اللحم بالسكين نفسها التي يقطع بها الخضار والبصل، مدعاة إلى فساد الطبيخ، ويقترح أن تتّخذ «للحم سكيناً وللبقول سكيناً»، وحذّر من مغبة سقوط الذباب الطائر على الطعام حتى لا تعافه النفس، وأنشد في ذلك:

ومُطَفّل أشر يزيد لجاجةً
بالطرد يطرده الكريم فيرجع
عاثت فيه العنكبوت فأقسمت
لي إنها عن صيده لا تُقلعُ
فأسره ويسوءني بفعاله
فلقد بُليتُ به فماذا أصنع؟!

وواصل المؤلف اهتمامه بالنظافة، والمحافظة على نكهة الطعام، فأفرد لذلك ثلاثة أبواب: الثالث والرابع والخامس.

ففي الباب الثالث وعنوانه: في ذكر ما يطيب به القدر من الأبزار والعطر، عدد ما يجب أن يُلقى في القدر لتطيب رائحة الطعام، وله في ذلك أنواع كثيرة: فمن العطر: المسك والعنبر والماورد والزعفران وغيرها.

ومن الفواكه اليابسة: اللوز والجوز والفستق والبندق والصنوبر وغيرها.

ومن الفواكه الرطبة: الرمان الحامض، والرمان الحلو، والتفاح الحامض والمشمش وغيرها، ومن الكواميخ: البن والزيتون وغيرهما.

ومن الحبوب: الحمص والباقلي الأخضر ومنبوت الحنطة والأرز وغيرها.



كتاب الطبيخ

ابن سيار الوراق

تحقيق: كاي أورنبري - سحبان مروه

THE FINISH ORIENTAL SOCIETY

هلسنكي: ١٩٨٧م، ٣٤٣ص.

ومن البقول: البصل والثوم وماء البصل والكرفس والجرجير وغيرها.

ومن الأبازير: الفلفل، والكسفرة اليابسة، والكمون والزنجبيل وغيرها. أما الفصل الرابع فعنوانه: «مذاقة الطاهي للون والمشاهي»، عدد فيه أنواع الأطعمة ومذاقها: الحلو، والحامض، والمالح، والدسم، والتفه (وهو البشع)، والحريف، والمر، والسنخ وغيرها.

أما الباب الخامس فعنوانه: «ما يذهب بالاحتراق من القدور المطبوخات»، وقد عالج فيه المؤلف عملية احتراق الأطعمة داخل القدور، وذلك بإلقاء أنواع معينة من المواد لتلافي حروق الطعام، وإعادته إلى حالته الأولى.

فنصيحته «إذا احترقت الأوزية فألق فيه سذاباً فإنه يذهب باحتراقها إن شاء الله»، ويوصي «أن تترك القدر التي احترقت وتقلب

على قدر أخرى، وتقلع منها ما احترق، فهذا من المعمول به والمعول عليه».

لم يقف اهتمام المؤلف على النظافة وحدها التي هي من مقومات الصحة، بل تعداها إلى الاهتمام بالمسائل الطبية، فأفرد الباب السادس للحديث عن: «ما يوافق الشباب والشيوخ من ألوان الطبيخ»، فوصف لكل فئة عمرية، ولكل صاحب داء ما يناسبه، فقدم وصفة طبية لطعام «صاحب الدم»، و«صاحب المرة الصفراء»، و«صاحب المرة السوداء»، و«صاحب البلغم».

تقدير الطعام في كل يوم من الأيام

سرد المؤلف بعض القصص التي يستخلص منها المحافظة على الصحة منها:

«وجد في خزائن كسرى خوان مرصع بالجواهر مكتوب عليه بالذهب: ليكن طعامك من أجود أنواع الغذاء تحكم به أساس جسدك، واعلم أنك تأكل ما تشتهي وما لا تشتهي فهو يأكلك، فلا تقارب الشبع ولا الجوع... وقال عمر بن هبيرة: عليكم بمباكرة الغذاء فإن فيه خلال ثلاثة [خلالا ثلاثا]، يطيب النكهة، ويطفي المرة الثائرة، ويعين على المروءة فلا تتوق النفس إلى طعام غيرها».

حازت اللحوم - بكل أنواعها - على اهتمام خاص من المؤلف، فتحدث عنها في الباب الثامن، تحت عنوان: «في قوى اللحم من سائر الحيوان وما ينفع منه وما يضر الإنسان»، فوصفها قائلاً: «اللحم أقوى الأغذية وأكثرها غذاء، ويقوي البدن».

وقدم وصفاً دقيقاً للحوم بقوله: «وأما اللحوم المسنة الهرمة، والأجنّة التي تستخرج من بطون الحيوانات فرديئة لا خير في أكلها. وكلما كان الحيوان أطرأ[أطرى] وأرطب، كان لحمه أجود، وكلما كان أسن كان لحمه أيبس، وكلما يسخن لا يصلح للمحموم ولا للممتلئ، واللحم الأحمر أغذأ [أغذى] من السمين، وأشد تقوية للمعدة، والغليظ من اللحم يصلح لمن يكد ويتعب».

ثم تعرض - بعد هذا التعريف - إلى الحديث عن كل نوع من أنواع اللحوم، فتحدث عن: لحم الجدي، ولحم الحمل، ولحم الماعز، ولحم البقر، ولحم الفرس، ولحم الجزور، ولحم الظبي، ولحم التيوس الجبلية.

عدد بعد ذلك لحوم الطيور بادئاً بالطيهوج، والدراج، والقبج، والقنابر، والعصافير، والفراخ، والبط، والطيور الجبلية كلها، والنعام، والكراكي.

وهذه مطجنة عملها أبو سمين للواثق:

«يؤخذ فروجين (كذا)فتفصل أعضاؤهما وتطرح تلك في قدر ويصب عليه ربع رطل زيت، وشيء من ملح أندراني، وكف حمص، ومن الماء ما يغمره، ويقلى حتى يقارب النضج، ويصب فيه نصف رطل خلاً، فإذا قارب النضج طرح في القدر كف كزبرة رطبة وشيء من كزبرة يابسة وباقة نعنع وأوقيتين [وأوقيتي] مطبوخ أو مشمش عتيق جيد».

ويتواصل الحديث عن اللحوم، فجاء الباب التاسع تحت عنوان: في قوى الأعضاء والأطراف وساير البطون والأجواف، شارحاً الفائدة الغذائية لكل جزء من أجزاء الحيوان، ومتى يؤكل، فتحدث عن: الرؤوس، والدماغ، والمخ، والضرع، والكبد، والكلى، والطحال، والبطون، ولحم القلب، والرية (الرئة)، واللحم الأحمر، واللحم السمين، واللحم المجزع، والأكارع.

وفي الباب العاشر الذي حمل عنوان: «في تركيب الألوان المطبوخة وصنايعها (والمقلوة) والمشوية وطبايعها»، قدم المؤلف عدة أنواع من الطبخات مبيناً تأثيراتها في جسم الإنسان، وما يسببه بعضها من أضرار، ومنوهاً أيضاً ببعض فوائدها لبعض أصحاب العلل، ومن الألوان المطبوخة التي تعرض لها المؤلف: الكباب، والمطجنة، والشوى، والسكباج، والحصرمية، والزيرباج، والزلابية وغيرها.

أما في الباب الحادي عشر فقد جاء تحت عنوان: «في طباع الأسماك وصفة صيدها بالشباك»، وفيه تعرض للأسماك ولحومها وتأثير هذا النوع من الغذاء في أصحاب العلل وصنف أنواع السمك الجيد منها والرديء، ثم تعرض لصيد الأسماك وأوضح أنسب الأوقات لصيدها، وأورد كثيراً من الأشعار التي قيلت في الأسماك.

هذا نوع من وجبات السمك (سمكة شوي لابن المهدي) كما جاء وصفها في الكتاب.

«تؤخذ سمكة كبيرة في الحياة فتلقى في عصير العنب الأحمر في إناء واسع يتهيأ أن تغوص فيه وتضطرب فيه وتشرب منه، ويتداخله جسمها حتى يبين نقصان العصير وحصوله في جوفها ومجاريها، ثم تخرج وتنظف وتشوى وتقدم وتؤكل بصباغ فيه انجذان ومري وخل وماء الكرفس وماء النعنع والكرويا، ولا معنى لها ولا لساير[لسائر] السمك إلا بالصباغ، فإنما يستطاب أكل السمك بالصباغ».

وقد ذكر لبعض الشعراء أن رجلاً يكذّب فشبه حديثه بالسمك بلا صباغ فقال:

أبو اسحاق ليس له دماغ
وليس لماء جلدته دباغ
كأن كلامه سمك طري
تقدمه وليس له صباغ

«في طبع بيض الدجاج والبط والدّارج»، هو عنوان الباب الثاني عشر وأوضح فيه المؤلف «أن أصلح البيض للناس بيض الدجاج»، وإنما باقي أنواع البيض «تصلح أن تؤخذ على سبيل الدواء»، ثم تطرق لميزاته وخصائصه الغذائية..

تحول في الباب الثالث عشر من اللحوم والبيض إلى «الحبوب والخبز من الحنطة والأرز» فذكر صفات كل نوع من أنواع هذه الأطعمة كالحنطة، والأرز، والباقلي، والحمص، والعدس، والماش، والجلبان، والذرة، واللوبيا وغيرها، ثم قدم وصفاً لكيفية عمل الخبز والرقاق وعدد أنواعه فذكر منها: خبز الماء النبطي، وخبز القناني، وخبز المعروك وغيرها من أنواع الخبز، وأورد في ذلك كثيراً من الأشعار، نذكر منها أبياتاً لابن الرومي:

ما أنس لا أنس خبازاً مررتُ به
يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدارما تندار [تنداح] دايرة
في لجة الماء يرمى فيه بالحجر

وإليك مثالاً لصنع نوع من أنواع الخبز الكثيرة التي حفل بها الكتاب:

عمل الخبز المعروك:

«يؤخذ من الدقيق مكوك ويجعل من الخمير ثلث أواقي [ثلاث أواق] ومن الملح عشرين(كذا) درهماً، ويعجن عجناً شديداً يابساً ويغطى حتى يختمر، فإذا اختمر كثيراً رش عليه بمقدار ثلثين درهماً ماء في ثلثة أفمام وقطع عليه أرغفة وعركه على رخامة لينة بالزيت عركاً جيداً متتابعاً ثم يقرص ويغطى بمنديل ندي، ويوقد له التنور، وتكون ناره لينة، ويرش في وجهه إلى مقدار ماء مع اللبن ويغطى التنور بالغطاء ومن فوقه بخيش مبلول حتى ينضج وتفتح عليه العين حتى يحمر وجهه ويمسح وجهه بالماء إذا خرج حتى ينصقل فإن مسح في التنور كان أحسن».

أما الباب الرابع عشر فعنوانه: « في طبايع بقل الزمان الملقى في ساير [سائر] الألوان»، وفيه

ذكر لأنواع البقول: الخس، والهندبا، والكراث، والكسفرة الرطبة، والجرجير، والرشاد، والحلبة، والحندقوقا، والطرخون، والسذاب، والنعنع، والباذروج، والكرفس، والبصل، والكرنب، والصعتر، والسلق، والفرفين، والبقلة، والملوخية، والإسفاناخ، والحماض، والشبت، والفجل، والقنابري، والراسن، واللفت، وغير ذلك من أنواع البقوليات.

تحول بعد ذلك في الباب الخامس عشر للحديث عن «طبائع الألبان وما يعمل منها من الأجبان»، فذكر أنواع الألبان وبيّن صفاتها وميزاتها، فذكر منها: اللبن الحليب، ولبن الأتن، ولبن البقر، ولبن الماعز، ولبن اللقاح، ولبن الماست، واللبن الرايب، واللبن المخيض، ثم تحدث عن الجبن، وماء الجبن، والزبد، والسمن.

تقطيع اللحم بالسكين نفسها التي يقطع بها الخضار والبصل من أسباب فساد الطبيخ

انتقل بعد ذلك للحديث عن الدهون وميزاتها وما تعالجه من الأمراض، فذكر دهن الشيرج، ودهن الجوز، ودهن اللوز، ودهن الفستق، ودهن الخردل، وغير ذلك من أنواع الدهون، ثم ذكر ما يلقى في القدور من أبازير وطيب وفواكه حتى يكون الطعام مستساغاً كالملح والكسفرة، والمري، والكمون، والكرويا، والكاشم والدارصيني، والخولنجان، والزنجبيل، هذا ما يلقى في القدورمن الإبازير. أما من الطيب، فالمسك، والعنبر، والعود، والزعفران، والماورد، والقرنفل، وغيرها، ومن الفواكه والتمور، فالتمر، والحصرم، واللوز، والجوز، والفستق، والصنوبر، والعناب، والعسل، والسكر، والخردل، وغير ذلك من الفواكه.

قدم المؤلف بعد ذلك وصفاً لكثير من أنواع المأكولات، محدداً المواد التي تصنع منها ومقاديرها وكيفية صنعها، ذاكراً في بعض الفصول أنواع الطعام التي تناسب فصول السنة صيفاً وشتاءً، ثم تطرق للرياضة، وبين أهميتها وفائدتها للجسم وعلاقة ذلك بتناول الطعام، وأفرد لذلك باباً سماه «في الحركة قبل الطعام والرياضة للأجسام».

التفت بعد ذلك إلى الحلويات، وهي عادة يتم تناولها بعد الأكل، وأفرد لهذه الغاية عدة أبواب، فذكر أنواعها ومسمياتها وكيفية صنعها والمواد التي تتكون منها، والمقادير التي تستعمل في كل نوع، جاء ذلك في عدة أبواب منها «في عمل الفالوذجات المعقودات والملكات» و«في عمل الخبيص الرطب بالزبد والسمن والزيت العذب»، وغير ذلك من الأبواب، وإليك مثالا لعمل نوع من هذه الحلويات. ولتكن صفة خبيصة للمأمون: «يؤخذ رطل عسل فيجعل في طنجير وتوقد تحته وتنزع رغوته، ثم تأخذ وزن ثلثي درهم زعفران فيداف بقليل ماء ورد ويصب عليها وتحرك حتى تختلط بالعسل ويتلون، ثم يؤخذ رطل بالبغدادي لوز مقشر من قشرته فيدق دقاً ناعماً، ويخلط بسكر أبيض مدقوق منخول، ويرش عليه ماء ورد حتى يجتمع به ويصير في العسل بعد أن ينزل عن النار ثم يحرك حتى يختلط جيداً، ثم يجعل في جام زجاج ويبسط ويطرح عليه سكر مسحوق منخول ويقدم إن شاء الله».

يلاحظ قارئ هذا الكتاب أن أغلب هذه الأنواع من المأكولات كانت سائدة ومعروفة في العصر العباسي، فقد كان المؤلف يؤرخ لهذه الأنواع بذكر أول من صنعت له، فيقول مثلا في وصفه لنوع من أنواع المأكولات: صفة سكباج المسك للرشيد أو للأمين أو المأمون أو المعتصم أو غيرهم من خلفاء بني العباس.

ثم جاء دور الشراب، فأفرد لذلك عدة أبواب وأفاض في ذكر أنواع المشروبات، وبين أسمادها وكيفية صنعها وفوائدها للجسم، ناصحاً بألا يشرب الماء على الريق ولا على المائدة ولا بعد الأكل حتى تخف أعالي البطن. فإن خفت أعالي البطن استوفى الشخص شربه.

فصل بعد ذلك أنواع الأشربة مثل الأشربة المصنوعة من الألبان ومن عصير الأعناب، والأشربة العسلية والزبيبية، والأشربة المصنوعة من الفواكه الرطبة.

جاء بعد ذلك دور الغسيل وذلك في عدة أبواب منها «في طبع ما تغسل به اليد من الأشنان والسعد» وهي مواد منظفة للزفر وجاذبة للدهن والدسم من اليد وفيها منفعة للنمش - كما يصفها المؤلف - كما تحدث أيضاً عن تخليل الأسنان بعد الأكل وذلك في فصل «طبع الخلال وعمله من الصفصاف وعيدان الخلاف»، وحدد أنسب الأعواد لتخليل الأسنان وفائدة ذلك، كما تحدث عن آداب التخليل، وأورد كثيراً من الأشعار في هذا المجال.

واصل المؤلف اهتمامه بالنظافة وكان قد بدأ بها قبل أن يقدم وصفاته الغذائية، فقد اهتم بها في غسل الإناء (القدر) الذي يطبخ فيه وفي كيفية الغسيل - فبسط ذلك مع محدودية الوسائل المتاحة - ثم عرج على المطبوخ نفسه من لحوم وخضار فأصر على غسلها، وفي هذا الفصل «الأدب في غسل اليد قبل الطعام وبعده»وواصل اهتمامه بموضوع النظافة فافترض في الشخص المتناول للطعام «أن يكون نظيف الكف، نقي الظفر، متعاهداً لتقليمه والتخليل بين أصابعه، وغسل يده ومعصمه في أوقات صلاته ومطعمه».

تعرض بعد ذلك لآداب الطعام فقال بقلة الكلام والصمت على الموائد، وأن يأكل الإنسان من دون الشبع، وأن يصغر لقمته ولا يزدردها قبل أن يجيد مضغها، ولا يدفعها إلى فيه إلا بعد أن يزدرد الأولى، ولا يمص أصابعه، وغير ذلك من آداب تناول الطعام، وأورد في هذه الأبواب كثيراً من الأشعار والقصص.

وختم الكاتب بالباب الثاني والثلاثين بعد المئة وهو بعنوان «في النوم ومنفعته للأجسام وتدبيره بعد الطعام» فقال بالاستلقاء بعد تناول الطعام، وعدد ميزات ذلك وأن فيه راحة للأعضاء وسرعة للهضم ويقوي فم المعدة، على أن يستلقي الشخص على ظهره ولا يعلي الوسادة، ولا يطيل النوم.

ما تقدم - باختصار - هو ما احتوى عليه هذا الكتاب، الذي وردت فيه هذه الحقائق بصورة موسعة، ولم نجد بداً من إيرادها مختصرة، أو أن نشير إليها بإيجاز.

والكتاب كما ذكرنا في المقدمة مخطوطة محققة، ولم يزد المحققان على إيراد النص الأصلي كما ورد في المخطوطة من دون أي تعليقات أو شروح، وقد اعترفا بذلك في المقدمة بقولهما: «هذا ولم نرجع إلى دواوين الشعراء، وخصوصاً كشاجم، الواردة أشعارهم في المتن ولا إلى المظان الأدبية الحافلة بأخبار الشعراء والخلفاء والأمراء والتي نقل المتن بعضها، إلا فيما ندر على أمل العودة إلى ذلك في جزء تال سيعنى بتفسير الألفاظ وبالإحالات الأدبية»، ونأمل أن يكونا قد فعلا ما قالا، وقد حفل الكتاب بأخطاء نحوية ولغوية، وكان الأولى أن يشير إليها المحققان في مواضعها، لأن بعضها يسبب لبساً لدى القارئ.

الصراع من أجل الإيمان

جفري لانغ مراجعة: **نزار أباظة**

كثيرون أولئك الذين يدخلون الإسلام، نسمع بهم مع إشراقة كل شمس. تأتي أخبارهم المدهشة من كل بلد، من الصين شرقًا إلى أمريكا غربًا، ولكل منهم قصة طريفة تحكي إسلامه، أو حادثة غريبة تتحدث عن بزوغ نور الإيمان في قلبه.

ولكنّ قليلاً من ذاك الكثير يقف ليكتب تلك القصة أو يسجل هاتيك الحكاية. وإذا فعل أحدهم ذلك، فإنه يسرد ما عنده سريعًا، ويذوب في خضم المسلمين، وتنتهي كلماته وتتلاشى.

إما البروفيسور الأمريكي جفري لانغ، فقد توقف طويلاً عندما سألته ابنته: «لماذا اعتنقت الإسلام يا أبت؟!» فأجابها من خلال هذا الكتاب الذي عنونه بالإنجليزية STRUGGLING TO SURREN-DER لا ليقدم حادثة إسلامه فقط، بل ليحكي قصة طويلة مع الإيمان بالله عز وجل.

والبروفيسور لانغ أستاذ الرياضيات بجامعة سان فرانسيسكو، عالم مشهور مع صغر سنه، نشأ على التأمل وعلى السؤال. ولقد ذكّره سؤال ابنته بسؤال له مماثل، طرحه على والده منذ زمان طفولته، عندما قال له يومًا: «لماذا أنت كاثوليكي يا أبي؟». وخلع الشاب الصغير عن نفسه ثوب الإيمان بالخالق تمامًا عندما صار في المرحلة الثانوية، ووقف في وجه مدرّس الدين حين قدم لطلابه أدلة على وجود الله، لم يقتنع جفري بها.

واستاء والداه لما فاجأهما بإلحاده الصارخ، وبكت أمه، وصاح أبوه، ولم يثنه ذلك عن آرائه. وغمرته أحداث الحياة، وكبر اسمه بين الناس، وكبرت مجاهرته بإنكار الله، يغلفها بالعلوم التي يعتز بها وعلى رأسها الرياضيات بمعطياتها الرائعة القائمة على المنطق والبرهان والدليل والاستنتاج. وقد اطمأن إلى ذلك أول أمره، ومضى سادرًا بعدئذ لا يدري أن الأقدار كانت تهيئ له رحلة طويلة ذات محطات جديدة، لم يكن يتوقعها ألبتة.. وهو يكابر أكثر من عشرة أعوام من الإلحاد، كانت فيها نفسه تتخبط وتضطرب.

حلم ومصادفات

وفي خضم ذلك قام هاتف غريب داخل كيانه، أخذ يهتف بصوت الفطرة، بدأ ضعيفًا ثم راح يكبر ويكبر، حتى ظهر له على شكل حلم، أخذ يتكرر بذاته، أدهشه الحلم، واستولى على نفسه كلها، ووضعه في تساؤل مستفيض؛ ذلك أنه رأى نفسه في صف من الرجال، أمامه صف آخر، يتقدمهما رجل يرتدي عباءة وعلى رأسه كوفية بيضاء موشاة بالحمرة، يؤدون معه حركات الانحناء والسجود، في غرفة تحت نافذة يتسرب منها نور لطيف رائع.

وحين كان ذلك الحلم يتكرر إذا هو يلتقي أكثر من مرة فتاة مسلمة محجبة، لا يظهر منها سوى وجهها وكفيها، جاءت تستشيره لأجل دراساتها العليا، فأعجبه وقارها واتزانها، ورأى فيها ما غير فكرته المشوهة عن النساء العربيات. وكان وجهها يشع بالجمال والبراءة والقوة واللطف معًا.

ثم ألقت المصادفات في طريقه أسرة مسلمة سعودية متفتحة، كان أبناؤها يدرسون في سان فرانسيسكو، ربطته بهم صداقة أدت إلى زيارات متكررة ومباسطات، وأهدوا إليه نسخة مترجمة للقرآن الكريم، مع كتب عن الإسلام، وأدهشته الهدية.

وأخذ الرجل يطالع في ترجمة القرآن، وخرج بانطباعات عجيبة عنه، فقال فيه: «لا يمكنك قراءته ببساطة؛ فإما أن تكون تتوق قد استسلمت له أو أنك ستقاومه، وهو عندئذ يحمل عليك، وكأنّ له عندك حقوقًا على نحو مباشر وشخصي. وهو يجادلك وينتقدك ويخجلك ويتحداك.. ومن حيث الظاهر يرسم خطوط المعركة.. وبدا واضحًا أن مبدع هذا القرآن كان يعرفني أكثر مما كنت أعرف نفسي؛ فأي مؤلف يستطيع أن يكتب كتابًا مقدسًا يمكن له أن يتوقع حركاتك وسكناتك اليومية؟!.. لقد كان القرآن يسبقني دومًا في تفكيري ويزيل الحواجز التي كنت قد بنيتها منذ سنوات. يخاطب تساؤلاتي.. وفي كل ليلة كنت أضع أسئلتي واعتراضاتي، فكنت أكتشف الإجابة عنها في اليوم التالي إلى حد ما.. حتى يبدو لي أن هذا المبدع كان يقرأ أفكاري، ويكتب الأسطر المناسبة إلى حين موعد قراءتي القادمة.. لقد قابلت نفسي وجهًا لوجه في صفحات القرآن، وكنت خائفًا مما رأيت. كنت أشعر بالانقياد بحيث أشق طريقي إلى النهاية التي لا تضم سوى خيار واحد هو خيار الإيمان».



الصراع من أجل الإيمان

انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام

د. جفري لانغ GEFFERY LANG

ترجمة الدكتور منذر عبسي

دمشق: دار الفكر - بيروت: دار الفكر المعاصر،

ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

وفجأة وجد جفري نفسه أمام مسجد الطلاب المحلي في حديقة البوابة الذهبية قرب جامعة سان فرانسيسكو.. وباضطراب كبير دخل على نية الانسحاب، وهناك تعرف شبابًا عربًا، أخذ

يجاذبهم الحديث، حتى دخل عليهم إمامهم، بدا له «وكأنه موسى عائداً لتوه من جبل الطور»، فشده ذلك إلى البقاء، ودخل الرجل الإسلام على يقين.

الحلم يصبح حقيقة

ولما أدى مع إخوانه الجدد صلاته الأولى تحول الحلم الذي كان يراه، تحول إلى واقع، ورأى تفاصيل حلمه كاملة بأم عينيه.. وخشي أن يكون ما يحدث في الواقع حلمه الذي يعاوده.. «وأدركت أن الله كان قريباً مني دوماً، يوجه حياتي، ويخلق لي الظروف والفرص كي أختار. ومع ذلك كان يترك لي مجال الاختيار في المسائل الحاسمة.. وتملكني الخوف والرهبة عندما شعرت بالحب والعطف الظاهرين، لا لأننا نستحق ذلك، ولكن لأن هذا الحب والعطف كانا دوماً موجودين، وكل ما علينا عمله للحصول عليهما هو أن نعود إلى الله..».

وهذا الكتاب قصة تلك العودة.. أجل سمّاها المؤلف بذلك؛ وهي تسمية مناسبة حتى للمسلمين أنفسهم ممن نسوا الله تعالى وحق عليهم أن يعودوا إليه وشيكاً. وكأنه يردد الآية الكريمة: *ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق.* **الحديد**:١٦.

هل نستطيع أن نقول: إن قصة هذا الكتاب أتت نتيجة بحث عالم في الرياضيات لا يقنع إلا بالدليل المنطقي السليم أم نتيجة الفطرة السليمة؟

إن المؤلف يسمي كتابه هذا منذ البدء «تجربتي في الإسلام».. «وماذا يعني لي كوني أصبحت مسلماً» ويقول: «إنه أشبه برحلة شخصية.. وقيدت نفسي بمواضيع ذات أهمية عامة لمعتنقي الإسلام».

يقسم البروفسور لانغ كتابه خمسة فصول، يتحدث في الفصلين الأولين عن إحساساته تجاه إسلامه؛ الفصل الأول «قرار اعتناق الإسلام»، والفصل الثاني« أثر القرآن في اتخاذه ذلك القرار». وأما الفصول الثلاثة اللاحقة التي تتضمن الحديث عن «رسول الله صلى الله عليه وسلم»، «والأمة»، و«أهل الكتاب». فهي تشكل الجزء الأكبر من الكتاب، وهي في الحقيقة ملحقات تعالج الصعوبات التي واجهها لانغ بعد اعتناقه الإسلام، وتصور صراعه للانخراط في حياة الجالية المسلمة في أمريكا.

ولقد كان ما ذكرته آنفاً مجمل الفصل الأول، وهو يتحدث عن الخطوة الإيمانية التي شع قلب جفري بعدها بالإسلام.. وكانت الخطوات الأخرى بعدها حثيثة.. فكيف كانت تلك الخطوات؟!

توقف لانغ في الفصل الثاني عند القرآن الكريم، فوصفه من وجهة نظره، وتحدث عن آثاره في نفسه.. ووضع ملاحظاته الأولية.. مبيناً الفرق بين فهم المسلم الذي يقرؤه بالعربية وفهم أخيه الذي يقرؤه مترجماً في لغات أخرى. ومع هذا فإن الأهم من ذلك كله تلك الآثار التي يحدثها القرآن في نفس قارئه؛ منها أنه يتحدى عقله ويدعوه للنقاش؛ وذلك الذي يؤدي برأيه إلى ميل المسلمين عموماً للنقاش والجدال حول العقيدة. ومنها التصوير الفني الرائع الذي يثير المشاعر والأحاسيس كصورة نور الله والمشكاة، وصورة أعمال الذين كفروا المشبهة للسراب أو الظلمات. ومنها القصص الرمزي ذو الظلال المثيرة، ومنها تصوير غاية الحياة للمسلم، وهي غاية تؤدي به إلى الكمال والفضيلة والحكمة والعدالة والرحمة والعفو والحب. ومنها الانتهاء لتصور واضح للنفس الإنسانية المتوازنة، المتمثلة في ثلاثة مفاهيم، وهي الشيطان والنفس والملائكة، بخلاف ما جاء عند فرويد، وهذا الاتزان تدعمه العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج خلال رحلة حياة المرء المسلم.

امتحان عظيم

ويستطرد المؤلف هنا قائلاً: «إن المسلم الجديد في الغرب يواجه صدمة وشكوكاً، وتنبذه أسرته وأصدقاؤه بسبب الصورة السلبية التي يقدمها الإعلام عن الإسلام.. أما أنا فقد وجدت في الصلوات عوناً وراحة كبيرين».

ويركز جفري حديثه عن أثر العبادات فيقول: «إن التحول إلى الإسلام يخلق في نفس المسلم الجديد بهجة جميلة جداً، أشبه بشعلة ما تلبث أن تخف قليلاً، وعندئذ يجد هؤلاء المسلمون الجدد في العبادات امتحاناً عظيماً لهم ومقوياً كبيراً لإرادتهم.. وتكون بمثابة مقابلات روحية وعاطفية تدعم جهادهم اليومي المستمر». ويقول في الصلاة خاصة: «إنها إخلاص العبودية لله وحده، وتخليص النفس من عبودية العواطف كالسلطة والجشع والتقليد والكبرياء والثروة والشهوات.. وعبادة بعض الأسياد من البشر ....إن طمأنينة الإنسان وسعادته تكمن في توجيه قدراته نحو خدمة الله وألا يزيغ بصره عن الهدف».

ومن الآثار التي يقف عليها المؤلف في القرآن الكريم أنه يبدأ بإضعاف مقاومتنا حين يصير مرآة تظهر عيوبنا ونقاط ضعفنا وآلامنا وضياعنا وإمكاناتنا وإخفاقاتنا «وإذا أنعمت النظر داخل أعماقك فسوف تدرك أنك كنت تعرف دوماً أن لا إله إلا الله»، ولكن الحواجز هي التي تفصل الإيمان عن التسليم.

وبعد هذا نجد أن المؤلف يضع في هذا الفصل وصفاً دقيقاً للمعاني الكبرى التي نزل بها القرآن، وصور بعمق فهم المؤمن الواعي للقرآن الكريم.. وإن كان في الكتاب العظيم أشياء أخرى كثيرة.

وإذا كان كلام هذا المسلم الجديد واضحاً عن القرآن والإسلام، لا نجد فيه ما يريبه أو يريبنا، فإنه أخذ في الفصول الثلاثة الأخيرة يثير قضايا ويثير انطباعات عديدة لا يكاد المسلمون غير الجدد يوغلون فيها حول مكانة السنة النبوية، ومفهوم الأمة في الإسلام، وموقف المسلمين من أهل الكتاب.

وبعدما يصف النبي صلى الله عليه وسلم وينزله المكانة اللائقة، يشير إلى ملاحظات بعض المسلمين الجدد عنه وعن السنة الشريفة. فهو يرى أن صورته عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم تبدو غير صورته في السنة والحديث وخطب الجمعة، وإن لم يكن تنافر بين الصورتين؛ فبينما تركز الآيات على خصال معينة كالرحمة والكرم والعفو نرى السنة تقف عند كثير من المعجزات والمعارك الناجحة والروحانية العظيمة.

الحديث والسنة والسيرة

وإذ فرق لانغ بين الحديث والسنة والسيرة فقد تعرض لتاريخ الحديث الشريف والضرورة التاريخية التي أدت لجمعه، كحاجة القضاة إليه عندما أخذوا يبحثون عن سابقات نبوية واضحة أو قياسية لما يجد معهم، وكحاجة المفسرين كذلك.

ومع أنه يعطي صورة عن النبي صلى الله عليه وسلم مضيئة جدا، إلا أنه بالمقابل يعرض لأقوال المستشرقين فيه عليه الصلاة والسلام، ويورد بعض مطاعنهم. لكنه يدافع فيقول: إنهم ينتقمون منه صلى الله عليه وسلم، يحاسبونه عليها بالاستناد إلى المنظور الغربي. ولكن الذي ينظر إلى تلك المطاعن يجب أن يضع في حسبانه وجهة نظر البيئة التي كان فيها عليه الصلاة والسلام ومفهوم الناس آنذاك.

ويدافع المؤلف كذلك عن المحدثين الذين

اتهمهم المستشرقون بالضعف في نقد النصوص وقالوا عنهم: إنهم يهتمون بالسند فحسب. وهو بهذه المناسبة يقف ليعرض علينا المشكلات التي تعترض المؤمنين الجدد تجاه العقيدة وتجاه السنة، فبين نقاط ضعف هؤلاء وما يجد لديهم من متناقضات، ويلخص مواقفهم المتباينة من السنة ومن الأحاديث ذات الفحوى المثيرة التي تبدو لهم متناقضة غير منسجمة مع تعاليم الإسلام العامة أو مع المنطق.. ويستريبون بهذه الأحاديث كحديث (الغرانيق) مثلا..

وهذا كله يؤدي بهؤلاء المسلمين الجدد إلى تساؤلات حول السنة وحول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم.. ويفضي بهم إلى السؤال الكبير: «هل ينبغي أن نتخذه عليه الصلاة والسلام قدوة في جميع أمور الحياة؟ أم تكفينا أوصافه في القرآن الكريم بصرف النظر عن تفصيلات السنة؟» وربما نسي جفرى لانغ قول الله تعالى: *لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا*. **الأحزاب: ٢١.**

لكنه بالمقابل يعطينا وصفا لشخصيته عليه الصلاة والسلام تشكل لديه ولدى الداخلين الجدد في الإسلام فيقول: «إنه الشخصية التي تمثلت فيها الصفات النموذجية للقائد العربي الذي يبقى على علاقات طيبة مع الأصدقاء والجيران، ويساعد الفقير، ويقري الضيف، ويعين المحتاج، ويتحلى بصفات الأمانة والصبر والشجاعة.. كان ينطق بكلمات صلبة كالفولاذ، إنه ذو إرادة إذا ما صمم على شيء. ومع رحمته فإنه لم يكن يتوانى عن تطبيق العدالة (المرأة المخزومية)، وبالمقابل فإذا كان هناك أدنى مجال للشك في دفع العقوبة سلكه تمشيًا مع الرحمة (حديث ماعز). مع نزاهة تامة».

المرأة والأسرة

وتحدث لانغ في الفصل الرابع عن مفهوم الأمة في الإسلام، وأشار إلى أثر الأركان الخمسة في توحيدها واجتماعها على قلب واحد، وبحث إثر ذلك عددًا من المسائل، منها مسألة الفصل بين الجنسين على مدار التاريخ، وموقف المسلمين الجدد منها وخصوصًا المسلمات، ومسألة الأسرة التي أولاها الدين أهمية كبرى وبحث في الأثر الطيب للرابطة الأسرية.

ومن خلال حديثه عن المرأة أشار إلى الأفكار الجديدة التي يحملها المعتنقون، إنها أفكار راديكالية وغربية؛ فهم يتساءلون: «لماذا تمنع المرأة من المسجد وكانت تدخله في عصر صدر الإسلام». «لماذا ننظر إلى المرأة بخلاف ما ينظر القرآن إليها؟» «لماذا نجد المرأة في القرآن بواجباتها وحقوقها بخلاف ما نجدها في السنة؟». ويستأنف قائلاً: يجب أن نشجع المرأة لئلا نخسر أطفالنا، وأن ننزلها المكانة الصحيحة التي أرادها لها الدين، بصرف النظر عن التطورات التاريخية للمجتمع.

وتناول البروفيسور مشكلة عمل المرأة، فقال: إن المرأة العاملة منهكة، يعتمد عليها في البيت وخارجه، بينما ينحصر عملها الجوهري في تربية الأطفال.. والخطة الإلهية ترى أنها تكمل الرجل.. لا أن تكون وإياه الشيء نفسه.. لكل منهما حقوق ومسؤوليات.

المرأة العاملة منهكة، يعتمد عليها في البيت وخارجه، بينما ينحصر عملها الجوهري في تربية الأطفال

ومع هذا، فالمرأة مستقلة تمام الاستقلال كما جاء في القرآن، لها كامل الحرية في التمتع بميراثها وصداقها، بل تستطيع طلب الطلاق. ويقف عند مسألة شهادة المرأة في القضاء، قيادتها للمجتمع، ولباسها، وتعليمها. ويعطي انطباعاته حول ذلك.

ويتابع المؤلف حديثه عن المسائل المتعلقة بالأمة مما يهمه ويهم المسلمين الجدد، فيتناول عدد آخر من القضايا كالقانون، والدولة، والجهاد، والدولة الديمقراطية، والردة. ليعطي الصورة التي يراها عن الأمة. ويعلق على كل مسألة بأسئلة ذات نظر.

اليهود والنصارى في القرآن

وفي الفصل الأخير تناول موضوع أهل الكتاب متسائلاً: لماذا اهتم القرآن باليهود والنصارى أكثر من اهتمامه بالفرس المشركين؟ لماذا نبّه على أخطارهم أكثر مما تعرض للوثنيين؟! وعقب على ذلك بأن قادمات الأيام أثبتت أن مشكلة المسلمين كانت معهما، ولم تكن مع الفرس. وهذا من معجزات القرآن الكريم.

ويناقش نقطة الخلاف بين الإسلام والمسيحية واليهودية، ويرى أن الإسلام يتممهما ويصححهما بانفصال عنهما من دون تبعية، ويبيّن الفرق في الفكر الفلسفي بينه وبينهما.. وينحي باللائمة على العقائد اليهودية والنصرانية موافقًا القرآن الكريم، لأنها أعطت الكثير من السلطة لرجال دينها.

وينهي المؤلف كتابه ببحث المشكلة الإسرائيلية الفلسطينية متحدثًا عن وضع اليهود التاريخي في أوربا وعند المسلمين، ويتناول تاريخ فلسطين، مدافعًا عن حق العرب ببلادهم، رادًا على الافتراءات الصهيونية.

هذا مجمل ما جاء في هذا الكتاب الذي ينطوي على كثير من الجزئيات التي ينبغي للمهتمين بمثل هذا الموضوع أن يقفوا عندها.. ويمكن أن نسجل عنه في النهاية الانطباعات التالية:

- إنه بالدرجة الأولى يعطي تصور المسلم الجديد الواسع للإسلام. وهو تصور صحيح غالبًا، وفيه نقاط غائمة من بعض أطرافه بسبب معطيات الحضارة الحديثة، واختلاف الحياة بين الشرق والغرب، وبسبب تأخر المسلمين الحالي وعدم فهمهم الصحيح لروح الإسلام مما يؤثر في الغربيين عمومًا والداخلين الجدد فيه خصوصًا.
- موقفه من السنة النبوية موقف فيه اضطراب يحتاج إلى درس أكثر وتعمق أشد.
- يصور معاناة المسلمين الجدد، وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الدعاة المسلمون، ليضعوا أيديهم على ما يعانيه هؤلاء لمعالجة الأسباب القائمة في محاولة منهم للقضاء عليها.. وألا ينفروا المؤمنين الغربيين، وأن يكونوا على المستوى المطلوب.
- أسلوب المؤلف شائق جذاب يستولي على القارئ ويستحوذ عليه وهو يسرد أحيانًا في شكل قصصي ناجح.

وأخيرًا، فقد أثار هذا الكتاب الذي طبع منه بالأصل الإنجليزي ٥٠٠ ألف نسخة وطبعته دار الفكر - دمشق طبعة جذابة.. أثار في نفسي أهمية النقاش، ودفعني إلى أن أقوي اعتزازي بالإسلام، وأن أثق بما عندي من الإسلام، ونبهني إلى أن لدي أشياء كثيرة عظيمة يجب أن أشكر الله عليها، لم أكن أنتبه لها بهذه الدرجة من الوضوح الذي أشار إليه المؤلف بفهمه العام لهذا الدين العظيم.

مع الأستاذ عبدالله بن شايع

بين طويلع ووبرة (ثبرة)*

حمد الجاسر

أُسَرُّ كثيراً حين أرى أحد المثقفين من أبناء البلاد، يتجه إلى دراسة جغرافية بلاده، ويتحلَّى بما ينبغي أن يتحلَّى به الباحث المتجرد من كل غاية، سوى الوصول إلى الحقيقة.

ومن هنا فقد سررت حينما قدم لي الأخ الأستاذ عبدالله بن شايع نسخة من أول كتاب من مؤلفاته، فكتبت له كتاب شكر أثنيت فيه على اتجاهه، وما رأيته في عمله من توخي الدقة، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة بزيارة المواضع، ومحاولة تطبيق وصف المتقدمين فيها على المشاهدة، وهذا أمر لا يتسنى إلا لمثله ممن يتمتع بصحة وشباب ورغبة قوية، وقد وقفت كثيراً عند تصدِّيه لبعض المواضع القديمة فيما رأيته خالف فيه غيره ممن سبقه فرأيت لآرائه وجهاً من الصحة، تمنيت أنني كنت اطلعت عليه قبل تحدثي عن تلك المواضع، واستشهادي ببعض من كتب عنها كالأستاذ سعد بن جُنَيْدِل وغيره، ومنها ما يتعلق بتحديد المعادن الذي عولت فيه كثيراً على كلام الأستاذ سعد، فرأيت في كتاب الأستاذ ابن شايع ما أثر في ذهني تأثيراً تمنيت أنني اطلعت عليه قبل نشر ما علقت به على كتاب «الجوهرتين في التعدين» حين نقلت كلام الأستاذ سعد بن جنيدل، أو أبديت رأيي حيال شيء من المعادن، ذلك أنني رأيته طبق الأوصاف على مشاهدته فيما ظهر لي.

ومن ذلك ما ذكره عن «إمَّرَة»(١) وأنه يرى اسم جبل «متالع» طغى على اسم هذا المنهل، فصارت توصف «إمرة» بأنها جبل، ويطلق الوصف على جبل «متالع» ومثل هذا يحدث حين يكون الجبل قريباً من المنهل، فيقال جبل «إمَّرة» أو جبل «سَجَا» فيُنْسى الوصف الأول للمنهل، ويُظَنُّ أن المقصود به الجبل، مع أن المراد قربه من المنهل، ولقد وقفت كثيراً عند رأي الأخ ابن شايع حول «إمَّرَة» واستصوبته.

والإنسان الذي لا يقصد فيما يكتب إلا الوصول إلى حقائق الأشياء متجرداً من كل غاية وعاطفة يُسَرُّ حقًا حين يرشد إلى خطأ وقع منه أو إلى صواب اهتدى إليه غيره.

وما أعظم سروري حين أوضح لي أخي الأستاذ الدكتور عبدالله بن ناصر الوهيبي، أنه يرى أن الكتاب الذي طبعته باسم «المناسك» منسوباً للحربي، وإن كنت أبديت الشك في المقدمة، هل هو له، أو لتلميذه القاضي وَكِيع خلف بن حيَّان، ولكن الدكتور أبا ناصر - وفقه الله - أقنعني بصحة رأيه، وأنه للثاني، فكان أن أعدتُ طباعة الكتاب، بعد أن جردته من ترجمة الحربي، وتكلفت ما تكلفت في سبيل نشره، وما ذلك إلا للحفاظ على الأمانة العلمية، وتوخي الحقيقة.

حقًا إنه يعجبني من الأخ ابن شايع تتبعه للمواضع، وحرصه على الوصول إلى ما يقنع في تحديدها، ولكنني آخذ عليه أموراً، منها:

- تَسرُّعُه في الحكم بأن هذا الموضع هو المذكور في النصوص، تسرُّعاً ليس من صفات الراغبين في الإفادة والتوجيه، فالمتقدمون من العلماء -

رحمهم الله - كانوا يقولون هذا رأيي ومن أتى برأيٍ أصوب منه قبلته، أو رحم الله من أرشدني إلى خطئي، أو:

إن تَجِد عيبًا فسُدَّ الخللا

فجلَّ من لا فيه عيبٌ وعلا

والمعصوم من عصمه الله، والله سبحانه وتعالى وصف كتابه المحكم بقوله: *وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا*. النساء: ٨٢. وقال الإمام مالك بن أنس: «ما من أحد يؤخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر»، مشيراً إلى قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم.

فالاعتداد بالرأي ليس من صفات المتوخين للتوجيه والإرشاد والبحث عن الحقائق.

- وآخذ على الأخ ابن شايع أنه يعمد إلى النصوص التي أوردها من تقدَّمه متحدثًا عن تحديد الوضع، فيأتي بها كأنه هو الذي بحث عن مصادرها فاهتدى إليها، وكان الأولى أن يقول: إنَّ فلاناً استدل على تحديد هذا الموضع بكذا وكذا، ويورد أدلته، ثم يذكر استنتاجه، فالأخ ابن شايع لا يخالف إلا في الاستنتاج، فيذكر خلافه فيه.

- والأخ ابن شايع ليس عالم آثار، ومع ذلك حشا مؤلفاته بأشياء منها يقول إنها علامات الطريق التي وصفها المتقدمون على الطرق الرئيسة، لبيان الأميال، أو الفراسخ وغيرها، وهو ليس عالم آثار يستطيع أن يميز هذا الرِّجام والحصى المركوم بعضه فوق بعض، وما أكثر هذا مما يحدث من آثار مكث أهل البادية في المكان، وقلَّ مكان لم يقيموا فيه أو يضعوا فيه (رجوماً)!!

أما ما وضعه المتقدمون مع قلة الباقي منه فلا يزال باقياً، وخاصة في طريق زبيدة في عالية نجد، فيما بين ماوان والربذة، وفيما بين الربذة والنقرة.

- وأعجب من ذلك أن الأستاذ ابن شايع يجزم بمجرد أن يرى أثراً له صلة في موضوع يدرسه بأن هذا الأثر هو من مخلفات ذلك الساكن، وإن كان مُتقدم العصر، كرأيه فيما سماه «قصر يحيى بن طالب الحنفي» الذي عاش في آخر القرن الثاني، كما فعل بالنسبة إلى قصر «الثرماني» على مقربة من «العويند» المبني بالطين، وكل من شاهده يدرك أنه ليس قديماً ولكنه جزم بأنه قصر يحيى ومواضع أخرى من هذا القبيل، لاداعي للتوسع في ذكرها.

طويلع في صورة التقطها الشايع

- الأخ ابن شايع - وفقه الله - يظهر عمله بالمظهر الشاق الصعب، وأنه تكلّف أعمالاً شاقة مع أن عمله لا يعدو رحلته من مكان معروف لآخر مثله، في داخل البلاد، ليس في مجاهل إفريقية أو غيرها، ومثل هذا لا يليق بغير مكتشفي المجهول، بل يعد من باب التزيد والتنفج، فمن ذلك أنه لما تحدث عن رحلته لتحقيق موضع «طويلع» ذكر أنه قام بأربع رحلات شاقة، ووصف مشقتها وحيرته في سلوك الطريق، ولكن تلك الحيرة لم تجعل لليأس إلى نفسه سبيلاً، إنَّ الأمر أيسر من هذا، فالسفر إلى «الصَّمَّان» والتوغل فيه يعد من وسائل النزهة، وكثير من سكان مدينة الرياض يمضون فترات طويلة في التجول في تلك الصحراء بعد أن يجودها الغيث فتصبح رياضها تسر وتبهج.

وما رأي الأستاذ أن شاباً يعد من أبنائه قام بعشرات الرحلات إلى «الصَّمَّان» من قبيل الهواية والرغبة في التجول، ثم قام بدراسة المنطقة كلها، فقسمها إلى ٤٨ مربعاً - يعني جزءاً من المنطقة - أكمل دراسة نصفها فيما اطلعت عليه من كتاب يزمع نشره، وبقي النصف تحت الدراسة، ورسم لكل مربع مصوراً جغرافياً حدد فيه أبرز معالمه التي تناولها بالبحث والدراسة والوصف، والتحديد الدقيق، كمواطن العمران، والرياض، والجبال، والخباري، والدحول(٢)، والمواقع الأثرية، وعَرَّفها تعريفاً لم يثقله بإيراد جميع النصوص المتعلقة به، ولكنه يُعنى بإبراز أهم مظاهره، وتحديد موقعه، باستعمال مقياس خطوط الطول والعرض، وببيان المسافات بينه وبما يقربه من أمكنة مشهورة، أو طُرقٍ مسلوكة محددة بـ «الكيل»(٣) مع رسم الموضع في المربع الذي يقع فيه حسب تقسيمه بذكر اسمه، بحيث تناولت دراسته فيما عرض عليَّ من كتابه نحو (٣٣٩) موضعاً: منها من مواطن الاستقرار: القرى ٢١، ومن الرياض ٤٦، ومن الدحال ١٨، ومن الخبارى ٤٠، ومن المواقع الأثرية ١٦.

وكل هذه المواضع عرفها تعريفًا موجزاً، وحدد مواقعها تحديداً دقيقاً، بحيث إن كل من يستعمل آلة تسجيل

خطوط الطول والعرض المعروفة حديثًا باسم G.P.S يتمكن من الاهتداء إليها بسهولة ويسر، كما حدد المسافات بين الموضع والأمكنة المعروفة بقربه، وبينه وبين أحد الطرق الرئيسة التي تجتاز صحراء الصَّمَّان إلى البلاد الواقعة غربها وشرقها.

وكأن هذا الشاب مع ما قام به من عمل يزداد رغبة في التجول في مناطق أخرى، ولم يبد أي تأثير، بل أظهر لي حرصه الشديد على مواصلة رحلاته في مناطق أخرى من البلاد.

آخذ على الأخ ابن شايع أنه يعمد إلى النصوص التي أوردها من تقدَّمَهُ متحدثًا عن تحديد الموضع، فيأتي بها كأنه هو الذي بحث عن مصادرها فاهتدى إليها

ومن الأمور التي آخذها على الأستاذ ابن شايع وهو يدرك من دون شك أن الباحث في تحقيق المواضع يجب أن يكون ذا معرفة بضبط أسمائها في كتب المتقدمين الموثوق بها، ولكنني أراه في بعض كتاباته ومنها هذه المقالة التي بين يدي رأيته - وفقه الله - يسمي المواضع بأسمائها العاميَّة، فاسم «الصَّمَّان» الذي يتفق المتقدمون على أنه بفتح الصاد يورده بضمها «الصُّمان» مجاراة للعامة، وهذا يراد به جمع أصم - الذي لا يسمع -. و«مَعْقُلَة» التي ضبطها المتقدمون بفتح أوله وسكون ثانيه وضم القاف والقياس كسرها، ولكن الأخ يكتبها «معقلاء» مجاراة للعامة وأسماء أخرى لاداعي لذكرها، و«النُّبَكُ» بفتح الباء جمع نَبَكَة، يوردها في سياقه للرجز بإسكان الباء (طُوَيْلِعٌ ذُو النَّبْكِ المُحَمَّرِ» ولم يلاحظ خللاً في قراءة الرجز بإسكان النون.

أما الاستهانة بالإخوة الذين مهدوا له الطرق بمؤلفاتهم، بما قربوا فيها من نصوص، وأوضحوا من آراء، فموقفه - غالبًا - موقف التجريح والنقد، غلط فلان، ووهم فلان، ... محمد بن بليهد، وسعد بن جنيدل، وعبدالله بن خميس، وحمد الجاسر وغيرهم، ومن دون جد هؤلاء وغيرهم واجتهادهم لم يكن يستطيع الخوض في تلك الموضوعات، إنهم جديرون أن يشكروا على مابذلوه من جهد، فيقبل منهم ما أصابوا فيه، وتوضح أخطاؤُهم من دون إزراء بأقدارهم.

لقد قرر الأخ عبدالله أن العلماء المتقدمين من الذين قصدوا تحديد المناهل والأمكنة في الجزيرة، وأن من الشعراء من وصفوا ما يقع في طريق حجر قاعدة اليمامة وبين البصرة منها وذكروه بأوصاف محددة منها:

- أن «طويلع» هو المنصف بين المدينتين، يقع في «الصمان» بينه وبين «الدو».

- وأنه قرية ذات بئار كثيرة، وشجر، وفيه حصن يقع في جوف - أو جو -.

- وأنه ذو نَبَك حمر، والنَّبَكُ جمع نَبكة وهي كما في «لسان العرب»: «والنَّبَكَةُ أكمةٌ محددة الرأس، وربما كانت حمراء، ولا تخلو من الحجارة»، ونقل عن الأزهري قوله، وهو ممن زار تلك المواضع: «والذي سمعته من العرب في النَّبكة وشاهدتهم يومئون إليها: كل رابية من روابي الرمال كانت مسلكة الرأس ومحددته» انتهى.

ومثل هذه النبكات قد تسمى قورًا واحدتها «قارة» وتتخذ أجحرتها فيها، ولعل الموضع سمي بذلك إذ هي في الغالب تقع بقرب مناهل الأنعام التي قد ينفق بعضها، أو تنفرد به فتفترسه.

- وأن المسافر بعد اجتيازه يصل وادي الشَّيِّطَيْن - واحدهما شَيِّطٌ - بفتح الشين المعجمة وكسر المثناة التحتية مشددة، بعدها طاء مهملة واحدهما يقع شرقه والثاني شماله بقربه، وُصِفا بأنهما مرعى لأهل طويلع.

- وأن بينه وبين «الوريعة» ليلة، فهو قبلها، وأن «اللهابة» قربه، إلى آخر الأوصاف التي ذكرها العلماء في النصوص التي أوردتها جميعها قبله، قبل أكثر من عشرين عامًا في كتابي، فنقلها كلها نقل المسْطرة، كما يقول المتقدمون، ولم يزد عليها نصًا واحدًا، وأراد - أكرمه الله - بأن يجبر بخاطري قائلاً: إن شيخنا اعتصر المراجع القديمة حتى أفرزت له كل ما قيل عن طويلع من شعر أو نثر، بعد قوله عني: اقترب من ماء طويلع حتى كاد يشرف عليه، ولكن حالت دونه أكمات غُبْر فظن طويلعًا آبار «الضبعيات» لا بأس: «يدٌ تشجُّ وأخرى منك تأسوني» فالعبرة - كما يقول - بالنتائج وهو لا يوافق على رأيي فيما توصلت إليه، وهذا أمر محمود إذا كان له ما يسوغه، فما هو رأي الأخ الكريم في ذلك؟ لا داعي للتفصيل، بل الاكتفاء بالخلاصة، كما اتضحت للقراء مما كتب في الموضوع.

- لم يرَ آبار (الضبعيات) طويلة الرشاء، كما في وصف طويلع عند أحد المتقدمين، بل رآها قريبة الماء، ومع أنه لاحظ أن الماء لا يثبت على حالة واحدة، إلا أنه نسي شيئًا نقله عما نقلته من «معجم البلدان» من قول الأزهري عن مشاهدة، فقد تجول في «الصمَّان» لما أسرته «القرامطة» سنة ٣١٧ - قال: هو ركية عادية بالشواجن عذبة الماء قريبة الرشاء.

- حاول أن يطبق النصوص على آبار وبرة «شبرة» فقال: والواقع أن المكان الذي يمكن أن يتحرى فيه أي باحث عن «طويلع» هو هذا الحيز الذي تقع فيه آبار «وبرة» وآبار «الضبعيات»: إلا أنه استدرك نافيًا بعد زيارته لآبار «الضبعيات»: فلم يقتنع بذلك. وعلل هذا بأن آبار «الضبعيات» منزوية في منخفض من الوادي محصورة بين مرتفعات جبلية،

يا أخانا: ألم تنقل عن المتقدمين: وقوع «طويلع» في جوف أو جو؟! وهل هما غير الأرض المنخفضة؟! وهل الأوصاف تكون من الدقة بحيث تنطبق على ما يُدرك ويُرى كاملاً؟!

وهل تسميتهم لجبلي «أبانين» الأبيض والأسود، منطبقة على اسميهما تمام الانطباق من حيث البياض والسواد؟! لا: ولهذا يعرفان عند العامة الآن باسم «أبان الأحمر» للأول، و«أبان الأسود» للثاني.

ولاحظ أن أرض الآبار لونها أبيض، وهو يريدها حمراء كالنَّبَك الْمُحْمَر، دع ما يحدث للون أرض المكان بتوالي المؤثرات من الرياح والأمطار، فهل كانت أوصاف المتقدمين للمواضع من الدقة بحيث يكون تطبيقها كحَذْوِ القُذَّة بالقُذَّة؟! لا، إنها في أغلبها وجملتها تقريبية حسبما يظهر للواصف منها، وقد يختلف الوصف، فهو في الغالب من قبيل التقريب، وكل واحد يُقَرِّبه كما يرى من بعد أو مشاهدة أو سماع.

كما لاحظ عدم عثوره على أي أثر - كذا - يدل على مساكن، وخاصة الحصن!! من هنا وقع الأستاذ فيما وقع به من خطأ في عدم قناعته بصحة الموقع كما حددته، لقد توهم - وفقه الله - أنه سيشاهد فيه حصنًا مبنيًا بالحجارة مما توقع بقاءه خلال تلك الحقبة الطويلة من الزمن، ووصفه بقوله: «ومثله ليس من السهولة فَقْدُ أيِّ أثر له».

لقد تخيل - وفقه الله - أن هذا الحصن كما عهِدَ وشاهد من الحصون والقلاع القوية، ولم يفكر قبل ذلك بطبيعة المكان الذي يتحدث عنه، وأنه أحد المناهل المشتركة بين القبائل الواقعة في طريق عام، يُسْلك في زمنٍ محدد من العام، فيقصده بعض التِّجار الذين لهم صلة بمن يحميهم من إحدى القبائل من الأعداء الأقوياء، أما الضعفاء من المتلصصة فهم يحمون أنفسهم بما يتحصنون به، ويحفظون أموالهم داخله، كما يفهم من نص العبارة الواردة في كلام صاحب كتاب «بلاد العرب» بعد أن ذكر أسماء القبائل المشاركة في آباره: قال: «وفيه تجار، وهو قرية وقباب مبنية، وفيه أثل ونخلات وحصن، وربما تحصنوا فيه من اللصوص».

والغريب أن الأستاذ عبدالله، وقد عاش في عالية نجد، حيث مستقر القبائل، وعرف الكثير من عاداتها، وأن المرء قد يتحصن من عدوه بأحجار يركم بعضها فوق بعض، فيتقي الأذى، أو بحجر كبير، أو بأنف جبل، أو غار.

إن الأستاذ عبدالله يدرك أنه ليس عالمَ آثار، لكي يبني استنتاجاته في تحديد المواضع على حد علمه منها بما ظهر له، كما شحن مؤلفاته بوصفه وتصويره، وتعريفه تعريفًا متكلَّفًا، وكل من ألِفَ السير في صحاري الجزيرة لا يعدمَ أن يشاهد في كل بقعة أثرًا مما خلفه السائر قبله، أو الساكن من آثار

ابن شايع ليس عالم آثار، ومع ذلك حشا مؤلفاته بأشياء منها يقول بأنها علامات الطريق التي وصفها المتقدمون على الطرق الرئيسة، لبيان الأميال، أو الفراسخ وغيرها

النزول من الأحجار المجتمعة، كالرجام وغيرها، لا صلة لها بآثار المتقدمين. أما الأستاذ عبدالله فيصفها ظانًا أنها أعلام الطريق، أو آثار عمران قديم، كالمنجم المستعمل في العهد الجاهلي، أو القصر القائم المبني بناءً ضعيفًا، يحكم جازمًا بأنه القصر الفلاني، استطاع مغالبة القرون صامدًا، وقد يكون من بين المعاصرين من ينسب عمرانه إلى أحد أجداده القريبي العهد، أو مظهره يدل على هذا.

لا داعي للسير مع الأستاذ عبدالله في استطراداته وتشعب مباحثه عن مناهل الصَّمَّان، التي أُشْبِعت بحثًا ودراسة وتحديدًا، فليكن الاتجاه لما

وصل إليه من نتيجة.

إنهـا كـمـا يتـضـح لمن تعـمق في دراسـة ما نشـر عن «طويلع» تتلخص في أمرين:

١ـ الأول اطِّراحُ كل مـا استنتـجتـه من الشـواهد والنصـوص من أقـوال المتـقـدمين في تحـديد الموضع، لعـدم قناعته بها، سوى الحصْن والبئر العذبة الماء، المشرفة المثابة.

٢ـ تطبيق جـمـيـع تلك النصـوص على منهل آخـر، مـعـروف قـديمـًا باسم «ثبـرة» وحـديثـًا باسـم «وبرة» ومع تقارب الموضـعين بحـيث لا تتـجـاوز المسافة بينهما بضعة أميال «يقع أولهما بقـــرب خـط الطـول: ٤٧/٢١ْ وخط العـــرض ٢٧/٢٩ْ»، ويـقع الـثـــاني «وبرة» بقـرب «خط الطول: ٤٧/٢٢ْ وخط العـرض: ٢٧/٢٧ْ» إلا أن للأول من الأوصاف ما ليس للثاني.

لقد اهتدى لضالته المنشودة، لا بتلك النصوص الواردَة عن العلمـاء وحدها، بل بواسطـة رحـالة غـربـي هو «بلي» الذي زار الإمـام فيـصـلاً ـ رحمـه الله ـ سنة ١٢٨٢هـ عند «القلعة» وبإرشـاد علي بن عليان المطيري إلى بئـر قريبـة من «القلعـة» بقـربهـمـا نبَك أحـمـر هو الوارد في النصوص!.

لقـد ذكـرت عند قـراءة اسـتـدلال البـاحـث الكريم، مما نسب إلى الرجلين وصـف الحـافظ الذهبي لأحـد المحـدثين بقوله: «هو ثقة نبيل، يروي مناكير عن مجاهيل».

إن الأستاذ عبدالله يجهل اللغة التي دون بهـا «بلي» رحلتـه، وإنما اعـتـمـد على نـقلهـا إلى العـربيـة الذي أورده بنصـه، فقبِل بعضه وتـرك باقيه، قَـبِلَ منه: «وعـلى ربوة آثار قلعـة جـبليـَة صغيرة «يقـال» إنها موغلة في القدم»، ولم يعِرْ أيَّة أهمـية لباقـيه: «على الرغم أن موقعها قد يكون قديمـًا إلا أن أطلالها الحاليـة لا ترجع قدمـًا إلى مئـات كثيرة من السنين»٤) فـهل الكلمـة الواردة في الأصل الإنجليزي لا تعبر إلاّ عما سمي بالعـربيـة «قلعـة» وأصلهـا كمـا ورد في «لسان العرب»: القلعة صخرة عظيمة تنقلع مـن الجـبل صـعـبـة المرتقى. قـال الأزهري: تهـال إذا رأيتـهـا ذاهبـة في السمـاء، وربما كانت كالمسجـد الجامع، ومـثل الدار، ومـثل البـيت، صـعـبـة لا ترتقـى، والقلعـة الحـصـن المـتـنـع في جبل، إلى آخر الوصف.

إن كـــثـــيـــراً ممن يعـــربون كـــلام الغـربيين يتفـاوت إدراكـهم ومعـرفتـهم للغة العربية، ولهذا فعلى الباحث المحقق أن يقف موقف المحتاط، ولن آتي بشاهد أكـثر من إيراد نص تـعريب آخـر لكلام بلي(٥) هو: «وعـلى اليـمين من الآبار هناك قلعة قديمة، ويقال إنها قديمة جداً، ولكن كـشـفت لي اللُّقَى الأثرية فـيـهـا بأنها، مع قدمها، فـقد استخدمت للسكن إلى فتـرة زمنية قريبة ربما أقل من مـئة عـــام». هذا الاخـــتــلاف الـواضح بين التـعـريبين يحـمل على عـدم الاعـتـمـاد أصـــــلاً إلا علـى كــــلام المؤلـف، مع ملاحظة أن الغربيين كثـيراً ما يظهرون ما يشاهدونه بمظهر الغرابة.

ولن أتحدث فـي هذه المقالة عـمـا في تحـديد المواضع القـديمة المنسـوبة إلى (الأعـراب) من العُـجَـر والبُـجَـر، وأعـتـرف ـ حـقـًا ـ بأنني لا أسـتـطيع مـجـاراة الأخ الكريم إلى حـيث وقف به السيـر، فهـو ـ منحـه الله قـوة وتوفـيقـًا وتسديداً ـ لديه من وسائل القوة والاتجاه إلى العـمل، والشـبـاب مـا يحـفزه إلى التطلع لمسـتقبل حـياته مملوءاً بالآمال الرحبة بثبـات وإقدام وقوة عزيمة، وأنَّى لمثلي وقد تجاوزت عمـر أبيه، فأصبحت أعجـز عن حمل العـصا، وكـيف لي أن أجاريه؟

ولكنـني أقـولهـا كـلمـة حـق: كنت أتمنى أن أجد فيما قدم وعرض في بحثه هذا مـا أقـف عنده مـوقف المسـتـفـيد فأعياني هذا.

لقد صـرف نصوص المتـقدمين عن «طويلع» وطبـقهـا على الوبرة «ثبـرة» وهمـا موضـعـان متـغايـران، معـروفان لدى البـاحـثين قـديمـًا وحـديثـًا، فـأهمل الأول وتناسـاه، ولعل في هذا ما يحـمله على تذكـره، ليـحدد له موضعـًا، وليعود إلى نصوص المتـقدمين عن «ثبرة» فـقد لا يسـتـعـصـي عليـه عند مـراجـعـة النصـوص الواردة فـيه عن المتـقـدمين، ومنها ما أوردته في تحـديده، وقد يتضح لي رأي آخـر فـي تحـديـد الموضـعين، والرجوع إلى الحق فضيلة، وهو ممن لا يريد بعـمله إلا تـوخي الخـيـر والله جل وعلا يتولى الجميع بعونه وتوفيقه.

الهوامش والمراجع

* هذا رد على مقالة الأستاذ عبدالله بن محمد الشايع المنشورة في العدد ٢٧٥ تحت عنوان «طويلع ذو النبك الأحمر».

١ـ «بين اليمامة وحجر اليمامة»، ص ٢٦٠/٢٦١.

٢ـ جمع دحل وهي كما وصفها الأزهري «خلائق خلقها الله تعالى تحت الأرض، يذهب الدحل منها سكاً في الأرض قامة ثم يتلجف يميناً وشمالاً، فمرة يضيق ومرة يتسع، في صفاة ملساء، ودخلت في دحل منها، فلما انتهيت إلى الماء اذا جو من الماء لم أقف على سعته وكثرته لإظلام الدحل تحت الأرض، فاستقيت مع أصحابي منه ماء عذبًا صافيًا زلالا، لأنه ماء السماء، مسال إليه من فوق، واجتمع فيه» انتهى.

٣ـ الكيل: تعريب لكلمة «كيلومتر» أي ألف متر. فكما عرب الأقدمون من العرب كلمة «مايل» بـ «ميل» فقد رأى العلماء الغيَر على لغة القرآن الكريم تعريف تلك الكلمة بـ «كيل» بكسر الكاف، ولعل من أوائل من استعمل هذا من اللغويين الدكتور عبدالوهاب عزام من أعضاء «مجمع اللغة العربية» في «رحلته إلى مكة» ثم الأستاذ الشيخ أحمد رضا ـ اللغوي المعروف ـ في كتابه «متن اللغة» في مقدمته فذكر أن الكيْل بكسر الكاف لقياس المسافات، و«الكيْل» بفتحها للمكيلات والموزونات، بدل «كيلو غرام».

٤ـ تعريب الدكتور عبدالرحمن بن عبدالله الشيخ وعويضة بن متيريك الجهني.

٥ـ تعريف الدكتور عيسى أمين، منشورات مؤسسة الأيام، المنامة ـ البحرين، ص٤١.

الملف الثقافي

وفاة سمو الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب

وفاة الشاعرين البياتي والبردوني

العثور على مخطوطات باخ الموسيقية ورسائل جوته في أوكرانيا

الهيروغليفية في المتحف البريطاني

أحدث الإصدارات والدوريات



خاتمة المطاف: أدوية من تحت الأمواج

وفاة سمو الأمير فيصل ابن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب


سمو الأمير فيصل بن فهد

توفي في الرياض في يوم ١٠ جمادى الأولى الماضي صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب، ورئيس الاتحاد العربي للألعاب الرياضية، ورئيس الاتحاد العربي لكرة القدم، ورئيس الاتحاد السعودي لكرة القدم عن عمر يناهز ٥٤ عامًا.

وكان الفقيد - رحمه الله - قد افتتح قبل أسبوع من وفاته الدورة العربية التاسعة «دورة الحسين» في العاصمة الأردنية «عمان».

ولد الفقيد - يرحمه الله - في عام ١٩٤٦م، وتلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في معهد العاصمة النموذجي في الرياض، ثم ابتعث إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث التحق بجامعة كاليفورنيا في مدينة سانتا باربارا، ونال منها درجة البكالوريوس في العلوم السياسية والاقتصادية في عام ١٩٧١م، وعقب تخرجه أصبح مديراً عامًا لرعاية الشباب في عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م وكانت تتبع وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، ثم استقل جهاز رعاية الشباب تحت مسمى «الرئاسة العامة لرعاية الشباب» في عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، كما تولى سموه رئاسة الاتحاد السعودي لكرة القدم في الفترة نفسها، وأصبح رئيسًا للاتحاد العربي للألعاب الرياضية، والاتحاد العربي لكرة القدم منذ عام ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، وكان عضواً في اللجنة الأولمبية الدولية منذ عام ١٩٨٤م.

وشهدت فترة توليه الرئاسة العامة لرعاية الشباب إنجازات رياضية سعودية على مختلف المستويات المحلية والعربية والقارية والدولية، وفي مختلف الألعاب، كما تطورت المنشآت الرياضية تطوراً ملحوظًا، ومن أبرزها استاد الملك فهد في الرياض الذي جاء فريداً في تصميمه المعماري، وجامعًا بين الأصالة والمعاصرة، ويتسع لأكثر من ٨٠ ألف متفرج، كما شيدت خمسة ملاعب رياضية في كبريات المدن السعودية، وارتفع عدد الأندية إلى ١٣٥ ناديًا رياضيًا، وتسعة مراكز رياضية، ويوجد حاليًا ١٣ اتحاداً سعوديًا في مختلف الألعاب الرياضية.

وانطلق في عهده أول دوري ممتاز لكرة القدم في عام ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ثم تبعه دوري الشباب تحت ١٩سنة، ثم دوري الناشئين، وتنوعت مسابقات كرة القدم حتى أصبحت هناك ثلاث مسابقات محلية رئيسة.

ومن الإنجازات، خلال توليه رئاسة الاتحاد السعودي لكرة القدم، حصول المنتخب الوطني الأول على كأس الأمم الآسيوية في عامي ١٩٨٤م و١٩٨٨م، ووصوله إلى نهائيات كأس العالم في عامي ١٩٩٤م و١٩٩٨م، وتأهله للأولمبياد بلوس أنجلوس في عام ١٩٨٤م، وفي أطلانطا في عام ١٩٩٦م، إلى جانب حصول منتخب الشباب على كأس العالم للناشئين في عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، كما أن هناك إنجازات عدة على المستويين الخليجي والعربي، وكان سموه صاحب فكرة بطولة القارات على كأس الملك فهد التي أصبحت البطولة الثانية في كرة القدم بعد كأس العالم. وفي الألعاب الأخرى، أحرز اللاعبون السعوديون في الألعاب الفردية كألعاب القوى والفروسية وتنس الطاولة بطولات عدة، كما نال منتخبا السلة والطائرة بطولات عربية وقارية.

وعلى الصعيد الثقافي، كان لصاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز - يرحمه الله - إنجازات كثيرة، فقد أنشئت الأندية الأدبية أول مرة في عام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م وأصبح عددها اليوم تسعة أندية تنتشر في مناطق المملكة المختلفة، وتهتم بجوانب الإبداع الأدبي والثقافي والفكري، وتهتم بالنشر وتنظيم المؤتمرات الثقافية، ومعارض الكتب.

وأنشئت جائزة الدولة التقديرية في الأدب في عام ١٤٠٠هـ، وتتولى الإدارة العامة للنشاطات الثقافية رعاية البرامج الأدبية والفنون التشكيلية والمسرحية والأنشطة الثقافية والهوايات العلمية في الأندية الرياضية، كما تنظم المسابقات الثقافية ومسابقات القرآن الكريم، وهناك مراكز للاهتمام بابتكارات الشباب واختراعاتهم.

وأصدرت الإدارة سلسلة «هذه بلادنا» وصدر منها ٤٠ كتابًا عن ٤٠ مدينة سعودية؛ وأنشئت الجمعية العربية السعودية للفنون في عام ١٣٩١هـ/١٩٧٢م للاهتمام بالمبدعين في المجالات الفنية والتراثية، وتحول مسماها إلى الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، وترعى النشاطات الفنية والإبداعات الثقافية من خلال تنظيم المهرجانات المحلية وتسيير القوافل الثقافية وتتبع لها مراكز ثقافية ودور للتراث وناد للقصة وخيمة ثقافية لعقد جلسات نقدية أسبوعية.

وتنظم الجمعية مهرجان جائزة الأمير فيصل بن فهد لثقافة الطفل، وتصدر سلاسل من الإصدارات المختلفة، ويتبع المركز الرئيس عشرة فروع في مناطق المملكة لرعاية الموهوبين والمبدعين في مجالات الثقافة والفنون.

وأنشئت في عهده إدارة خاصة بالفنون الشعبية تهتم بجمع الأغاني والفلكلور الشعبي وتوثيقه وتوسيع نشاطاته وتمثيل المملكة في المهرجانات الفنية، ويتبع هذه الإدارة متحف شعبي ومكتبة موسيقية وتسجيلات لمختلف ألوان الفنون الشعبية السعودية.

وكان سموه حريصًا على مشاركة الشباب في المعسكرات الشبابية، ومعسكرات العمل، والمعسكرات التوجيهية والترفيهية لتحقيق التواصل بينهم، وغرس روح الانتماء فيهم بمعرفة مناطق بلادهم عن كثب، ويشارك الشباب في الأيام والأسابيع الوطنية

والدولية كأسابيع التوعية في مجالات الصحة والنظافة والبيئة والتشجير والتوعية المرورية، وانطلاقًا من اهتمامه ـ يرحمه الله ـ بقضايا الشباب الملحة تولى رئاسة اللجنة الوطنية لمكافحة المخدرات التي أنشئت في عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

وكان لسموه جهود مميزة في المجالات الإنسانية وشارك في التبرع لأصحاب الحاجات، ودعم المؤسسات الإنسانية والخيرية والمراكز الطبية في داخل المملكة وخارجها، ومن آخر أعماله الإنسانية تبرعه بمبلغ مليون دولار لدار «البر بالبراعم البريئة» في عمان، وهي مؤسسة خيرية كان قد أنشأها العاهل الأردني الراحل الملك حسين.

واستطاع سموه طوال مدة رئاسته الاتحاد العربي للألعاب الرياضية، والاتحاد العربي لكرة القدم أن ينأى بالرياضة العربية عن الخلافات السياسية، مؤكدًا أن «الاتحاد العربي ولد ليبقى، وسيبقى ليستمر»، وحقق ـ رحمه الله ـ للاتحاد العربي نجاحات جعلته في مقدمة الاتحادات الإقليمية والدولية، فنظم الاتحاد مجموعة كبيرة من البطولات والدورات العربية على مستوى الأندية والدول، كما نجح في تنظيم دورات تدريبية للإعلاميين الرياضيين، والإداريين، والمدربين، والحكام، والمتخصصين في الطب الرياضي، وفي كل المجالات الرياضية.

وكتب صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن فهد بن عبدالعزيز نائب الرئيس العام لرعاية الشباب ـ أصبح رئيسًا عامًا خلفًا للفقيد ـ كلمة يرثي بها أخاه الراحل، ومما جاء فيها: «لقد قدرتَ الثقة السامية الغالية فحملت الأمانة، وأديتها كاملة منفذًا بنجاح كل ما أيدتك القيادة الحكيمة عليه، وأمنتك على القيام به.. تعلمت منك يا أخي أن الحرص على النجاح يؤدي إلى النجاح، وأن الحرص والتدقيق قبل اتخاذ القرار حيال أمر ما أمر مرغوب، وبعد اتخاذ القرار واجب مطلوب».

وقال صاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن فهد بن عبدالعزيز المستشار بالديوان الملكي: «حقًا إنه لحزن تتفطر له القلوب، وتذوب منه الأكباد، ولكننا بقضاء ربنا راضون. عزاؤنا في فيصل ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ـ ميراث من المروءات خالد، وبحر من المكرمات، ورثه ابن عن والد. كيف لا وقد ورث من أسلافه الكرام الموحدين المجد التالد. إنه خريج مدرسة مولاي خادم الحرمين الشريفين ـ حفظه الله ومتعنا ببقائه الذي فاض قلبه بحبه والذي لا أجد لـه عزاء في فقده وفراقه إلا الرجاء أن يثيبه الله ببيت الحمد في الجنة الذي أعده الله جزاء من صبر على فقد حبيبه ورضي واسترجع».

ونال سموه عددًا من الأوسمة والميداليات تقديرًا لدوره في مجالي الثقافة والرياضة، فمنحه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز ـ حفظه الله ـ وشاح الملك عبدالعزيز من الدرجة الأولى في عام ١٩٩٣م، وهو أعلى وسام في المملكة العربية السعودية، كما منحه عاهل المغرب الراحل الملك الحسن الثاني وسام العرش عام ١٩٨٣م، ومنحه الحبيب بورقيبة الرئيس التونسي السابق وسام الجمهورية من الطبقة الأولى في عام ١٩٨٦م، ونال وسام الكويت ذا الوشاح من الدرجة الممتازة في عام ١٩٩٣م من الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير الكويت، وحصل على وسام order عضوية اللجنة الدولية من اللجنة الأولمبية الدولية، ومنحته مجلة «بطل إفريقية» الرياضية في تونس الميدالية الذهبية في عام ١٩٩٣م، ونال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى في عام ١٩٨٩م من الاتحاد العربي لبيوت الشباب، وتسلم شهادة الزمالة للمنظمة الكشفية العالمية زمالة «بادن بارل» في عام ١٩٩٣م، وتقلد الوسام العالمي للاتحاد الدولي لكرة اليد في عام ١٩٩٧م.


سموه في دار البر بالأردن

وتقديرًا لدوره ـ رحمه الله ـ تم إطلاق اسم سموه على كأس الاتحاد السعودي لكرة القدم لهذا العام، كما أطلق الاتحاد العربي اسم سموه على بطولة الأندية العربية لأبطال الدوري، وخصصت الأندية الأدبية وكثير من الجمعيات الخيرية نشاطات ثقافية متنوعة عن الفقيد الراحل.

وقد تمّ إطلاق اسم صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ على عدد من المواقع الرئيسة في المراكز التابعة لجمعية الأطفال المعاقين تقديرًا لأياديه البيضاء على المعوقين وإسهاماته الإنسانية والخيرية، وذكر صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز رئيس مجلس إدارة الجمعية أن آخر إسهامات الفقيد الراحل كان تبرعه الكريم الذي بلغ عشرة ملايين ريال، تمّ استغلالها في تنفيذ كثير من مشروعات الجمعية كما كان الأمير فيصل ـ رحمه الله ـ قد أصدر قرارًا بتخصيص جزء من دخل المباريات الرياضية لمساعدة المعوقين.

ومن جهة أخرى، أطلق نادي الرياض الأدبي اسم الفقيد الراحل على مكتبة النادي؛ تقديرًا واعترافًا بدوره الرائد في ترسيخ المفهوم الثقافي وتفعيله، ودعمه المتواصل لكل البرامج الثقافية والأدبية والرياضية.

مؤتمر الأدب الإسلامي في خدمة الدعوة

القاهرة: أحمد بن علي تمراز

عقد في رحاب جامعة الأزهر في الفترة من ١١ إلى ١٣ من شهر ربيع الأول سنة ١٤٢٠هـ الموافق ٢٥ - ٢٧ يونيو/ حزيران عام ١٩٩٩م، «مؤتمر الأدب الإسلامي في خدمة الدعوة»، شارك فيه كل من: جامعة الأزهر، ورابطة الجامعات الإسلامية، ورابطة الأدب الإسلامي العالمي.

وقدم للمؤتمر نحو ثلاثين بحثًا - طبعت في مجلدين - عالجت التطور التاريخي للأدب الإسلامي في مختلف العصور في خدمة الدعوة، وقضايا مستقبل الأدب الإسلامي في خدمة الدعوة الإسلامية.

وتحددت أهداف المؤتمر في بيان أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في تشكيل أدب الدعوة لتحقيق النهضة الإسلامية، وتأكيد التوجيه الإسلامي للعلوم والفنون، والكشف عن دور الأدب الإسلامي في نشر قيم الإسلام ومبادئه، والتأصيل للقيم النقدية في مجال النقد الأدبي الإسلامي، وإبراز الوسائل الفنية التي يمكن أن توظف في مجال الدعوة في فنون الأدب المختلفة شعراً وقصة ومسرحية وغير ذلك، وتقديم نماذج من فنون ذات فاعلية خاصة في نشر الإسلام.

وقد تبلورت موضوعات المؤتمر حول خمسة محاور رئيسة، جاءت عناوينها على النحو التالي: «التطور التاريخي لأدب الدعوة»، و«أدب الدعوة في الوقت الحاضر»، و«نماذج من الأدب الإسلامي في مجال الدعوة»، و«أدب الطفولة والدعوة»، و«الدعوة والأدب الإسلامي المعاصر».

وقد ناقش العلماء والأدباء الذين حضروا المؤتمر، الأبحاث المقدمة على مدى ست جلسات، وانتهوا إلى إصدار عدد من التوصيات، منها حث المسؤولين عن وضع المناهج التربوية والتعليمية في مصر والعالم الإسلامي على الاهتمام باللغة العربية والأدب العربي، وبخاصة في مراحل التنشئة، وضرورة اختيار نصوص أدبية ذات مستوى رفيع وروح إسلامية، والدعوة إلى الاهتمام بنشر الأدب الإسلامي وفتح المجالات أمامه تربويًا وإعلاميًا وثقافيًا، وإبراز الجوانب الفنية والجمالية فيه، وإعادة النظر في مناهج دراسة الأدب بما يكشف أسرار الأدب الإسلامي الجمالية، والاهتمام بأدب الدعوة، وتدريس مقرر الأدب الإسلامي في كليات الدعوة وأصول الدين والشريعة الإسلامية.

ومما يجدر ذكره أن صيف القاهرة لهذا العام شهد انعقاد مؤتمرين آخرين إلى جانب هذا المؤتمر، أحدهما: «مؤتمر الأديبات المسلمات»، وقد عقد في الفترة من ١٨ إلى ١٩ربيع الآخر الماضي (٣١/يوليو- تموز - أول أغسطس - آب ١٩٩٩م)، والمؤتمر الآخر هو «مؤتمر الهيئة العامة الخامس لرابطة الأدب الإسلامي العالمية»، وقد عقد في الفترة من ٢٠ إلى ١٤٢٠/٤/٢١هـ الموافق ٢-١٩٩٩/٨/٣م.

وقد شارك في هذه المؤتمرات لفيف من الشخصيات العلمية والأدبية، وقدم فيها عدد من البحوث والدراسات المتعلقة بالأدب الإسلامي، وصدر في ختامها عدد من التوصيات التي انصبت في ترقية الأديب الإسلامي وكيفية تفعيله لخدمة الدعوة الإسلامية.

ورحل شاعر الحزن والمنفى


عبد الوهاب البياتي

ونحن من منفى إلى منفى
ومن باب لباب
نذوي كما تذوي الزنابق في التراب
فقراء، يا قمري، نموت
وقطارنا أبدًا يفوت

عبدالوهاب البياتي

عن عمر ناهز ٧٣ عاماً شيعت دمشق يوم الثلاثاء ٣ أغسطس/آب الماضي الشاعر العراقي عبدالوهاب البياتي أحد رواد الشعر العربي الحديث، وقد شاركت في تشييع الجثمان الأوساط الرسمية والأدبية، ودفن بمقبرة محيي الدين بن عربي بدمشق التي أقام فيها بعد أن أنهكته المنافي ومزقته الغربة التي طالت وتعددت عبر عقود من الزمان، بدءاً ببغداد ومروراً بدمشق وبيروت والقاهرة وموسكو، ثم مدريد وفيينا وبرلين واستنبول والرباط وطنجة وباريس ولندن وواشنطن وغيرها من المدن العربية والأجنبية، وأخيراً عمان، وانتهت بدمشق التي أبدى الشاعر رغبة أن يقضي فيها بقية عمره حيث كان يصفها بأنها عنوانه الأخير.

ولد الشاعر ببغداد عام ١٩٢٦م، والتحق بكلية دار المعلمين عام ١٩٤٤م، وتخرج فيها عام ١٩٥٠م حاملاً درجة الليسانس في اللغة العربية وآدابها، وهو العام نفسه الذي شهد صدور ديوانه الشعري الأول «ملائكة وشياطين»، وفي هذه الفترة بدأ نجمه يلمع في الأوساط الشعرية.

في عام ١٩٥٣م اشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية مع متابعة التأليف والنشر، وشارك في عام ١٩٥٤م - مع عدد من الأدباء والصحفيين العراقيين - في تحرير مجلة «الثقافة الجديدة».

رحل إلى القاهرة بعد أن فصل من عمله، وعمل محرراً في جريدة «الجمهورية» في عام ١٩٥٦م بعد انكسار العدوان الثلاثي على مصر، وظل حنينه إلى بغداد يزداد مع الأيام ليترجم ذلك في مجموعة شعرية جديدة صدرت له عام ١٩٥٧م بعنوان «أشعار في المنفى» طبعت في القاهرة.

عاد إلى العراق عام ١٩٥٨م، وأسندت إليه إدارة التأليف والترجمة والنشر في وزارة المعارف العراقية، وفي الفترة من ١٩٥٩إلى ١٩٦٣م عيّن مستشاراً ثقافيًا في الاتحاد السوفييتي السابق.

كان الشاعر الراحل في طليعة الشعراء الذين حملوا لواء التجديد في القصيدة العربية ومدوها بما أدخلوا من إيقاعات جديدة وبُنى مفردات ومعانٍ لم تكن مألوفة من قبل.

أعماله الأدبية:

وصدر للشاعر الراحل عدد من الدواوين الشعرية، منها: «ملائكة وشياطين»، ١٩٥٠م - بيروت، و«أباريق مهشمة»، ١٩٥٤م - بغداد، و«أشعار في المنفى»، ١٩٥٧م - القاهرة، و«المجد للأطفال والزيتون»، ١٩٥٨م - موسكو، و«عشرون قصيدة من برلين»، ١٩٥٩م - بغداد، و«كلمات لا تموت»، ١٩٦٠م - بيروت، و«طريق الحرية»، ١٩٦٢م - (باللغة الروسية) - موسكو، و«محاكمة في نياسبور» - ١٩٦٢م - مسرحية من ثلاثة فصول - بيروت، و«سفر الفقر والثورة»، ١٩٦٥م - بيروت. و«الذي يأتي ولا يأتي»، ١٩٦٦م - بيروت، و«الموت في الحياة»، ١٩٦٨م - بيروت، و«عيون الكلاب الميتة»، ١٩٦٩م - بيروت، و«الكتابة على الطين»، ١٩٧٠م - بيروت، و«يوميات سياسي محترف»، ١٩٧٠م - بيروت، وصدرت المجموعة الكاملة لأعماله الشعرية في مجلدين ١٩٥٠/١٩٧٠م - بيروت، و«قصائد حب على بوابات العالم السبع»، ١٩٧٣م - بغداد، و«قمر شيراز»، ١٩٧٥ - بغداد، و«صوت السنوات الضوئية»، ١٩٧٩م - بيروت، و«مملكة السنبلة»، ١٩٧٩م - بيروت، و«حب تحت المطر»، ١٩٨٨م - قصائد بالعربية والإنجليزية، و«بستان عائشة»، ١٩٨٩م - بيروت، و«الأعمال الشعرية للبياتي» من جزأين - بيروت، و«كتاب المراثي»، ١٩٩٥م - بيروت، و«الحريق وقصائد أخرى»، ١٩٩٦م - تونس، و«خمسون قصيدة حب مختارة من قصائد الشاعر»، ١٩٩٦م - بيروت، و«البحر اسمعه يتنهد»، ١٩٩٨م - بيروت، و«كتاب المختارات»، ١٩٩٨م - بيروت، و«بكائية إلى حافظ الشيرازي»، ١٩٩٩م، بيروت، و«تحولات عائشة»، ١٩٩٩م بيروت.

دراسات تناولت شعره:

كانت سيرة البياتي وشعره مجالاً خصباً لكثير من الدراسات العلمية التي قدمها باحثون باللغة العربية وعدد من اللغات الأجنبية الأخرى، ومن هذه الدراسات: «عبدالوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث»، كتاب صدر عام ١٩٥٥م، د. علي الراعي وآخرون، و«البياتي من خلال ديوانه أباريق مهشمة»، رسالة جامعية قدمتها نجاة عامودي في الجامعة السورية، عام ١٩٥٦م، و«الأساطير في شعر البياتي»، دراسة ومختارات أعدها الكبيسي، عام ١٩٧٤م، وTHE SINGER AND THE MOON - المغني والقمر - كتاب صدر عام ١٩٧٦م باللغة الإنجليزية، لندن، ترجمة عبدالله العذري، و«ثلاث مدن إسبانية في شعر البياتي» بحث بالإسبانية للدكتور بدرو مارتينيث، عام ١٩٧٧م، و«عبد الوهاب البياتي: انعكاسات أدبية»، رسالة دكتوراه بالألمانية قدمتها السيدة ستيفام يورك، جامعة جوهانس، فرانكفورت، عام ١٩٧٨م.

وغير ذلك من الكتب والبحوث والرسائل الجامعية، إضافة إلى ما يقرب من مئة وسبعين حواراً صحفياً وإذاعياً وتلفازياً أجريت مع الشاعر الراحل خلال العشرين عاماً الأخيرة من حياته.

وحاز الشاعر الراحل عدداً من الجوائز في مجال الإبداع منها: جائزة إكليل غار ابن الخطيب الشعرية الأولى في إسبانيا عام ١٩٨٥م، وجائزة عرار الأدبية عام ١٩٩٢م، وجائزة سلطان العويس الثقافية عام ١٩٩٥م، وجائزة جبران خليل جبران العالمية من رابطة إحياء التراث العربي في أستراليا عام ١٩٨٨م.

واختارته مجلة «مارجن» أو الهامش التي تصدر في مدريد، والتي تعنى بآداب أمريكا اللاتينية، مستشاراً لها، كما اختارته أيضاً مجلة «العالم» التي تصدر في المكسيك مستشاراً لها، وهذه المجلة تعنى بشؤون الفلسفة والأدب والفن، ويشارك في تحريرها عدد كبير من الكتاب والشعراء المعروفين.

صنعاء تشيع البردوني


عبدالله البردوني

توفي بمدينة صنعاء يوم الاثنين ١٩ جمادى الأولى الماضي «٣٠ أغسطس /آب عام ١٩٩٩م» الشاعر اليمني عبدالله البردوني عن عمر يناهز ٧١ عاماً، وقد نعاه اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، وجاء في نص نعي الاتحاد: «بوفاة الشاعر البردوني خسر الوطن العربي شاعراً ومفكراً عملاقاً وأديباً موسوعياً»، وقد شارك في تشييع جثمانه الآلاف من اليمنيين يتقدمهم الدكتور عبدالسلام الأرياني رئيس الوزراء اليمني، وعدد كبير من المسؤولين والأدباء. وقد ووري جثمانه في الثرى في مقبرة خزيمة جنوب مدينة صنعاء.

ولد الشاعر عبدالله البردوني بقرية بردون في محافظة ذمار على بعد مئة كيلو متر جنوب صنعاء عام ١٩٢٨م، وأصيب بالعمى نتيجة لإصابته بمرض الجدري وعمره ٧ سنوات. وقد تدرج في المراحل التعليمية بعد أن أكمل حفظ القرآن في قريته بردون، ثم التحق بدار العلوم بصنعاء واحترف المحاماة فترة من الزمن بعد التخرج، عمل بعد ذلك مدرساً للأدب العربي بدار العلوم بصنعاء، ثم التحق بالإذاعة، وتخصص في البرامج الثقافية، إعداداً وإخراجاً، وكان قبل وفاته يشغل منصب «رئيس لجنة النصوص» بالإذاعة، وكان أيضاً يمارس الكتابة من خلال ثلاث صحف أسبوعية هي: سبتمبر، والوحدة، والثورة.

كان البردوني غزير الإنتاج عبر مسيرته التي امتدت زهاء الخمسين عاماً، أصدر خلالها ١٥ مجموعة شعرية كان أولها ديوان

«من أرض بلقيس» وآخرها ديوان «رجعة الحكيم بن زائد»، كما صدر له أكثر من سبعة كتب نقدية وبحثية توثيقية كان آخرها «اليمن الجمهوري»، وآخر عمل كان يقوم به قبل وفاته إعداد كتاب جديد يوثق فيه التاريخ السياسي لليمن الحديث والمعاصر منذ قيام الثورة اليمنية في سبتمبر/أيلول ١٩٦٢م، حتى نهاية القرن العشرين «٢٠٠٠م».

ومن دواوينه الشعرية:

«في طريق الفجر» - مجموعة شعرية، ١٩٦٧م، و«مدينة الغد» - مجموعة شعرية، ١٩٧٠م، و«لعيني أم بلقيس» - مجموعة شعرية، ١٩٧٣م، و«السفر إلى الأيام الخضر» - مجموعة شعرية، ١٩٧٤م، و«وجوه دخانية في مرايا الليل» - مجموعة شعرية، ١٩٧٧م، و«زمان بلا نوعية» - مجموعة شعرية، ١٩٧٩م، و«ترجمة رملية لأعراس الغبار» - مجموعة شعرية، ١٩٨٣م، و«رواغ المصابيح» - مجموعة شعرية، ١٩٩٠م، و«كائنات الشوق الأخضر» - مجموعة شعرية، ١٩٨٨م.

ومن كتبه النقدية:

«رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه»، ١٩٧٢م، و«قضايا يمنية»، ١٩٧٨م، و«فنون الأدب الشعبي في اليمن»، ١٩٨١م، و«اليمن الجمهوري»، ١٩٨٤م، و«الثقافة الشعبية: تجارب وأقاويل يمنية».

دراسات عن شعره:

وكُتبت عن شعره بعض الدراسات، منها: «الصورة الشعرية عند البردوني»، تأليف: وليد مشوح، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، و«شعر عبدالله البردوني»، تأليف: محمد أحمد القضاة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٧م، وكُرِّم البردوني عدة مرات. ونال كثيراً من الجوائز منها: جائزة أبي تمام من العراق في عام ١٩٧١م في مهرجان أبي تمام الشعري، وجائزة شوقي وحافظ الشعرية - القاهرة ١٩٨١م، وجائزة سلطان العويس في دورتها الثالثة (١٩٩٢ - ١٩٩٣م) في الشعر، وتسلمها في احتفال بدبي في عام ١٩٩٤م، وهو أول يمني يمنح هذه الجائزة.

شعار جديد لجائزة الأمير سلمان لحفظ القرآن

تم اختيار الشعار الجديد لجائزة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود لحفظ القرآن الكريم للبنين والبنات بواسطة اللجنة المختصة التي أشرف عليها معالي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، وقد اعتمد معاليه الشعار الذي وقع عليه الاختيار من بين ٢٩٩ شعاراً تلقتها اللجنة.

وقد أشاد معاليه بهذه الجائزة التي تحمل اسم صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز والتي تمنح لأفضل حافظ لكتاب الله على نفقة سموه الكريم، وهي تبلغ مليوناً ونصف المليون ريال، ووصفها بأنها مميزة وخيرة، وهي تأتي مكملة للبرامج التي تنفذها



الشعار الجديد

حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، وسمو ولي عهده الأمين، وسمو النائب الثاني - حفظهم الله - الرامية إلى خدمة الإسلام والمسلمين، والعناية بكتاب الله الكريم وحفظه انطلاقاً من رسالتها ومكانتها السامية.

وكان هذا الشعار الذي اختير مقدماً من المصمم فوزي بن قاسم محمد أبو عسكر، وسينال جائزة مقدارها عشرون ألف ريال سعودي.

من فضائح النشر!!

تحت عنوان «فضيحة جديدة» أستاذ كبير يسرق نفسه أم يسرق القارئ؟! نشرت الزميلة مجلة اليمامة مقالة للأستاذ خالد بن صالح السيف في عددها الصادر في غرة جمادى الآخرة الماضي .

وقد أشار السيف إلى طريقة مرفوضة في مجال التأليف والكتابة، لما فيها من استخفاف بالقراء؛ وملخص الفضيحة التي تناولتها المقالة أن الدكتور عبدالله التطاوي نشرت له دار غريب كتاباً تحت عنوان «الشعر والفلسفة»، وجاء هذا الكتاب دون فهارس أو قائمة المراجع، ولم تمض سنة حتى أخرج المؤلف الكتاب نفسه لكن بعد تغيير العنوان فقط، وإضافة قائمة المراجع مع الفهارس، ووضع عنوان جديد له هو «الشاعر مفكراً».

وختم الأستاذ السيف مقالته بتوجيه النصيحة للكاتب والناشر بعدم الاستمرار في هذا الطريق، موضحاً ما لهذه الظاهرة من خطر كبير على الثقافة والفكر.

قصة الأسبوع في «البيان»

وجهت الزميلة جريدة البيان الإماراتية الدعوة إلى عموم الكتاب والمثقفين والأدباء العرب إلى المشاركة في مشروعها لإحياء القصة التي غابت كثيراً عن الصحافة، على حد ما ذكرته البيان.

وقد خصصت صفحة كاملة مرفقة برسومات لقصة تنشر أسبوعياً، تحت عنوان «قصة الأسبوع».

واشترطت البيان أن تكون القصة التي تحظى بالنشر لم يسبق نشرها في أي صحيفة أو دورية أو كتاب مطبوع، وأن تراوح صفحاتها

بين (٨ ـ ١٠) صفحات فولسكاب مطبوعة أو مكتوبة بخط مقروء، وأن تكون بلغة مفهومة وصدق.

وأشارت الزميلة البيان في خاتمة دعوتها هذه التي نشرتها في عدد سابق إلى أن لجنة مكونة من: الأستاذ محمد المر، والدكتور الرشيد بو شعير، والأستاذ عبدالحميد أحمد، والأستاذ حسين درويش ستتولى تحكيم هذه القصص ومراجعتها.

إعادة صنع منبر صلاح الدين


المسجد الأقصى

صادف يوم السبت ١٠ جمادى الأولى الماضي (٢١ أغسطس/آب) مرور ثلاثين عامًا على جريمة إحراق المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين على يد اليهود، وقد هزت هذه الجريمة مشاعر كل المسلمين، وكان من نتائجها عقد أول مؤتمر قمة إسلامي انبثقت عنه منظمة المؤتمر الإسلامي التي اتخذت من مدينة جدة مقراً لها، ولجنة القدس التي تضم عشر دول برئاسة المغرب.

وقد التهم الحريق ثلاثة مواقع في المسجد هي: مسجد عمر بن الخطاب، ومنبر صلاح الدين الأيوبي والمحراب، والثالث في النافذة العلوية التي تقع في الجهة الجنوبية الغربية من المسجد.

وقد بذلت لجنة إعمار المسجد الأقصى جهداً كبيراً واستطاعت أن تعيد ترميم الموقعين الأول والثالث وإرجاعهما إلى ما كانا عليه في السابق، وقد استعانت بخبراء من منظمة اليونسكو وبلجيكا ومؤسسة أيكروم الإيطالية المختصة في ترميم التراث، وقد نالت اللجنة نظير عملها هذا جائزة الآغا خان العالمية للعمارة الإسلامية.

وبقي من آثار الحريق منبر القائد الإسلامي صلاح الدين الأيوبي، لأن النار التهمته، ولم تبقِ منه إلا قطعًا صغيرة محفوظة الآن في المتحف الإسلامي بالمسجد الأقصى المبارك، فكان لابد من إعادة بنائه مرة أخرى، وعلى المواصفات الفنية نفسها التي كان عليها أولاً.

وعكفت اللجنة الفنية المنوط بها القيام بهذا العمل على وضع المخططات الفنية والزخرفية منذ عدة سنوات، واستعانت بالحاسوب والمكاتب المختصة بهذا الشأن، بل إنها استعانت بخبراء من الدول العربية والإسلامية من بينها أندونيسيا وباكستان وتركيا وإيران والمغرب.

وسوف ينقل هذا المنبر بعد الانتهاء من صنعه ليركب مكان المنبر المحروق في المسجد الأقصى، وقد قدرت تكلفة صيانة حريق المسجد الأقصى وإزالة آثار الحريق بـ ١٠ ملايين دولار، بينما قدرت تكلفة إعادة صنع منبر صلاح الدين بـ ٣ ملايين دولار.

وكان هذا المنبر قطعة فنية نادرة مصنوعة من قطع خشبية معشق بعضها مع بعض دون استعمال المسامير أو أي مواد لاصقة.

ثلاث مدن لبنانية رسل ثقافية للسلام

جبيل وصور وبعلبك هذه المدن اللبنانية اختيرت لتكون من بين المواقع التي أطلق عليها تسمية «رسل ثقافية للسلام».

وستشهد مدينة جبيل نشاطات ثقافية وفكرية في يومي ١٤ و ١٥ سبتمبر/أيلول تشمل محاضرات وجلسات عمل حول قضايا المجتمع، وكثيراً من الموضوعات المهمة.

جرى هذا الاختيار بمناسبة إعلان سنة ٢٠٠٠ سنة دولية.

أساليب التعذيب الإسرائيلية في رسالة دكتوراه

حصل الباحث الفلسطيني أحمد أبو طوحينة على شهادة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة عين شمس المصرية على أطروحته «أساليب التعذيب في السجون الإسرائيلية».

وهذه الرسالة تقوم على دراسة ميدانية على الحالة النفسية للذين تعرضوا للتعذيب في السجون.

وأظهرت هذه الرسالة أن ٢٨٪ من الذين تم تعذيبهم أصيبوا بأمراض نفسية تراوح بين التوتر النفسي والاكتئاب.

بتهمة التطبيع: سميح القاسم يمنع من دخول لبنان


سميح القاسم

منعت السلطات اللبنانية الشاعر الفلسطيني سميح القاسم من الدخول إلى أراضيها لاستلام جائزة البابطين، وكان سبب المنع هو جواز سفره الإسرائيلي، ورؤيته التبسيطية لمسألة التطبيع مع إسرائيل. كما استبعد أيضًا للأسباب نفسها من مهرجان مؤتة الثقافي بعد أن وجهت الدعوة إليه من النقابات المهنية الأردنية.

وكان القاسم، الذي ولد في عام ١٩٣٠م، قد شارك في إحياء أمسية شعرية في قاعة المدينة التابعة لأمانة عمان الكبرى، وأمسية أخرى في جامعة البنات الأهلية بعمان، وقد تسلم جائزة البابطين التي فاز بها عن مجمل أعماله الشعرية والنثرية خلال الثلاثين عامًا الماضية.

وفي ردّه الذي نشر في ملحق عمان الثقافي الصادر في ٧ جمادى

الأولى الماضي على اتّهامه بجواز سفره الإسرائيلي، وموقفه من مسألة التطبيع مع إسرائيل، قال الشاعر إن جواز سفره هو قصيدته، وعن التطبيع قال: أنا لا أخاف على الثقافة العربية مما يسمونه «الغزو الثقافي» فأنا أعرف الثقافة العربية وأعرف أيضًا الثقافة الإسرائيلية، فلا أخاف على المتنبي من «حاييم تحمان ببالك»، ولا على محمد عبدالوهاب، ورياض السنباطي من «بتهوفن»، ولا على أم كلثوم من «عز احازة»، وقال القاسم: «إن تهمة التطبيع لا تليق بشاعر أفنى عمره في مقاومة التذويب الإسرائيلي لهويته».

افتتاح مكتبة الإسكندرية

بعد مرور أكثر من قرن ونصف القرن من الزمان على تدمير مكتبة الإسكندرية في عهد الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر عام ٤٧/٤٨ قبل الميلاد، تجري الاستعدادات حاليًا في مصر لافتتاح هذه المكتبة مع نهاية العام الجاري، وسوف يتم ذلك في احتفال عالمي كبير سيدعى إليه عدد من ملوك العالم ورؤسائه.

وتنوي مصر ـ كما يقول الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار الدكتور جاب الله علي جاب الله ـ أن يكون افتتاح هذا الصرح مرة أخرى بكل ما يمثله من قيمة معرفية ومعلوماتية من كتب قديمة وحديثة عملاً ثقافيًا تختم به مصر الإنجازات الثقافية لهذا القرن.

وكانت مكتبة الإسكندرية قد تعرضت للدمار مرتين: الأولى عندما غزا الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر مدينة الاسكندرية، وأشعل النار في مينائها، وامتدت ألسنة اللهب حتى قضت على مكتبة الإسكندرية، ولم يبق منها إلا جزء بسيط أصبح فيما بعد المكتبة الرئيسة، والمرة الثانية كانت في عهد الإمبراطور الروماني أيضًا جيوفاني في الفترة ما بين ٣٢٧ ـ ٤٢٠ ميلادية الذي عرف بنزعته العدوانية ضد المكتبات التي كان يعدّها أعمالاً وثنية.

وقد استغرق مشروع إحياء هذه المكتبة زهاء خمس سنوات، بتكلفة بلغت ٢٠٠ مليون دولار ساهمت في دفعها كل من فرنسا وإيطاليا والنرويج واليونان وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية، وكان نصيب الدول العربية في هذه المساهمة ٦٥ مليون دولار، كما قدمت اليونسكو مساهمة قيمة في هذا المشروع، وكان لها دور بارز في إنجاحه.

وقد روعي في تصميم المكتبة أن يتضمن مركزًا للمؤتمرات، وقبة سماوية، ومتحفًا للعلوم، وآخر للمخطوطات، ومكتبة للشباب، إضافة إلى متحف أثري لعرض القطع الأثرية المكتشفة في موقع المكتبة، وعرض قطع أثرية أخرى تؤرخ العهدين الروماني واليوناني.

وسوف تضم المكتبة عند افتتاحها نحو ٤٠٠ ألف مجلد و ٥٠ ألف مخطوطة نادرة ومثل هذا العدد خرائط، إضافة إلى المواد السمعية والبصرية والدوريات

وتقع المكتبة في موقع الحي الملكي القديم نفسه الذي يعود للحضارتين اليونانية والرومانية بمساحة قدرها ٤٥ ألف متر مربع، وقد قام بعمل تصميماتها الهندسية مهندس نرويجي الجنسية، وجاء التصميم على شكل قرص يرمز إلى شمس مصر القديمة، وجاء سقفها مائلاً في إشارة إلى شروق شمس المعرفة.

وسوف تضم ساحة الحرم الخارجي للمكتبة، التي سوف يطلق عليها اسم «ساحة الحضارات»، تماثيل لأشهر فلاسفة وعلماء العالم القديم وعلمائه.

إعادة آثار مسروقة

وافقت الحكومة الأردنية على تسليم السلطات المصرية عددًا من القطع الأثرية كان أحد الأردنيين قد قام بتهريبها داخل شاحنة، وتمكنت السلطات الأردنية من ضبط هذه الآثار المهربة واستلامها.

وتبلغ هذه الآثار المسروقة ٢٨ قطعة ترجع إلى عصور تاريخية مختلفة لعل أهمها قطعة ترجع إلى العهد الروماني، وهي رأس للإلهة (سرابيس) ، وتزن ٣٠ كيلو جرامًا.

وسيتم تسليم الآثار المسروقة بمقر السفارة المصرية، ومن ثم تنقل إلى القاهرة، لتوضع في المتحف القومي المصري بميدان التحرير.

النيران تلتهم مكتبة المثنى في العراق

التهم حريق هائل مكتبة المثنى التي تعد واحدة من أغنى المكتبات الأهلية في العراق، وتضم هذه المكتبة، التي تقع في شارع المتنبي أشهر شوارع الكتب والمطابع في بغداد وأكبرها، مئات الآلاف من المخطوطات النادرة، والكتب المرجعية التي لاتقدر بثمن، التي يعود تاريخ طباعتها إلى القرن الماضي.

وقد صرح صاحب المكتبة أن النيران التهمت ١٥ غرفة كانت ملأى بالكتب، وقال: إن الحريق بفعل فاعل ولكنه لم يتهم أحدًا.

ليالٍ شعرية للفيتوري


الفيتوري

يستعد الشاعر السوداني محمد الفيتوري، المقيم حاليًا بالقاهرة، لإحياء ثلاث أمسيات شعرية في كل من الشارقة والكويت وبيروت، خلال شهر نوفمبر/ تشرين الثاني المقبل.

وكان الفيتوري الذي غاب طويلاً عن الأضواء، قد تلقى دعوة من المدير العام لدائرة الثقافة بإمارة الشارقة، الدكتور عبيد سيف الهاجري للمشاركة في الملتقى الفكري المصاحب لمعرض الشارقة الدولي للكتاب في دورته الثامنة عشرة التي من المقرر أن يعقد في الفترة من ٢ إلى ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني المقبل.

أما الدعوة الكويتية فقد تلقاها الفيتوري من وليد الرجيب مدير إدارة الثقافة والفنون في «المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب» في دولة الكويت لحضور «مهرجان القرين الثقافي»، الذي تقام فعالياته في الفترة من ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول إلى ١٨نوفمبر/تشرين الثاني.

وسيعود الشاعر إلى بيروت المدينة التي عاش فيها زمناً، وأحبها بدعوة من عبدالرؤوف فضل الله الأمين العام للمجمع الثقافي العربي «أكاديمية المثقفين العربي» في لبنان، لحضور المؤتمر الثقافي العربي السادس الذي يقام في بيروت في الفترة من ٢٤ إلى ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني، تحت شعار «بيروت ملتقى حضاري».

إعلان أسماء الفائزين بجائزة البياتي الشعرية

أعلنت جائزة البياتي الشعرية في دورتها الثانية بعد أن اعتمدت من الشاعر عبدالوهاب البياتي قبل رحيله، وصدقت عليها لجنة التحكيم.

وقد منحت الجائزة لثلاث مجموعات شعرية بالتساوي وهي:

الأولى: «موتى من فرط الحياة»، للشاعر السوري أديب حسن محمد، والثانية: «أهوال صغيرة»، للشاعر المصري أحمد سواركه، وأما الثالثة فهي: «قيامة الأرامل» للشاعر العراقي حسن النصار. وقد شاركت في هذه المسابقة ثمان وخمسون مجموعة شعرية من مختلف الدول العربية.

كما أشادت لجنة التحكيم المكونة من الناقد د. محيي الدين صبحي والشعراء محمد علي شمس الدين، وفايز خضور ومحمد مظلوم بعدد من المجموعات الشعرية المتميزة التي شاركت في هذه المسابقة.

الزلزال يضرب أعرق مراكز الصناعات الفنية في تركيا

لم تقف كارثة الزلزال الذي ضرب تركيا مؤخراً على الخسائر البشرية والمادية فقط، بل زاد عليها بكارثة تراثية، وذلك لإصابته مدينتين عدَّهما مؤرخو الفنون الإسلامية أكبر معاقل الصناعات الحرفية في العالم وهما «إزنيق» و«هره كه».

تقع مدينة «إزنيق» IZNIK، وهي مدينة صغيرة، في شمال غرب تركيا على بحيرة إزنيق، وقد نالت المدينة شهرتها لسببين: أولهما: دورها المؤثر في التاريخ المسيحي، فقد عقد فيها مجمعان كنسيان مسكونيان (عالميان)، الأول في عام ٣٢٥م والسابع في عام ٧٨٧م، وكانت يومها تعرف باسم (نيقية)، وأعلنت بعد المجمع التاسع عشر في عام ١٩٦٢م مدينة مقدسة، كما أن هذه المدينة كانت عاصمة للإمبراطورية البيزنطية خلال الأعوام من ١٢٠٤ إلى ١٢٦١م، وعاشت أياماً زاهرةً خلال عهود السلاجقة والعثمانيين، وكانت الاستعدادات - قبيل هذا الزلزال - تجري في العواصم الغربية لإعلان المدينة «ثالث أهم حاضرة مسيحية في التاريخ» بعد القدس والفاتيكان، وكانت السلطات التركية قد أعدت العدة للاستفادة من هذه التظاهرة في إنعاش الحركة السياحية أو ما يعرف «بالسياحة الثقافية».

هنالك ميزة تضيف إلى هذه المدينة أهمية أخرى تتمثل في طبيعة الأرض التي بنيت عليها، فالأرض المحيطة بالمدينة اشتهرت بطينها الممتاز للصناعات الخزفية التي تقول الروايات التاريخية: إن المدينة عرفتها منذ القرن الثاني عشر الميلادي، ويقول الخبراء والباحثون: إن خزف إزنيق الملون اليوم يعد من أفخر آيات الفنون الإسلامية المشرقية، وقد بلغت قيمته في بعض المزادات آلافاً من الدولارات.

والمدينة الثانية هي مدينة هره كه HEREKE، وهي مدينة صغيرة تقع على الشاطئ الشمالي لبحر مرمرة شمال غرب مدينة إزنيق على بعد ٦٠ كيلاً شرق مدينة إستانبول، وفي هذه المدينة أسس السلطان العثماني عبدالمجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١م) عام ١٨٤٣م المعامل السلطانية للنسيج والحرائر بإشراف الأخوين الأرمنيين أوهانس وبوغوص داديان، غير أن الانتاج الفعلي للسجاد لم يبدأ في هذه المدينة قبل عام ١٨٩١م. إلا أنها استطاعت، على الرغم من الحداثة، أن تحتل مركزاً مرموقاً في صناعة السجاد الشرقي، بل إنها أصبحت بحلول عام ١٩٢٠م أعظم مراكز هذه الصناعة في تركيا والعالم.

ومع أن تصاميم صناعة السجاد في هذه المدينة مستوحاة من التصاميم الإيرانية، إلا أنها احتفظت بخصوصيتها التي تمثلت في احتفاظها بالعقدة التركية المتوازية (الغورديز)، وهي تختلف عن العقدة الفارسية اللامتوازية «السنة».

مجلة عربية في إندونيسيا

«ألو أندونيسيا» هي أول مجلة تصدر بالعربية في إندونيسيا من أجل مخاطبة الناطقين بالعربية والمتعلمين لها، بهدف إيجاد نوع من التواصل بينهم، فالأجيال الجديدة في إندونيسيا حريصة على تطوير لغتها العربية لكونها لغة القرآن الكريم.

ترأس تحرير المجلة الدكتورة نبيلة لوبيس الأستاذة بالجامعة الإسلامية في جاكرتا، وهي مصرية تقيم في إندونيسيا منذ نحو ثلاثين عاماً، ويضم مجلس إدارتها إلى جانب الدكتورة نبيلة عدداً من الشخصيات الإندونيسية الناطقة بالعربية منهم الدكتور علوي شهاب نائب رئيس حزب نهضة الشعب الذي حصل على الدكتوراه من جامعة عين شمس.

وقد جاء في العدد الأول في باب «نافذة على الشرق الأوسط» عدة موضوعات عن مصر، من ضمنها الجهود المصرية المبذولة لتعمير الصحراء سواء أكانت في توشكي أم في سيناء، كما تطرقت أيضاً إلى الجهود المصرية في مجال تنقية البيئة، وإعادة توزيع الخريطة السكانية.

كما جاء في العدد معلومات مهمة عن الشعب الأندونيسي وعاداته

وتقاليده ولغته وسبب اختيار اسم إندونيسيا.

وأشارت رئيسة التحرير إلى أنه على الرغم من بعد إندونيسيا عن مهبط الديانات في الشرق الأوسط إلا أنها قريبة بعواطف شعبها المسلم ومشاعره من هذه المناطق.

العثور على مخطوطات باخ الموسيقية ورسائل جوته في أوكرانيا


باخ

تم مؤخراً العثور في مدينة كييف بأوكرانيا على مؤلفات موسيقية قيمة كتبها الموسيقار الألماني جوهان سيبستيان باخ، وهي جزء من أرشيف مفقود منذ أكثر من خمسين عاماً، وترجع ملكيته إلى أكاديمية برلين الغنائية التي أسست عام ١٧٩١م. وقد قاد فريق البحث عن هذه المؤلفات الذي استمر عشرين عاماً كريستوف ولف أستاذ الموسيقى في جامعة هارفرد، والمكلف بوضع تعريف بعائلة باخ لمعجم نيو جروف عن الموسيقى والموسيقيين، وكان الاعتقاد السائد بأن هذه الوثائق قد فقدت في أثناء الحرب العالمية الثانية.

وكان الخيط الذي يسر الوصول إلى هذه المؤلفات هو عثور الخبيرة باتريشيا كنيدي جرمستد المتخصصة بأرشيفات الغنائم السوفييتية على تقرير سوفييتي يرجع تاريخه إلى عام ١٩٥٧م أعدته وزارة الثقافة السوفييتية يتحدث عن وجود ٥١٠٠ نوتة موسيقية محفوظة في متحف خاص في كييف، وسألت الخبيرة الموظفين الذين أنكروا وجود هذه الوثائق، ولكن أحد زملائها ويدعى هنادي بورياك، وهو خبير في الشؤون الأوكرانية كان يعلم وجود مجموعة موسيقية في متحف الأرشيف المركزي للأدب والفن في كييف.

وعكف وولف وجرمستد ينقبان مدة ثلاثة أيام في الأوراق القديمة في مركز الأرشيف حتى عثرا على الصندوق الذي يحوي النوتات الموسيقية المرتبة في ست إضبارات معقودة بشريط وتحمل ختم أكاديمية برلين، وتعود ملكية هذه المؤلفات التي عثر عليها إلى كارل فيليب إيمانويل باخ (أحد أبناء ج. باخ)، كما تضم مؤلفات لأبناء باخ الآخرين وبعض الموسيقيين الألمان من القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن العشرين. كما يضم أيضاً بعض الرسائل التي كتبها الشاعر جوته.

وحفاظاً على هذه الوثائق قررت السلطات الأوكرانية تصويرها على ميكروفيلم، وقدر عام لإنجاز دراسة هذه المجموعة التي تأمل ألمانيا عودتها إليها، وهو أمر ترفضه روسيا، غير أن أوكرانيا لا تمانع من إرجاعها تودداً لأوربا لكن بشرط إرجاع الأعمال الأوكرانية التي استولت عليها ألمانيا.

شخصية مسلمة في البرلمان الألماني

أشار مصدر حكومي ألماني إلى أنه في بداية شهر أكتوبر/تشرين الأول المقبل ستناقش في البرلمان مسألة تدريس الدين الإسلامي في المدارس الألمانية.

ويدرس أعضاء البرلمان انتخاب شخصية مسلمة مستقلة مختصة بالشؤون الإسلامية وعالمة بالفقه الإسلامي يشغل منصب مستشار للشؤون الإسلامية حيث سيكون المرجع للأسئلة في هذا الجانب، مع إبداء الرأي في المناقشات بين الحكومة الألمانية والدول الإسلامية.

الاحتفال بمرور ٢٥٠ عاماً على ميلاد الشاعر الألماني جوته


جوته

صادف يوم الجمعة الموافق ٢٧ أغسطس/آب الماضي مرور الذكرى السنوية المئتين والخمسين لميلاد أمير شعراء ألمانيا يوهان فولفغانغ جوته الذي ولد في مدينة فرانكفورت الألمانية في يوم ٢٨ أغسطس/ آب عام ١٧٤٩م.

ولن تكون الاحتفالات وقفاً على مدينة فرانكفورت وحدها، فهذا العام ١٩٩٩م أطلق عليه عام جوته، بل تشمل مدناً ألمانية أخرى خصوصاً مدينة فايمر الألمانية الشرقية التي انتقل إليها الشاعر عام ١٧٧٥م تلبية لدعوة تلقاها من أمير سكسونيا كارل أوغوست، وفيها التقى عدداً من مشاهير ذلك العصر على رأسهم الموسيقار بتهوفن، والشاعر والأديب والفيلسوف الألماني فريدريك فون شيلر الذي أصبح من أعز أصدقائه فيما بعد، وقد أنعم عليه القيصر الألماني يوزيف الثاني في عام ١٧٨٢م برفعه إلى طبقة النبلاء ليصبح اسمه «فون جوته».

ويعد جوته من أشهر شعراء ألمانيا، ولم يحظ مفكر ألماني بمثل ما حظي به هذا الشاعر من اهتمام ودراسة، ولم يقتصر هذا الاهتمام على أعماله الأدبية فقط، بل تعداها إلى حياته الخاصة، وقد كتب عنه خلال هذا العام فقط ثلاثة عشر كتاباً ومجلداً، بل إن أعماله مقررة ضمن المناهج الدراسية التي تدرس في المدارس، وقد قال عنه الفيلسوف نيتشه: إن جوته ليس ملكاً للألمان، إنه ملك العالم كله.

تعلم الهيروغليفية

أقام المتحف البريطاني مؤخراً احتفالات بمناسبة مرور ٢٠٠ عام على اكتشاف حجر رشيد الذي كان له دور أساسي في فك طلاسم اللغة المصرية القديمة المعروفة بالهيروغليفية.

وصاحب هذه الاحتفالات إقبال كبير من البريطانيين على تعلم اللغة الهيروغليفية، وفتح في لندن كثير من الفصول لهذا الغرض،

وسجل كتاب «كيف تقرأ الهيروغليفية المصرية» الذي يسوّقه المتحف البريطاني أعلى رقم في المبيعات، حيث بيعت منه ٣٠ ألف نسخة في بريطانيا والولايات المتحدة منذ أبريل/نيسان الماضي، كما أعيد طبعه أكثر من مرة، وزاد إقبال الجمهور على زيارة المتحف بصورة أكبر حيث يزوره يومياً نحو ألف شخص، وهي نسبة فاقت التوقعات بنحو ٥٠٪.

وقد أشار مارك كولبير الخبير في الآثار المصرية وأحد المشاركين في تأليف الكتاب إلى تزايد الاهتمام بتعلم اللغة الهيروغليفية، وعزا ذلك إلى قيام معرض فك الرموز واكتشاف حجر رشيد.

ويعود تاريخ حجر رشيد إلى ٢٢٠٠ عام، فترة الحكم اليوناني في عهد بطليموس في عام ١٩٦ قبل الميلاد، ويقول جون راي عالم الآثار المصرية بجامعة كمبردج: «إن حجر رشيد كان حجر الزاوية في فك رموز الهيروغليفية».

فرنسا تكرم ألفريد هيتشكوك


هيتشكوك

تحتفل فرنسا هذه الأيام بمرور الذكرى المئوية لميلاد المخرج البريطاني الأصل الفريد هيتشكوك الذي عرف بإخراج أفلام الرعب والإثارة، وسوف يتم في هذه الاحتفالات عرض عدد من أفلامه. ومن الأفلام المرشحة للعرض فيلمه «الرجل الذي يعرف كثيراً»، وكان قد أُنتج عام ١٩٥٦م.

ضحايا مهنة البحث عن المتاعب

أعربت منظمة «مراسلون بلا حدود» عن قلقها من عمليات العنف والقتل التي يتعرض لها الصحفيون في مختلف أرجاء العالم بعد الانخفاض الذي طرأ على هذه الظاهرة خلال السنوات الأربع الأخيرة.

ففي أحدث بيان لها بتاريخ ١٦ أغسطس/آب ١٩٩٩م أعلنت المنظمة أن عشرين صحفياً قتلوا في أثناء تأديتهم واجبهم خلال ثمانية أشهر من عام ١٩٩٩م، مقابل ١٩ صحفيًا عام ١٩٩٨م، وكانت حصيلة توزيع هذا العام هي: مقتل عشرة صحفيين في سيراليون، مسجلة بذلك أعلى رقم في هذا العام، ثمانية منهم قتلوا على أيدي متمردي الجبهة الثورية الموحدة، وواحد على أيدي جنود قوة حفظ السلام غرب إفريقية «أيكوموغ»، ثم مدير الإعلام في صحيفة إكسبو تايمز الذي مات في زنزانته في أثناء احتجازه بعد أن أصيب بمرض السل.

أما في يوغسلافيا فقد لقي ستة صحفيين مصرعهم. منهم ثلاثة صينيين لقوا مصرعهم على على يد قوات حلف شمال الأطلنطي في أثناء قذفها للسفارة الصينية في يوغسلافيا، ثم صحفيان يعملان في مجلة شتيرن الألمانية قتلا بنار القناصة في كوسوفا، كما اغتال مجهولان مدير صحيفة «دنيفني تلغراف»، الذي يعد من أشهر أقطاب الصحافة المستقلة في صربيا، هذا إضافة إلى ٧٥ صحفياً يقبعون في الاعتقال في سجون العالم.

وتعزو المنظمة هذه الكوارث والعنف الذي يمارس ضد الصحفيين إلى عجز بعض الدول عن حماية سكانها المدنيين، ولا سيما الصحفيين في أثناء الحرب، كما طلبت المنظمة من كل الدول إعطاء صلاحيات أوسع للقضاء ولجان التحقيق لملاحقة هؤلاء القتلة والاقتصاص منهم.

مئتا عام على ميلاد بلزاك


بلزاك

من المقرر أن تحتفل فرنسا خلال الأيام القادمة بمناسبة مرور مئتي عام على ميلاد كاتبها الكبير بلزاك و ١٥٠ عامًا على وفاته، وقد بدأت الأوساط الأدبية تهتم بهذه المناسبة والإعداد للاحتفال بذكرى هذا الكاتب الذي لم يعش طويلاً على الرغم من إنتاجه الضخم الذي تجاوز ٨٠ رواية.

ولهذا الإنتاج الغزير حكاية، فقد عُرف عن هذا الكاتب النهم الشديد للكتابة وكأنّه في سباق مع الزمن، فقد كان ينام عند الساعة السادسة بعد الظهر ليستيقظ عند الساعة الثانية عشرة ليلاً ليبدأ الكتابة حتى ظهر اليوم الثاني دون كلل أو ملل، وكان خلال ذلك الوقت يستهلك كثيرا من فناجين القهوة.

كان بلزاك يعيش في جو روايته ويتفاعل معها، وكان يغلق الأبواب والنوافذ حتى ينقطع عن العالم الخارجي ليعيش في الجو الذي يرسمه لشخصيات رواياته، حتى إنه كان يجد صعوبة للوهلة الأولى من التواصل مع العالم الخارجي عندما يفرغ من الكتابة فتختلط عليه الحقيقة والخيال، وقد قيل: إنه كان يستنجد لحظة موته بالطبيب بيانشون بإحدى الشخصيات الروائية التي اخترعها الكاتب في إحدى رواياته.

كان بلزاك يتميز بشخصية قوية وطباع حادة وطاقة وحيوية كبيرتين، وقد وجه طاقته للكشف عن الطبقات الكبرى في المجتمع.

وقد أصدرت دار نشر تالانديه الباريسية - حديثًا - دراسة بعنوان «بلزاك والتورين» أعدّها فيليب رينو تعرض فيها بالنقد والتحليل لأحد أعمال بلزاك الضخمة، وهي «الكوميديا الإنسانية».



ابن كثير، الحافظ عماد الدين إسماعيل ابن عمر، دراسة وتحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش / جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن.- بيروت: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ١٢مج.

يقع الكتاب في ١٢ مجلداً عدا مسند أبي هريرة الذي سيخرج في مجلدين متممين لهذا العمل، كما وعد بذلك المحقق.

الكتاب موسوعة في الأحاديث والموضوع والسنن، جمع فيه أكثر من مئة ألف حديث منها الصحيح والحسن والضعيف، وقد اعتمد جامعه - كما يقول - على عشرة مصادر رئيسة هي: صحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم، وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، ومسند أبي بكر البزّار، ومسند أبي يعلي الموصلي، والمعجم الكبير للطبراني، وقد اتضح للمحقق أن هنالك مصادر أخرى غير هذه اعتمد عليها الجامع.

قدم المحقق لهذا العمل بدراسة تعرض فيها لسيرة الإمام ابن كثير وكتابه هذا، وتناول أشهر المصنفين في هذا الفن، وأشهر المؤلفات في القرن الثالث، وأشهر الكتب في القرن الرابع، ثم تحدث عن مناهج المحدثين في التأليف، وأشهر كتب الجرح والتعديل.

قدم الجامع أيضاً بمقدمة لهذا الكتاب تحدث فيها عن منهجه في البحث قائلاً: «وسميت كتابي هذا «جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن» وهو المسند الكبير، وشرطي فيه أني أترجم كل صحابي له رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتباً على حروف المعجم، وأورد له جميع ما وقع في الكتب «يقصد الكتب العشرة التي اعتمد عليها»، وما تيسر لي من غيرها، وبالله أستعين، وعليه أتوكل وإليه أنيب».

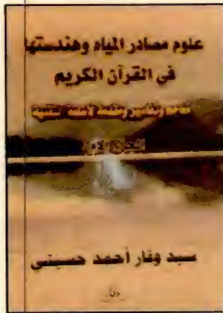


البياتي، عدنان هزاع / البيئة والتنمية في الوطن العربي، مشكلات وحلول.- الدوحة: دار الثقافة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ١٦٨ص.

الكتاب مجموعة من البحوث البيئية على الصعيد القومي نشرت في مجلات عربية رصينة، وهي تناقش أهم المشكلات التي تعاني منها بيئتنا العربية كاختفاء الغطاء النباتي، وتردي التربة، وتسارع التصحر، وفقدان التنوع البيولوجي، وتلوث الهواء والماء، وهو أمر ينذر بكارثة لن تقف آثارها على الجيل الحالي، بل تهدد أمن الأجيال العربية القادمة.

الكتاب يناقش هذا الخطر البيئي تحت ٨ مباحث، الأول منها عن «التصحر وأزمة الغذاء في الوطن العربي»، والثاني عن «التحضر العشوائي والعجز الغذائي في الوطن العربي»، والثالث عن «النمو السكاني والتدهور البيئي في الوطن العربي»، أما الرابع فقد جاء عن «النمو السكاني والتنمية في الوطن العربي بين عنصري التغيير والتقاليد»، والخامس عن «الفقر والتدهور البيئي في الوطن العربي»، والسادس جاء عن «تلوث الهواء في الوطن العربي بين ضرورات التنمية وسلامة البيئة»، وجاء السابع عن «التحديات البيئية للتنمية الزراعية في الوطن العربي»، وختام البحوث كان بعنوان «أزمة المياه وسبل تجاوزها لتحقيق التنمية المستديمة في الوطن العربي».

دعمت المعلومات الواردة في هذه البحوث بإحصاءات وجداول مأخوذة من مصادر موثوقة مثل المنظمة العربية للزراعة، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة وغير ذلك من المصادر.



حسيني، سيد وقار أحمد/ علوم مصادر المياه وهندستها في القرآن الكريم: معاجم وتفاسير ومقدمة لأسلمة التقنية، ترجمة: سمية زكريا زيتوني.- حلب: فصّلت للدراسات والترجمة والنشر، ١٤١٩/١٩٩٩م، ٤٤٩ص.

يرمي الكتاب إلى حث المسلمين على تطوير علوم وتقنية (تكنولوجيا) مصادر المياه الإسلامية لمصلحة البشر جميعاً، ويعرف ذلك في الفكر الإسلامي بأسلمة العلوم، وهو أمر ضروري - كما يراه المؤلف - لتغيير حالة المسلمين الراهنة من التخلف إلى التطور والتقدم.

يقدم الكاتب تطبيقاً أيديولوجياً إسلامياً من خلال نصوص قرآنية مختارة، إضافة إلى إيضاحات معرفية تظهر استيعاب الفكر الإسلامي للمعارف العقلية الحديثة، وقد أورد المؤلف ٩٢٠ آية تتعلق بالمعارف الخاصة بالمياه.

الكتاب يقع في سبعة فصول، فصله الأول عن «العلوم والهندسة المائية الإسلامية تفسير النصوص المختارة»، والثاني عن «العلوم والهندسة البيئية المائية الإسلامية»، وجاء الثالث عن «علوم الري الإسلامية وهندسته»، والرابع عن «قانون المياه الإسلامي وإدارتها»، أما الخامس فقد اختص «بالكلمات المفتاحية في النصوص القرآنية»، ويجيء الأخير بفهرس بالكلمات المفتاحية.

عروسي، سهيل/ تحديات المستقبل.- دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ٣٤٣ص.

يقول المؤلف: إن فكرة هذا الكتاب نبعت من ضعف اهتمام العرب بالمستقبل ودراساته ومشكلاته المتوقعة وانشغالهم بالماضي وإشكالياته ومشكلاته.

الكتاب يقع في ١٢ فصلاً، جاء فصله الأول عن «المستقبل»، وفيه حدد المؤلف مفهوم مصطلح كلمة «المستقبل»، وكان الفصل الثاني عن مهام المستقبل، وجاء الفصل الثالث بعنوان: «المبادئ المستقبلية»، أما



الفصل الرابع فقد جاء عن «التكنولوجيا» فتابع المؤلف انطلاقها منذ القدم وتحدث عن أبعادها موضحاً الفرق بينها وبين العلم، وجاء الفصل الخامس عن «شكل الأشياء في المستقبل»، وعاد المؤلف إلى العالم العربي في الفصل السادس، وتحدث فيه عن «استشراف المستقبل العربي»، وما يرتبط به من قضايا حيوية، وجاء الفصل السابع بعنوان «الطاقة»، وفي الفصل الثامن ناقش «النظام التربوي العربي»، وكانت «المياه» هي عنوان الفصل التاسع، وقد وصفها المؤلف بأنها من أخطر المسائل، وجاء الفصل العاشر عن «شكل الثقافة القادم ووسيلته»، وأوضح أن العولمة ستجسد شكل تلك الثقافة ومضمونها عبر وسائلها المتعددة، وناقش في الفصل الحادي عشر موضوع «التنمية والحاجة إلى الدراسات المستقبلية»، وختم الكتاب بالفصل الثاني عشر وكان عن «الملاحق»، وفيه أورد الكاتب البيان الذي أصدره المؤتمر القومي العربي السابع ١٩ آذار/مارس ١٩٩٧م، بالدار البيضاء بالمغرب.



أبو العدوس، يوسف/ الاستعارة في دراسات المستشرقين: فلفهارت هاينريشس نموذجاً- عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م، ٢١٤ص.

الكتاب واحد من سلسلة قصد كاتبها إلى إعادة البلاغة العربية إلى صورتها الأولى في عهدها الزاهر، وقد خصص هذا الكتاب من هذه السلسلة لجهود هاينريشس في دراسة البلاغة العربية.

تحدث الكاتب في بداية الكتاب عن إسهامات المستشرقين الألمان واهتمامهم بالبلاغة العربية وذكر عدداً منهم ،أمثال: أوجست فون ميرن، وجوستاف فون جرونباوم، وهلموت ريتر، وفلكس كلاين فرانكه، وغيرهم.

الكتاب يقع في ثلاثة فصول ناقش فصله الأول، وكان بعنوان «المصطلح الاستعاري عند هاينريشس»، مسألة المصطلحات الاستعارية التي أثارها هاينريشس في بحثه «يد الشمال»، وجاء فصله الثاني عن «الاستعارة والبديع والعلاقة الاصطلاحية المتبادلة بينهما في الكتابات النقدية العربية المبكرة»، وختم الكتاب بالفصل الثالث وكان عن «الاستعارات المزدوجة في الشعر المحدث (العباسي)». والبابان الثاني والثالث مقالان مترجمان لهاينريشس.



العدل (العدد الأول، المحرم ١٤٢٠هـ)

صدر العدد الأول من مجلة العدل، وهي مجلة فصلية علمية تعنى بشؤون الفقه والقضاء، وتصدر عن وزارة العدل بالمملكة العربية السعودية كل ثلاثة أشهر.

وقد جاء هذا العدد حافلاً بالعديد من الأبحاث والدراسات القضائية والفقهية.

كتب فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين عن «بيان الديات»، والشيخ عبدالله بن سليمان بن منيع عن «القضاء في الإسلام»، والشيخ منصور بن حمد المالك عن «الفصل في المظالم»، والشيخ الدكتور صالح بن عبدالرحمن الحميد عن «الحق وأنواعه»، كما كتب الشيخ الدكتور عبدالله بن إبراهيم العريني عن «تقرير العدل في الإسلام»، وموضوعات أخرى، إلى جانب ملحق إعلامي.

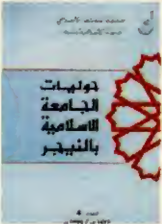
وتضمن العدد الثاني الذي صدر في ربيع الآخر ١٤٢٠هـ كثيراً من الموضوعات في ميدان تخصص المجلة.



الدرعية (العدد الخامس، السنة الثانية، المحرم ١٤٢٠هـ)

مجلة فصلية محكمة تعنى بتاريخ المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية وتراث العرب.

جاءت الدورية حافلة بالموضوعات التاريخية والتراثية والدينية، فبعد الافتتاحية كتب رئيس التحرير أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري عن «علاقة الملك عبدالعزيز بأمريكا» معدداً المراحل التي مرت بها هذه العلاقة، وعن «أخبار القبائل في نجد في القرن الثالث الهجري»، كتب فائز بن موسى البداني الحربي بحثاً تعرض من خلاله لحركة القبائل النجدية، وتموجاتها ومواقفها السياسية، وكان «حفر بني سعد والأحفار الأخرى» هو موضوع الأستاذ عبدالله بن محمد الشائع، وكان بحث الأستاذ عبدالله بن صالح العقيل عن جبل أو جبلي أبان من جبال منطقة القصيم، كما أرخ الدكتور عبدالرحمن الفريح لـ «العرب في خراسان وبلاد ما وراء النهر في العصر الأموي»، وقدم الدكتور سهيل صابان «ثلاثة نصوص باللغة التركية عن المكتبات بالحجاز»، وهناك موضوعات أخرى متنوعة.



حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر (العدد ٤، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)

حفل العدد الرابع من حولية الجامعة الإسلامية بالنيجر بالدراسات والبحوث المتعلقة بتاريخ غرب إفريقية وجنوب الصحراء، وماضي الحضارة الإسلامية.

وقد قسمت موضوعات الحولية أربعة محاور، جاء المحور الأول عن البحوث التي اختصت بالتعريف بطائفة من أعلام الحضارة الإسلامية في غرب إفريقية وجنوب الصحراء، وجاء المحور الثاني عن موضوع اللغة العربية وانتشارها في القارة الإفريقية، وتسليط الضوء على مراكز إشعاعها، وجغرافية امتدادها، ووسائط حملها إلى الآفاق.

أما المحوران الثالث والرابع فقد جاء فيهما عرض لأبرز الأنشطة الثقافية الخاصة بالجامعة خلال عام كامل، مع التعريف ببعض الإصدارات العلمية.



التواصل اللساني (مج ٨، ع ١-٢)

صدر عدد ممتاز من مجلة التواصل اللساني وهي مجلة دولية محكمة ومتخصصة في اللسانيات العامة، تصدر بمشاركة مختبر المعلوميات والمعالجة الآلية للغة العربية (م.م.م) بالرباط، وتصدر بمعدل مجلد واحد «في عددين» في السنة.

جاء هذا العدد تحت عنوان «قضايا في تعليم اللغات وتعلمها» وحفل بعدد من البحوث والدراسات منها «تطور نظم الترجمة الآلية» للدكتور عبدالله بن حمد الحميدان، و«اللغة والذاكرة»، للدكتور صالح بن حمد السحيباني، و«صناعة معاجم الألفاظ أحادية اللغة لغير الناطقين بالعربية» للدكتور أحمد مختار الشريف. كذلك حفل العدد بعدد من البحوث باللغة الإنجليزية.

أدوية من تحت الأمواج

إبراهيم علي أبو رمان

البحار ليست مورداً للغذاء فقط، وليست مصدراً للثروات المعدنية وللطاقة فحسب بل يمكن الاستفادة منها في البحث عن مصادر جديدة للأدوية، لذا كان البحث جلياً عن مصادر التلوث النفطي والصناعي والنووي التي تهدد البيئة البحرية بوجه عام والحياة في البحار بشكل خاص أثناء الإعداد لصياغة قانون جديد في معاهدة البحار. فهذه المعاهدة التي شارك في التوقيع عليها ستون دولة وأبرمت في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٤م كانت ترمي إلى المحافظة على الحياة البحرية وجعلها نظيفة وخالية من التلوث، خصوصاً بعد جهود العلماء مثل العالم الألماني مارك أسبرنجز التي أثارت مسألة الاستفادة من ثروات البحار بوصفها مصدراً متجدداً للدواء.

البحث عن الدواء منذ القدم

جاءت محاولة الإنسان القديم في البحث عن الدواء وأسلوب المعالجة منذ فجر التاريخ حيث ذكر في المخطوطات القديمة والصينية على وجه الخصوص أن بعض النباتات والحيوانات البحرية كانت تستعمل في المداواة وبخاصة الطحالب البحرية في معالجة أمراض القلب والأورام السرطانية.

أما بالنسبة إلى السكان البدائيين في أمريكا الجنوبية فقد استعملوا الأعشاب البحرية في معالجة القصور في عمل الغدة الدرقية لاحتواء هذه النباتات البحرية على كميات من اليود، كما استعمل شعب الأنكا ذو الحضارة العريقة في أمريكا الجنوبية







الطحالب والأسماك تزخر بأنواع عدة من الدواء

ألياف الطحالب البحرية في معالجة آلام الأذن.

وخلال الحربين العالميتين استعمل الأطباء أشنة طحالب البحر التي يطلق عليها سفاجنوم بعد تعقيمها بالبخار كشاش لضماد الجروح والتغيير عليها.

الدواء في البحار

تحتل المحيطات والبحار أغلب مساحة من سطح الكرة الأرضية أي ما يزيد على سبعين بالمئة من مساحتها ويعيش عليها ما يزيد على أربعة أخماس الكائنات الحية وهي بيئة غنية للكائنات الحية وبخاصة النباتات البحرية حيث تنمو بمعدل ٤٠٠٠ طن لكل ميل مربع، وهي التي تزود الغلاف الجوي بالأكسجين.

ففي الدراسات البحرية يتم تصنيف الأدوية حسب مصادرها، إذ يأتي في مقدمتها علم العقاقير التي يكون مصدرها نباتياً. وأخيراً أخذت الحياة البحرية مسمى جديداً هو علم الأدوية البحرية MA-RINE PHARMALOLGY الذي يبحث في الأدوية التي يأتي مصدرها من البحر وقد لاقى هذا العلم اهتماماً متزايداً في السنين الأخيرة، وفيما يلي بعض الاكتشافات المهمة في هذا المضمار:

- في مطلع القرن الحالي أدت الدراسات والأبحاث التي أجريت على السمك الهلامي البرتغالي إلى إلقاء مزيد من الضوء على الحساسية الأرجية وفهم مضامينها، إذ إن عضة هذا النوع من السمك تسبب هذه الحساسية، وفي كثير من الأحيان تؤدي الصدمة إلى وفاة الشخص المصاب.

- ساهمت الدراسات على السمك المعروف بالأنكليس الكهربائي أو السمك الرعاش في فهم المادة المستعملة كترياق في حالة الإصابة بتسمم ناتج من استنشاق الغازات السامة.

- كبد الحوت الذي يعد مصدراً غنياً بفيتامين (د) المستعمل في حالات الكساح ولين العظام، واليود الذي ينتشر في مياه البحر، والطحالب البحرية ساهمت في زيادة المعلومات عن عمل الغدة الدرقية، فهذه الطحالب التي تنتشر بكثرة، وتعيش في مياه عمقها يزيد على مئة وخمسين قدماً، مكنت العلماء من إحصاء ما يزيد على ١٧٠٠٠ نوع مختلفة الحجم، وقد اكتشف أن بها مواد مضادة للحياة وبعض الفيتامينات والمعادن. فهذه الطحالب تتميز بألوانها المتدرجة من الأصفر إلى الأحمر والبني والأزرق المخضر، وهي كائنات عجيبة تستهلك الفضلات والعوالق النباتية وتعمل على تنقية البحر من الملوثات التي يمتلئ بها عادة، وهي عالم قائم بذاته غني بمحتواه يغري الكثير من العلماء بالخوض في غماره على أمل البحث عن إمكانات هائلة مخزونة فيه، وكنز من الأدوية بحاجة إلى البحث عن أصوله.

وما زالت الكائنات البحرية سراً غامضاً يجري البحث على قدم وساق عن أسرارها الكمينة، وخصوصاً إذا أدركنا أن الحياة البحرية أعقد بكثير من الحياة البرية وتختلف جذرياً عنها بأصول متعددة، لكون بعض الأسماك البحرية قادرة على شل ضحاياها بصدمة كهربائية من أسواطها وإبرها أو عبر إمساك السمكة نفسها؛ إذ إنها تكون مشحونة بتيار كهربائي قادر على إلحاق الأذى بالإنسان، وبعضها تكون مميتة مثل سمكة الحجر أو السمكة الحجرية أو سمكة العقرب وسمكة الراي STON FISH .SCORPION RAYS

كائنات بحرية لمعالجة الأورام

في نهاية عقد الثمانينيات أكد الدكتور رينهارت أنهم استطاعوا إنتاج عقاقير طبية واستخلاصها من كائنات بحرية من فئة الزقيات بعضها ينتج مادة ي ٢ E2، وهي مادة مضادة للأورام ما زالت التجارب مستمرة من قبل معهد السرطان الأمريكي لكشف المزيد عنها.

ومن أهم المواد التي أسفر البحث عنها مادة المانولايد المضادة للالتهاب، وهي مادة قادرة على تخفيف الآلام الناتجة من القروح وتساعد في التئام الجروح وتخفف من الصداع، وقد التقفت الشركات الدوائية هذه المادة وبدأت في إعداد التجارب السريرية على ثلاثمئة صورة منها.

سموم الكائنات الحية وآفاق الهندسة الوراثية

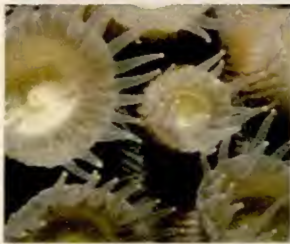
تركز البحث عن الأدوية على الحيوانات التي لا تمتلك وسيلة دفاعية واضحة غير جسمية بحيث تدفع الحيوانات المفترسة بالعدول عنها والتوجه نحو كائنات أخرى، منها أرنب البحر، وهو من الرخويات؛ إذ إنه يعيش من دون أصداف تحميه، ووسيلته الوحيدة هي طعمه السيئ الذي يعزى إلى التهامه أنواعاً من الطحالب، فهو يخزن سمومها في جسمه ومن هذه السموم تترودوتوكسين وهو سام للأعصاب ومخدر يؤدي إلى الإغماء والموت بعد ذلك نتيجة لتعطل عمل الوظائف الحيوية كالتنفس وغيره، وهذا السم تفرزه بعض أنواع البكتيريا البحرية التي تعيش في السمكة الكروية البالونية المنتفخة، وعادة ما تكون المادة موجودة في المبايض والكبد وهي أشد وأقوى من الكوكايين بمئة وستين ألف مرة تستعمل في التخدير في أثناء إجراء العمليات الجراحية.

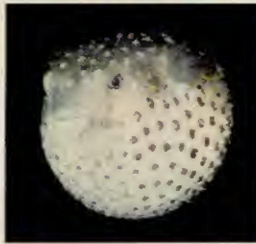
ومن السموم الأخرى «لوفوتوكسين» فهو يفوق في قدرته سم الثعابين، يستخلص من الجرجونة البحرية، وهي من الأسماك الرخوية يكمن تأثيره في أنه يعمل على وقف انتشار السيالات العصبية من مركز العصب إلى العضلات، وبإجراء الدراسات يمكن الموازنة والاستفادة منه في علاج الشلل الرعاف «الباركنسونزم» الذي ينشأ نتيجة خلل في عمل السيالات العصبية وتدفقها بكثافة.

آفاق المستقبل

مازال البحث جارياً عن المواد الكيماوية والحيوية في الكائنات الحية ومنها البحرية؛ إذ ما زال البحر غامضاً بالنسبة إلينا في كثير







تملك الأسماك والكائنات البحرية خطوطاً دفاعية مختلفة

مما يكمن فيه، والدرب مازال طويلاً وفي بداياته، واستخدام الهندسة الوراثية يعطي آمالاً جديدة لكشف المزيد من الأدوية، واستخدام المورثات الجينية في إنتاج البروتينات والأنزيمات للمساعدة في إيجاد حلول لمعضلات عجز الإنسان عنها في الوقت الحاضر.

كما أن زيادة البحث وتطويره في بعض الخصائص التي تمتاز بها بعض الكائنات الحية يمكن أن يؤديا إلى إنتاج مواد جديدة وخصوصاً في المواد المستخدمة في العمليات الجراحية ومنها الألجينات التي تستعمل بكثافة الآن ومصدرها الأساسي الطحالب ذات اللون البني، وهي تشبه السيلولوز، واستخدمت في السابق في ضماد الجروح وعلاجها، وتستعمل الآن في مجالات شتى منها المراهم والكريمات والمحاليل الغروية وما يطلق عليه جيل أو هلام، وفي تعقيم الجروح وعلاجها ووقف النزيف منها.

فهذه المادة موجودة في الطبيعة إلا أنه تم إضافة أملاح الكالسيوم إليها وتعقيمها، وإضافة مواد مثل كلوركريزول وهي مواد حافظة لتبقى محافظة على قوامها الهلامي اللزج.

هذه بعض الأمثلة مما يكمن في البحار ومما يمكن الاستفادة منه ومن خصائص الحياة البحرية ومميزاتها في سبيل تطوير الحياة بأكملها وإنعاشها على سطح الأرض.

المراجع

١. الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم، د. رياض العلمي، عالم المعرفة.
٢. ثروات جديدة من البحار، د. أنور عبدالعليم.
٣. مجلة القافلة، عدد جمادى الأولى ١٤١٧هـ
4 - WHO. SEMINARS OF MEDICINAL PLANTS. 11/1977.